

وولتر فارلي

ترجمة: بدر شاكر السيَّاب

مراجعة: جبرا إبراهيم جبرا

الجواد الأدهم



مكتبة 490

جبرا إبراهيم جبرا: تلقى العلم في الكلية العربية في القدس، وجامعة كمبردج في إنكلترا، وجامعة هارفرد في الولايات المتحدة، وكان أحد مدرسي الأدب الإنكليزي في الكلية الرشيدية حتى عام 1948، وفي كلية الآداب ببغداد من 1948-1952، له كتب عديدة منها: «عرق وقصص أخرى»، ورواية «صراخ في ليل طويل»، ورواية «Hunters in a narrow Streel»، ومقالات نقدية بعنوان: الحرية والطوفان، ومجموعة شعر باسم: «تموز في المدينة» وله ترجمة أدونيس «من كتاب الغصن الذهبي» للسير جيمس فريزر، «وهاملت لشكسبير». وقد ترجم لمؤسسة فرنكلين عدة كتب منها كتاب «ما قبل الفلسفة» كما راجع لها عدة كتب أيضاً.

وولتر فارلي: روائي أمريكي نال شهرة واسعة بعد أن ألف روايته هذه «الجواد الأدهم» التي أخرجت فيلماً سينمائياً لقي نجاحاً منقطع النظير، مما دفعه إلى تأليف عدد من الروايات التي تابع فيها حياة الجواد الأدهم وسلالته.

بدر شاكر السيّاب: وُلد في أبي الخصيب (البصرة) عام 1926 وتخرج من دار المعلمين العالمية مختصاً باللغة الإنكليزية والأدب الإنكليزي عام 1947-1948. شاعر معروف، من دواوينه الشعرية: أزهار ذابلة، أساطير، أنشودة المطر. ترجم كتاب «مولد الحرية» تأليف فرجينيا إيغرت.

وولتر فارلي

مكتبة | 490

الجواد الأدهم

ترجمة: بدر شاكر السيَّاب

مراجعة: جبرا إبراهيم جبرا



مكتبة 490

مكتبة t.me/ktabrwaya
٢٩ ٧ ٢٠١٩

الطبعة الأولى 2018

© حقوق النشر والترجمة والاقتباس محفوظة
لِـ دار التكوين للتأليف والترجمة والـنشر

هاتـــــف: 00963 112236468
فاكــــــس: 00963 112257677
ص. ب: 11418، دمشق ـ سوريا
taakwen@yahoo.com

(1)

نحو الوطن

شقَّت الباخرة جوَّابة الآفاق (دريك) المياه مبتعدة عن ساحل الهند، ودفعت حيزومها الكليل في البحر العربيِّ، تقصد الوطن. وفي بطء أخذت طريقها إلى الغرب نحو خليج عدن. وكان عنبرها محمَّلاً بالقهوة والرُّزِّ والشَّاي وبذور الدِّهن والجوت. تدفَّق الدخان الأسود من مدخنتها الفرد، صابغاً السَّماء الحارَّة الصَّاحية بالقتام.

كان (الكسندر رامسي) الابن، الذي كان معروفاً بين أصدقائه في الوطن في مدينة نيويورك بـ (أليك)، يتَّكئ على دربزين السَّفينة ويراقب الماء وهو ينزلق مبتعداً عن جانبي السَّفينة. كان شعره الأحمر يتوهج أشد احمراراً من أيِّ وقت مضى في الشَّمس الحارة. وكان كوعاه المسمران يرتاحان، بتثاقل، على الدَّربزين وهو يستدير بوجهه المُجعَّد نحو الشَّاطئ الذي راح يختفي سريعاً.

كانا فُكاهة وأُنساً هذان الشهران في الهند. ولسوف يفتقد العمَّ (رالف)، ويفتقد الأيَّام التي قضياها معاً في الأحراش، وحتى صيحات الفهود وأصوات ليل الأحراش العديدة المُفزعة. لن يفكِّر مرَّة أخرى بعملِ المبشِّر كعمل للمختَّثين.

كلا، يا سيِّدي لا بُدَّ أن تكونَ واضحاً قويَّاً، قادراً على أن تمتطي ظهر الجواد ساعاتٍ طويلةٍ في دروبِ الغابة المتشابكة.

وحدَّق أليك، في ازدهاء، في العضلات القويَّة التي في ساعديه، لقد علَّمه العمُّ رالف كيف يركب الحصان، وكان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يريد أن يفعلَه.

ولكن ذلك كلّه قد انتهى الآن. ولن يمتطي صهوةُ الجواد في الوطن إلا قليلاً، وانفتحتُ قبضتُه، وفي ودٍّ راح يتأمَّل سكينة الجيب الصَّدفيَّة التي كان يُمسكها بيده. كان مكتوباً عليها بماء الذَّهب: «إلى أليك في عيد ميلاده، بومباي، الهند». تذكَّر أيضاً كلمات عمِّه: «إنَّ السَّكينةَ، يا أليك، تكون مفيدة بعض الأحيان».

وعلى حين غِرَّة هبطت يدٌ ضخمةٌ على كتفه، وقال صوتٌ غليظ، بلهجةٍ انكليزيَّة أكيدة: «إذن يا بُنيَّ، أنت في طريقك إلى الوطن».

ورفع أليك بَصرَه إلى وجه القُبطان المُجعَّد الذي لفحتهُ الرِّيحُ ولوَّحتهُ بالسُّمرَة، وأجاب: «هلو، كابتن واطسون، إنَّه، بالأحرى، طريقٌ طويلٌ إلى الوطن رغم ذلك يا سيِّدي. إلى انكلترا معك، ثم إلى نيويورك على ظهر الباخرة ماجستيك» «حوالى الأربعةِ أسابيعَ من الإبحار، كلّها، أيّها الفتى. ولكنَّك تبدو كمَن يُحسِن مقاومة البحر».

- «إنَّني كذلك، يا سيّدي. لم أمرض مرَّة طوال الطَّريق إلى الهند، وقد لاقينا عبوراً شاقّاً أيضاً». قال أليك في ازدراء.

- ومتى جئت؟

- في حُزيران يا سيّدي، مع بعض أصدقاء أبي. وقد تركوني مع عمِّي في بومباي.. إنَّك تعرف العمَّ رالف، أليس كذلك؟ لقد صعد إلى السَّفينة معي وتحدَّث إليَّ».

- «بلى، إنَّني أعرف عمَّك رالف. رجلٌ فاخرٌ أيضاً... وأنت عائد إلى الوطن وحدك؟».

- «نعم، يا سيدي، إنَّ المدارس تفتح في الشَّهر القادم وعليَّ أن أكون هناك».

ابتسم القبطان وتناول ذراع أليك وقال: «تعال معي. سوف أُريك كيفَ نوجِّه دفَّة هذه السَّفينة وما الذي يجعلها تنطلق».

كان القبطان والبحَّارَة وكلُّ من في السَّفينة لطفاءَ مع أليك، ولكنَّ الأيام كانت تمضي رتيبةً على الفتى العائد إلى الوطن بينما أخذت الـ(دريك) تشقُّ طريقها خلال خليج عدن داخِلَةً في البحر الأحمر.

كانت الشَّمس الإستوائية تضرِب، دون رحمةٍ، رؤوس المسافرين القلائل على ظهر السَّفينة.

بقيت الـ (دريك) قريبةً من ساحل جزيرة العرب – تُحاذي أميالاً لا تنتهي من الصَّحراء العارية. لكنَّ أفكار أليك لم تكن تدور حول الرَّمل المُحرِق. جزيرة العرب – حيث تربى أعظم الجياد في العالم، أكان الآخرون يحلمون بالجياد بالطريقة نفسها التي كان يحلم بها؟ كان الجوادُ، بالنِّسبة إليه، أعظمَ حيوانٍ في العالم.

ثُمَّ في ذات يوم توجَّهتِ الـ(دريك) إلى ميناءٍ عربيٍّ صغيرٍ. وبينما راحوا يقتربون من المرسى الصَّغير، رأى أليكُ حشداً من الأهالي يتطاحنون في هياج عظيم؛ فالظَّاهر أن رُسُوَّ السَّفينة هناك لم يكن من الأحداث المألوفة كثيراً.

ولكن، حين نزلت لوحة العبور مُرسِلَةً صوتاً قويَّاً، استطاع أليك أن يرى أنَّ السَّفينة ذاتَها لم تكن هي التي اجتذبتْ كلَّ ذلك الاهتمام.

كان الأهالي يحتشدون صوب وسط المرسى. سمع أليك صفيراً حادَّاً، عالياً، واضحاً لا يُشبه أيَّ صفيرٍ سمعه من قبل، ورأى جواداً

أدهم جبَّاراً يقف على قائمتيه الخلفيَّتين، وقدَماه الأماميَّتان تضرِبان الهواء وعيناه مشدودتان بعصابة بيضاء. وتفرَّق الحشد وهرب.

كان زَبَدٌ أبيض يتصبَّبُ من جسد الجواد. وكان فمه مفتوحاً وأسنانه مشرعة. كان جواداً جبَّاراً، أسود لمَّاعاً – كأنَّه أكبر جسماً من أن يكون جواداً عربيَّاً خالصاً. كان عُرْفُه كريشةِ خوذة، يرتفع ثُمَّ ينخفض. وكانت رقبته طويلةً نحيفةً تتَّصل، مقوَّسة بالرَّأس الصَّغير، الوحشيِّ الجمال. كان رأسه كرأس أشدّ الحيوانات الوحشيَّة كلّها وحشيَّة – جواداً وُلِد وحشيَّاً- وكان جميلاً، ضارياً رائعاً. كان جواداً ذا كمال جسمانيٍّ مدهشٍ يتلاءَم وروحه الضارية التي لا تعرف الرَّحمة.

ومرَّة أُخرى حَمْحَمَ الأدهم وارتفع على قائمتيه الخلفيتَّيَن. ولم يستطع أليك أن يصدِّق عينيه وأذنيه إلا بصعوبة – جواد، جوادٌ وحشيّ – غير مُذلل كالذي كان يقرأ عنه ويحلم به.

كان حبلان يؤدِّيان من الرَّسَن إلى رأس الجواد، وكان أربعةُ رجال يحاولون أن يجذبوا الجواد نحو لوحة العبور. ورأى أليك رجلاً قاتمَ البشرة يلبس بذلة أوروبيَّة وعمامة بيضاء عالية، يوجِّه الأوامر والإرشادات. كان يُمسك سَوطَاً بيده. وأعطى أوامره بإيجازٍ في لغة لم يكن أليك ليعرفها. وعلى حين غِرَّة سار إلى مؤخِّرة الجواد وجعل السَّوط القاسي يهبط على قائمتَي الأدهم الخلفيَّتَين... وجمحَ الجواد بسرعة وصدم أحد الأهالي الممسكين بالحبل. وانطرح الرَّجل على الأرض ساكناً. وشَخَرَ الأدهم ووثب، وإذا كان أليك قد رأى الحقد يُعبِّر عنه جوادٌ فقد رآه آنذاك.

وكانوا قد أوصلوه إلى لوحة العبور. تساءَل أليك أين سيضعونه إذا ما نجحوا في إيصاله إلى السَّفينة.

ثُمَّ صعد إلى السَّفينة! ورأى أليك الكابتن واطسون يلوِّحُ بذراعيه في جنون مشيراً إلى الرِّجال صارخاً بهم أن يجذبوا الجواد نحو الدَّفة. وتبعهم الفتى على مسافةٍ تُبقيه في مأمنٍ من الأذى. والآن رأى الإسطبل المؤقَّت الذي كانوا يحاولون أن يُدخلوا الأدهم فيه – لقد كان في وقتٍ ما قمرة ذات اتساعٍ لا بأس به. لم يكن للـ(دريك) إلا وسائل قليلة لنقل الحيوانات، وكان عنبرها محمَّلاً تحميلاً ثقيلاً بالبضاعة.

وأخيراً جاؤوا بالجواد أمام الإسطبل. تسلَّق أحدُ الرِّجال إلى أعلى القُمرَة ومدَّ نفسه إلى أسفل وانتزع المنديل من على عينيِّ الجواد.

وفي الوقت ذاته ضرب الرَّجل الأسمر الجواد على قائمتيه الخلفيَّتَين فجَمَحَ الجواد مندفعاً إلى الدَّاخل. وفكَّر أليك بأنَّ الإسطبل لن يكون فيه من القوَّة ما يكفي لاحتواء الجواد. وهدَّ الجواد الخشب وأرسله متطايراً، وقعقع الرَّعد من تحت سنابكه. وجرشت قوائمه الجبَّارة جوانب القمرة. وبعث صفيره الوحشيّ الحادّ العالي الرَّعشة في صلب أليك. وأحسَّ بشفقة عميقة تتسلَّل طاغيةً عليه، فقد كان هنا جواد وحشيٌّ اعتاد على المدى المطلق، يحبس في إسطبل لا يكاد يكون فيه قادراً على أن يستدير.

كان الكابتن واطسون يتحدث، في غضب، إلى الرَّجل الأسمر، ولعلَّه لم يكن يتوقَّع أبداً أن يحمل في سفينته شحنة كهذه الشِّحنة. ثم أخرج الرَّجل محفظة مُنتفخة من داخل سترته وعدّ النُّقود وفرزها وسلَّمها إلى الكابتن. ونظر الكابتن واطسون إلى القوائم ثُمَّ إلى الإسطبل. وأخذ النُّقود وهزَّ كتفيه ومضى.

وجمع الرَّجل الأسمر الأهالي الذين ساعدوه في إصعاد الجواد إلى السَّفينة وأعطاهم نقوداً من محفظته وغادروا هابطين لوحة العبور.

وسرعان ما استأنفت الـ (دريك) سفرها. حدَّق أليك إلى الميناء، وهو يرقُبُ الجماعة وقد تجمَّعت حول جُثَّة المواطن الخامدة، ذلك الرَّجل الذي سحقته سنابك الأدهم الجبَّارة. ثُمَّ استدار نحو الإسطبل. كان الرجل الأسمر قد ذهب إلى قمرته وكان المسافرون والمنفعلون هم وحدَهم الواقفين خارج الإسطبل، والجواد الأدهم ما زال يقاتل في جنونٍ داخل الإسطبل.

كانت الأيام التي تلت ذلك أيَّاماً محمومة بالنِّسبة لأليك والمسافرين والبَحَّارة. لم يكن يحلم قطّ أنَّ حصاناً يمكن أن تكون له مثل هذه الرُّوح، وأن يكون عصيَّاً على التَّرويض كهذا. كانت السفينة تُصدي إلى أعماق الليل من الضَّربات التي تضربها تلك القوائم القوية.

كان خارج الإسطبل مغطَّى بالتَّحصينات الآن. وأصبح الرَّجل الأسمر أكثر غموضاً مما كان – فهو على الدَّوام وحيدٌ لا يتحدَّث إلى أحدٍ غير القبطان.

وأبحرت الـ(دريك) عبر السُّويس إلى البحر الأبيض المتوسِّط.

في تلك الليلة تسلَّل أليك إلى سطح السفينة تاركاً بقيَّة الرُّكاب يلعبون الورق، أصغى بعناية. كان الأدهم هادئاً الليلة. وبسرعة سار في اتجاه الإسطبل. وفي أوَّل الأمر لم يستطع أن يرى أو يسمع شيئاً وفيما ألفت عيناه الظلام، ميَّز منخري الأدهم القرمزيَّين وكان الأدهم قد أبرز رأسه من النافذة.

سار أليك في بطء نحوه. ووضع أحد يديه في جيبه ليرى ما إذا كان السكر الذي أخذه من مائدة العشاء ما يزال هناك.

كانت الرِّيح تهبُّ تجاهه، حاملةً رائحته بعيداً معها. لقد اقتربنا الآن.

كان الأدهم يُطلُّ إلى البحر الطَّليق، وأذناه مُنتصبتان ومنخراه ببشرتهما الرَّقيقة يرتجفان، وعُرْفُه الأسود يُرفرف كشعلةٍ لعبتْ بها الرِّيح.

لم يستطعِ أليك أن ينتزع عينيه عنه. لم يستطع أن يصدِّق أنَّ في الدُّنيا حيواناً رائعَ الكمال كهذا.

استدار الجواد ونظر مباشرة إليه - وتألقت عيناه السَّوداوان. ومرَّة أخرى ملأ ذلك الصَّفير الحاد هواءَ الليل، واختفى الجواد في إسطبله. أخرج أليك السكر من جيبه وتركه على دكَّة النَّافذة. وذهب إلى قمرته. وحين عاد فيما بعد كان السُّكر قد اختفى. وفي كلِّ ليلة فيما بعد كان أليك يتسلَّل إلى الإسطبل ويترك السُّكر ويغادر وكان يرى الأدهم في بعض الأحيان وفي أحيان أخرى يسمع قرقعة السنابك على أرض الإسطبل، وحسب.

* * *

(2)

العاصفة

مكتبة t.me/ktabrwaya

توقَّفت الـ(دريك) في الإسكندريَّة وبنغازي وطرابلس وتونس والجزائر، واجتازت صخرة جبل طارق واستدارت شمالاً صاعدةً إلى جانب ساحل البرتغال. والآن كانوا قد خلصوا من رأس (فنستير) على ساحل إسبانيا الكابتن واطسون أليك بأنَّهم سيكونون في إنكلترا خلال أيَّامٍ قليلة.

وتساءَل أليك في نفسه لماذا يُشحَن الأدهم إلى إنكلترا... ربَّما ليُحفَظ في إسطبلٍ للخيل، ربَّما لينسل ذريَّة. الكتفان المائلان، واللبان العميق العريض، والقوائم القويَّة والرُكب التي لا هي عالية جداً ولا واطِئة جداً، كانت هذه، كما علَّمه عمُّه، إمارات السُّرعة والتحمل.

في تلك الليلة قام أليك برحلته المعتادة إلى الإسطبل وجيباه منتفختان بالسُّكر. كان الليل حارَّاً ساكناً. وغشت سُحبٌ ثقيلةٌ على النُّجوم، وفي المدى البعيد كانت عروقٌ طويلةٌ من البرق تتسابق عبر السَّماء. أطلَّ الأدهم برأسه من النَّافذة مرَّة أُخرى، كان ينظر إلى البحر ومنخراه يرتجفان أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. واستدار وصفر حين رأى الفتى، ثُمَّ واجه الماء مرَّة أُخرى.

أحسَّ أليك بالازدهاء – كانت المرَّة الأولى التي لم ينسحب الجواد فيها إلى داخل الإسطبل لدى رؤيته. واقترب الفتى، ووضع

السُّكر في راحة يده وفي تردُّدٍ بسطها إلى الجواد. استدار الأدهم ومرَّة أُخرى صفر صفيراً، أرق هذه المرَّة. ووقف أليك حيث كان. لم يكن هو ولا سواه على مثل هذا القُرب من الجواد منذ أن جاء إلى السفينة. لكنَّه لم يغتنم الفرصة فيمدّ ذراعه إلى الأسنان المشرَّعة والمنخرين الملتويين. وبدلاً من ذلك وضع السُّكر على قاعدة النَّافذة. نظر الأدهم إلى السُّكر ثُمَّ إلى الفتى. وفي بطءٍ تحرَّك من مكانه وبدأ يأكل السُّكر. راقبه أليك للحظةٍ من الزَّمن وهو يشعر بالرِّضى، ثُمَّ عادَ إلى قمرته فيما بدأ المطر يهطل.

واستيقظ على حين غِرَّة مذهولاً في وسط الليل، لقد ترنَّحت الـ(دريك) في جنون وانقذف إلى الأرض. وفي الخارج كانت هناك قعقعاتٌ قوية من الرَّعد، وعروقُ البرق تضيء قمرته كالنَّهار.

العاصفة الأولى التي يشهدها في البحر! جذب حبل الضِّياء، لقد كان مِّيتاً لا حياة فيه. ثم أنارت القمرة مرُّة أُخرى ومضَة من البرق. كنست مائدة الكتابة في غرفته مما كان عليها، وتغطَّت أرضُ الغرفة بالزُّجاج المحطَّم. وفي عجالة لبس بنطاله وقميصه وخُفَّيه، وتوجَّه نحو الباب، ثم توقَّف. وعاد إلى الفراش وركع على ركبتيه ومدَّ يده تحت السَّرير. سحب طوقاً للنَّجاة وربطه حول نفسه. وأمل أنَّه لن يحتاجه.

فتح الباب وأخذ طريقه وهو يتعثَّر إلى سطح السفينة. ودفعه غضبُ العاصفة وغيظُها إلى الممرِّ. وتعلَّق بدربزين السُّلَّمِ وحدَّق في الخواء الأسود. سمع صيحاتِ الكابتن واطسون والبحَّارة تطفو واهنة على زئيرِ الرِّياح. وكانت أمواجٍ هائلة من الماء تكتسح الـ(دريك) من جانبٍ آخر. وازدحم الرُّكَّاب الثَّائرة أعصابهم في الممر. كان أليك خائفاً بحقّ الآن، فلم يسبق له أن رأى عاصفةً كهذه!

وطوال الفترة التي بدت له ساعات، راحت الـ(دريك) تشقُّ طريقها خلال موجة بعد موجة وهي تضطرب مائلةً على جانبها لكنَّها استطاعت بطريقةٍ ما، أن تظلَّ طافية. ولم تتلاش عروق البرق الطويلة أو تقل، كانت قرقعاتها الحادَّة – وهي تسلك طريقاً ملتوياً في السَّماء – تصدى على الماء.

مكتبة t.me/ktabrwaya

ومن الممرِّ رأى أليك أحد البحَّارة يأخذ طريقه على طول سطح المركب باتجاهه وهو يكافح بيأس، لكي يتمسَّك بالدَّربزين. وترنَّحت الـ(دريك) إلى الجانبين واكتسحتها موجةٌ هائلة. وبعد أن انحسرت الموجة، كان البحَّار قد اختفى. أطبق الفتى عينيه وصلَّى.

بدأت العاصفة تهدأ قليلاً وأحسَّ أليك بأملٍ جديد، ثم بدا، على حين غِرَّة، أنَّ قذيفةً من النَّار تسقط من السَّماء عليه. قعقعةٌ حادَّةٌ واهتزَّت السفينة. وانقذف أليك على وجهه، مخدَّرُ الحِس. وفي بطءٍ استعاد وعيَه، كان منطرحاً على معدته. وأحسَّ بوجهه حارّاً لزجَاً. رفع يده وسحبها ملوَّثةً بالدَّم. ثُمَّ أحسَّ بأقدامٍ تطأه. كان الرُّكَّاب مُولَولين صارخين، يتسلَّقون ويزحفون عليه. فقد كانت الـ (دريك) ساكنة، ومحركّاتها ميتة.

دفع أليك بنفسه، بعد نضال، واقفاً على قدميه، وفي بطءٍ أخذ طريقه على سطح السفينة. والتقطت عيناه المذعورتان المشهد من حوله. بدت الـ(دريك) وقد صعقها البرق مشطورةً إلى نصفين! كانوا يغرقون! ومن الغريب أن يكون شعوره بارداً، مع ما بدا من أنَّ النَّهاية قريبة جداً، كانوا يُزوِّدون زوارق النَّجاة بالرِّجال. وكان الكابتن واطسون هناك يصرخ بالأوامر والإرشادات. كان أحد الزوارق ينزل إلى الماء. وأخذته موجةٌ كبيرةٌ من جانبه وقلبته، واختفى من فيه تحت الماء.

كان زورق النَّجاة الثَّاني يُملأ وانتظر أليك دوره. ولكن حين جاء ذلك الدُّور، كان الزورق قد بلغ غايةَ حُمولته، وقال الكابتن واطسون بصرامة: «انتظر الزورق الثَّاني يا فتى». ووضع ذراعه على كتف الغُلام. وحاول أليك جهده لكي يبتسم. وفيما كانوا يراقبون زورق النَّجاة الثَّاني ينزل إلى الماء، ظهر الرَّجل الأسمر واندفع إلى القُبطان، مُلوِّحاً بذراعيه مُثرثراً بصورةٍ هستيريَّة.

هتف الكابتن واطسون به: «تحت السَّرير! تحت السَّرير! ثم رأى أليك أنَّ الرَّجل كان دون طوق نجاة. والتفت - والرُّعب في عينيه - عن الكابتن إلى أليك. وفي جنون اندفع إلى الغلام وحاول أن ينزع طوق النجاة من ظهره. كافح أليك وناضل، ولكنَّه لم يكن يوازي الرَّجل نصف المجنون قوَّة، ثُمَّ وضع الكابتن واطسون يديه عليه ورماه على الدَّربزين.

رأى أليك عينيِّ الرَّجل يتَّجهان إلى زورق النَّجاة الذي كان ينزل إلى الماء. وقبل أن يستطيع القُبطان إيقافه، كان يتسلَّق من على الدَّربزين. كان يريد أن يقفز إلى الزورق! تمايلت الـ(دريك) على حين غِرَّة. ففقد الرَّجل توازنه وسقط إلى الماء وهو يصرخ. ولم يبرز إلى سطح الماء أبداً.

لقد غرق الرَّجل الأسمر، وفي الحال فكَّر أليك بالأدهم، ما الذي يحدث له؟ شق أليك - مدفوعاً بحافزٍ لا يُقاوم - طريقَه، نحو دفَّة السفينة، إذا كان الجواد حيَّاً فسوف يطلِقُ سراحه ويعطيه الفرصة لأن يُقاتل من أجل حياته.

كان الإسطبل ما يزال قائماً. سمع أليك صفيراً حادَّاً يرتفع على العاصفة. اندفع إلى الباب ورفع القضيب الثَّقيل وأشرعه. ولثانية من

الزَّمن توقَّفت السَّنابك الجبَّارة عن قرع الأرض وكان ثمَّةَ صمت. وتراجع أليك منسحباً في بطء.

ثم رأى الأدهم، وقد رفع رأسه عالياً ومنخراه مُتَّسعان من الهياج. وعلى حين غِرَّة شخر وقفز إلى الدَّربزين. شلَّ أليك فلم يستطع حراكاً. كانت إحدى يديه على الدَّربزين الذي كان مكسوراً في ذلك المكان غير تارك شيئاً بينه وبين الماء الطَّليق. انحرف الأدهم حين اقترب منه وأدرك الفتى أنَّ الجواد يتَّجه نحو الفجوة. احتكَّ به متنُ الجواد وهو ينحرف، وانقذف أليك طائراً إلى الفضاء وأحسَّ بالماء يُطبِق على رأسه.

حين ارتفع من تحت الماء، كان أوَّل ما فكَّر به السفينة، ثُمَّ سمع انفجاراً ورأى الـ(دريك) تغوصُ عميقاً في الماء. وفي جنونٍ تلفَّت حواليه باحثاً عن زورقِ نجاةٍ لكنَّه لم يرَ أيَّ زورق. ثُمَّ رأى الأدهم يسبح على بعد لا يزيد عن ياردات عشر. هفَّ شيء ما إلى جانبه – حبل، وقد كان موصولاً برسنِ الأدهم.

كان نفس الحبل الذي استعملوه لإصعاد الجواد إلى السفينة والذي لم يحلوه. ثُمَّ جذب أليك خلال الماء، إلى البحر الطَّليق.

كانت الأمواج ما تزال هائلةً. لكنَّ أليك - بمعونة من طوق النجاة - استطاع أن يبقى على القمَّة منها. لقد ذهب الآن إلى أبعد مما يستطيع معه أن يفكِّر كثيراً بما قد فعل. كان لا يعرف غير أنَّه مخيَّرٌ بين أن يبقى في الماء وحيداً، أو أن يجرَّه الأدهم. إذا كان لا بدَّ من الموت فأحرى به أن يموت مع الجواد الجبَّار من أن يموت وحيداً. نظر نظرةً أخيرةً وراءَه ورأى الـ(دريك) تغطس إلى الأعماق.

راح أليك يصارع الأمواج لساعات. كان قد ربط الحبل ربطاً محكماً حول طوق النَّجاة الذي يلبسه، وبصعوبةٍ مُتناهية استطاع أن يُبقي رأسه مرفوعاً، أحسَّ بالحبل يرتخي على حين غِرَّة. فقد توقف الأدهم عن السِّباحة! وانتظر أليك بقلق. استطاع وهو يخترق الظَّلماء ببصره، أن يتبيَّنَ رأسَ الجواد وحده. مزَّق صفيرُ الأدهم أديم، الهواء. بعد دقائق قليلة توتَّر الحبل مرَّة أُخرى. كان الجواد قد غيَّر اتجاهه. مرَّت ساعة أُخرى ثم تضاءلت العاصفة وتلاشت إلى أمواجٍ عاليةٍ مُتلاطمة. وظهرت على الأفق الخيوط الأولى من الفجر.

كان الأدهم قد توقَّف أربعَ مرَّات في أثناء الليل، وفي كلِّ مرَّةٍ كان يغيِّر اتجاهه. وتساءل أليك في نفسه عمَّا إذا كانت غريزة الجواد الوحشيَّة تقودُه إلى البر.

أشرقت الشَّمس وشعَّت مُلتمعة على رأس الغلام. وجعله الماء المالح الذي ابتلعه في أثناء الليل، يكاد يُجنُّ من الظَّلماء. ولكن حين أحسَّ أليك بأنَّه لم يعد يستطيع الصَّبر مُدَّة أطول، تطلَّع إلى الحيوان المُكافح المُقاتل أمامه، فانبعثت فيه شجاعة جديدة.

أدرك، على حين غِرَّة، أنَّهما ذاهبان مع الأمواج. بدلاً من الذَّهاب ضدَّها. هزَّ رأسه مُحاولاً أن يُصفِّي ذهنه. نعم، لقد كانا يبتعدان عن وسط اللجَّة. ولا بُدَّ أنَّهما قريبان من البر. وبلهفة اشرأبَّ بعينيه المملوءتين مِلحاً ونظر إلى المدى. ثم رآه – على مسافة ما يُقارب ربع الميل، الشاطئ! جزيرة وحسب، ولكن لا بد أن يكون هناك طعامٌ وماء، وفرصةٌ للبقاء على قيد الحياة. وأسرع فأسرع حتَّى وصلا إلى الرَّمل الأبيض. كانا وسط الأمواج المتكسِّرة على الشَّاطئ. بدَّدَ السُّكون تصهال الأدهم... وهو يقدر على المشي. تعثَّر قليلاً ثُمَّ

هزَّ رأسه الأسود. ثُمَّ تغيَّرت حركته على نحوٍ عجيب. وراح أسرع من ذي قبل خلال الماء الضَّحضاح.

دار رأس أليك وداخ – يا لقوَّة هذا الحصان وتحمُّله! كان يسحب نحو الشاطئ بسرعةٍ متزايدةٍ أبداً. وعلى حين غِرَّة أدرك خطر مركزه. يجب أن يحلَّ الحبل من حول خصره، وإلا فسيُسحب، حتَّى الموت، على الرَّمل. وفي يأسٍ طارت أصابعه إلى العقد. كانت مشدودة بقوَّة، لقد تأكَّد من ذلك. وفي جنونٍ راح يعمل أصابعه فيها والشَّاطئ يقترب مُتسارعاً...

كان الأدهم الآن على السَّاحل. بدأ الرَّعد يقعقع من تحت سنابكه حين انفلت خارجاً من الماء. إنَّ السَّاعات التي قضياها في الماء قد أورمت العقدة فلم يستطع أليك أن يحلَّها. ثُمَّ تذكَّر السكِّين الصَّغيرة في جيبه. أَيمكن أن تكون هناك؟ انطلقت يده إلى داخل الجيب الذي في مؤخِّرة بنطاله. كان قد زرَّهُ لحُسن الحظّ. وصلت أصابع أليك إلى داخل الجيب وخرجت تقبض على السكِّين.

هو الآن على السَّاحل والجواد يجرُّه. تطاير الرَّمل في وجهه، وبسرعةٍ فتح السكِّين وبدأ يقطع الحبل، كان جسده يحترق من الرَّمل وملابسهُ قد تمزَّقت عنه. كانت سرعته تزداد كلَّ ثانيةٍ من الزَّمن! وفي جنونٍ راح يحزُّ في الحبل. وفي سحبةٍ نهائيَّةٍ للسكِّين... تحرَّر. احتضنَتْ يداه الممدودتان الرَّمل. وبينما أغلق عينيه، غمغمت شفتاه الجافَّتان: «نعم – أيها العمُّ رالف – لقد أفادتني».

* * *

(3)

الجزيرة

فتح أليك عينيه. كانت الشَّمس، وهي عالية في السَّموات، تصبُّ نارها على رأسه العاري، أحسَّ بوجهه ساخناً وبلسانه متورِّماً. وفي بطء دفع جسده المتعب من الأرض ثَمَّ سقط على الرَّمل. اضطجع ساكناً دقائقَ قليلة. ثُمَّ جمع نفسه وحاول ثانية أن ينهض على رُكبتيه ثُمَّ على قدميه. ارتجفت رِجلاه من تحته. وفكَّ بكلة طوق النَّجاة الممزَّق وتركه يسقط إلى الأرض.

تلفَّت حواليه. إنَّه في حاجة يائسة إلى الماء. رأى آثار سنابك الأدهم في الرَّمل. ربما ستقوده، إذا تبعها، إلى ماء عذب.

كان واثقاً من أنَّ الجواد ظامئٌ مثله. سار أليك متعثِّراً متخبِّطاً. آثار السنابك تنحرف عن المحيط انحرافاً حادّاً مُتَّجهة نحو داخل الجزيرة.

لم يكن أثر من خضرة حوله – الرَّمل وحده. استدار ونظر إلى البحر الذي أصبح الآن هادئاً ساكناً. كلٌّ هذه الأحداث وقعت في مثل هذه الفترة القصيرة من الزَّمن! ما الذي حدث للآخرين؟ أطبق عينيه وحرَّك شفتيه.

بعد بضع دقائق استدار وأخذ طريقه نحو تلٍّ كبير من الرِّمال. وعند القمَّة توقَّف. ومن حيث وقف استطاع أن يرى الجزيرة كلَّها. كانت صغيرة، لا يزيد محيطها عن ميلين. وهي تبدو عارية إلا من

أشجارٍ قليلةٍ وشُجيراتٍ وبقع قليلة متناثرة من العشب المحترق. كانت قمماً صخريَّة عالية تنحدر إلى البحر على الجانب الآخر من الجزيرة. كانت آثار سنابك الأدهم تنحدر من التَّل، وعلى مسافةٍ قصيرةٍ تحت أشجارٍ قليلةٍ متناثرةٍ رأى أليك بركةً صغيرةً من ماء يُنبوع. مرَّ لسانه الجافَ على شفتيه اليابستين المتفطِّرتين وتعثَّر سائراً إلى يمين اليُنبوع. على مسافة مائة ياردة، رأى الأدهم يأكل العشب الجاف في جوع. ورأى أليك - مرةً أُخرى - ذلك الميناء العربيَّ الصَّغير والحشد المجتمع حول جسد ذلك الرَّجل الممدَّدِ الذي ضربه الأدهم. هل سيكون هو في مأمنٍ من الجواد؟

تطلَّع الأدهم رافعاً رأسه من العشب الذي كان يرعاه. لاحظ الصَّبيَّ أنَّ لِجامه والحبل قد ذهبا، استطاع الجواد بطريقةٍ ما أن يتخلَّص منهما، ساطت الرِّيح عرفه. كان جسده النَّاعم الأسود يتألَّق تحت الشَّمس. رأى أليك فتجاوَبَ صفيره الحادّ خلال الهواء. وقب على قائمتيه الخلفيَّتين وقائمتاه الأماميتان تضرِبان الهواء. ثُمَّ هبط وخبطت قائمته الأماميَّة اليمنى القاذورات.

تلفَّت أليك حوله. لم يكن هناك مكان يلتمس المأوى فيه، كان أضعفَ من أن يركض، حتَّى لو كان ثمَّة مأوى. عاد بصرُه إلى الجواد مسحوراً بمخلوق وحشيٍّ قريب كهذا القرب. كان هنا أشدّ جميع الحيوانات الوحشيَّة وحشيَّةً - لقد قاتل من أجل كلِّ ما يحتاج إليه، من أجل الطَّعام، من أجل القيادة، من أجل الحياة نفسها. كانت طبيعته أن يَقتُل أو يُقتَل. ارتفع الجواد على قائمتيه الخلفيَّتين مرَّة أُخرى ثُمَّ شخر وجمح نحو الغلام.

لم يتحرَّك أليك. كان جسده متخدِّراً. راقب الجواد يتوجَّه، وهو ممغنط. ثُمَّ توقَّف الأدهم على مسافةِ خمسٍ وعشرين ياردة منه. تألَّق

بياضُ عينيه، والتوى منخراه، والتصقت أذناه على رأسه. صفَّر صفيراً حادّاً واضحاً طويلاً. وعلى حين غِرَّة تحرَّك بين أليك واليُنبوع. كان يخبط الأرض في غيظ.

وقف أليك ساكناً، لا يجرؤ على أن يتحرَّك. وبعد ما بدا ساعات، توقَّف الجواد عن ضرب الأرض بقدمه. وانصرفت نظرته عن الصَّبي إلى البركة ثُمَّ عادت إليه. وصفَّر وقبَّ نصف قبَّة على قائمتيه الخلفيَّتين، ثُمَّ انطلق بخطواته الطِّوال راكضاً في الاتِّجاه الذي جاء منه.

أرغم أليك رِجليه على أن تتحرَّكا وبلغ اليُنبوع وألقى بنفسه على الأرض بجانبه. وترك وجهه ينغمس في الماء البارد الصَّافي. بدا له أنَّه لن يحصل من الماء على ما يكفيه. بلَّل رأسه وترك الماء ينحدر على قفاه. ثُمَّ اقتطع جزءاً من قميصه وغسل جسمه الذي لم يبق منه إلا العظم والجلد. زحف، بعد أن انتعش، تحت الشُّجيرات الظَّليلة إلى جنب البركة. مدَّد نفسه وأغمض عينيه وغرق في النوم وهو مُنهك.

مرَّةً واحدةً وحسب أثناء الليل تحرَّك أليك، فتح عينيه وهو نعسان. استطاع أن يرى القمر من خلال الشُّجيرات، عالياً في السَّماء المرصَّعة بالنُّجوم: تحرَّك شبحٌ أسودٌ ضخمٌ عند اليُنبوع، الأدهم على مسافة أقدامٍ قليلةٍ وحسب! عبَّ من الماء ثُمَّ رفع رأسه الجميل وأذناه مشرعتان إلى الأمام. ثُمَّ استدار وابتعد يسير خَبَباً.

استفاق أليك في الصَّباح التَّالي وهو في غاية الجوع، لقد قضى يوماً ونصفَ يومٍ دون أن يأكل، نهض وشرب من اليُنبوع، كان الشيء التَّالي أن يجد طعاماً. سار مسافةً غير قليلة قبل أن يجد ما يصلُح للأكل. كانت شجيرة من شجيرات العلَّيق. كان الثَّمر يختلف عن أيِّ شيءٍ ذاقه من قبل. لكنَّه قد لا يسهل عليه أن يجد أيَّ شيءٍ سواه مما يستطيع أن يأكله، وهكذا اغتذى بالعلَّيق.

ثُمَّ راح يستكشف الجزيرة، وجدها منبسطة بين التَّلِّ الذي كان قد تسلَّقه في اليوم الفائت، وبين الأجراف الصَّخريَّة في الجانب الآخر من الجزيرة. لم يحاول أن يتسلَّق الجلاميد الكبيرة. كان ثمَّة قليلٌ من شجيرات العلَّيق ومن العشب، وأدرك أليك أنَّ الطَّعام سيكون نادراً له وللأدهم. بدَتِ الجزيرة وكأنَّها غير مسكونة نهائياً. لم يرَ طيوراً ولا حيوانات من أيٍّ نوع.

سار في بطء عائداً في اتجاه اليُنبوع. من قمَّة التَّلِّ أطلَّ على البحر. وهو يؤمِّل في أن يرى سفينة. كانت مسافات الماء الأزرق الشَّاسعة تنبسط أمامه. وتحت رأى الأدهم يخبُّ على طول الشَّاطئ. نسي أليك مشاكله في جمال الجواد وهو يتخطَّر بهيَّاً في خطوته السَّريعة وعرفه الأسود وذيله يتطاير. حين اختفى الحصان حول عطفة الجزيرة. هبط أليك إلى الشَّاطئ.

كان الشَّيء التَّالي الذي يجب عليه القيام به أن يقيم مأوى ما لنفسه. وعليه أوَّلاً، أن يجد الخشب: اكتسحت عينا أليك الشَّاطئ. رأى قطعة ثُمَّ أُخرى.

وطوال السَّاعات القليلة الباقية تصارع مع الخشب الذي وجده مرمياً على الشَّاطِئ، وهو يسحبه نحو اليُنبوع. كومة، ودهش حين رأى كم جمع منه. بحث عن قطعةٍ طويلةٍ ثقيلةٍ ووجد واحدةً تُلائم غرضه. سحبها نحو شُجيرتين متلاصقتين وحشرها بين السَّاقين وعلى حين غرَّة اهتزَّ ذراعه فتوقَّف. كان الاسم (دريك) مكتوباً على اللَّوحة الشَّهباء، لقد كانت جزءاً من أحد زوارق النَّجاة! وقف أليك ساكناً لمدَّةٍ دقيقة، ثُمَّ ثبَّت اللوحة في موضعها تثبيتاً جيِّداً في عُبوس.

ثُمَّ أسند القطع الباقية من الخشب على كلِّ جانب من اللوحة، صانعاً مأوى له على هيئة خيمة. ملأ النِّهايتين المكشوفتين كأحسن ما استطاع. وبسكِّينته قشَّر اللحاء من إحدى الأشجار وربط قِطَع الخشب معاً.

عاد أليك إلى الشَّاطئ وجمع كلَّ أعشاب البحر التي استطاع أن يحملها. وحشاها في جميع الحُفر والثُّقوب العارية. وتأمَّل مأواه الذي أكمله، كان خائفاً من أن ريحاً قويَّة ستعصف به وتسقطه عليه.

تطلَّع إلى الشَّمس السَّاخنة وخمَّن أنَّ الوقت قريب من الظَّهيرة. كان جبينه وملابسه مبلَّلة بالعرق من الحرارة الرَّهيبة. قطع عصا طويلة رقيقة من شجرة وجرَّبها فوجدها قويَّة. وفي عنايةٍ قشَّرها وقصَّها إلى الطُّول المناسب. ثُمَّ ربط سكِّينته، ربطاً وثيقاً، إلى نهاية العصا بقطعة من اللِّحاء.

بعد وقتٍ قصيرٍ وقف أليك إلى جانب خليجٍ صغيرٍ اكتشفه ذلك الصَّباح. كان الماء صافياً والرَّمل يلتمع ببياضٍ من تحته. جلس على الضِّفة وحدَّق بلهفةٍ في الماء، وكان قد قرأ عن النَّاس الذين يصيدون الأسماك بهذه الطَّريقة. وبعد مضيٍّ بعض الوقت رأى تموُّجاً، وفي حذرٍ رفع حَربته المرتَجَلة. ثُمَّ قذفها بكلِّ قوته. وهسهست العصا الطَّويلة، هابطة وشقَّت طريقها إلى الرَّمل الأبيض. لقد أخطأ!

جذب حَربته من الماء وانتقل إلى بُقعة أُخرى. ومرَّةً أُخرى انتظر في اصطبار. مضى وقتٌ طويلٌ قبل أن يرى سمكة أُخرى. تحرَّك شكلٌ نحيلٌ طويلٌ في الماء الضَّحضاح تحته. رفع حَربته وسدَّدَ هدفه وقذف حَربته مرَّةً أُخرى. رأى السِّكين تُصيب! وجذب الحَربة، خائفاً أن تنفلت السِّكين من السَّمكة، ووثب إلى الماء الضَّحضاح ودفعها نحو القعر. وفي يأس خفت ذراع أليك مُنحدرة على العصا، باحثةً عن

السَّمكة. كان الماء معكَّراً بالرَّمل. ووصل إلى النهاية فلم تُلاقي أصابعه الممدودة إلا النّصل الحديديَّ. لقد أضاع السَّمكة!

ولبقية ما بعد الظُّهر، كافح أليك ليصطاد سمكة. وفيما هبط الظَّلام نهض مُتعباً على قدميه وسار في بطءٍ عائداً إلى (بيته) الجديد. وكانت عيناه تؤلمانه من جرَّاء جهد ساعاتِ البحث المستمر في أعماق الماء.

وفي طريقه، توقَّف عند شجرة العلَّيق وأكل في جوع. وحين بلغ اليُنبوع. رأى الأدهم غير بعيدٍ عنه. تطلَّع الجواد فرأى الغلام واستمرَّ يأكل. كان - وهو ينتقل من مكان إلى آخر - يقضم رقع العشب الصَّغيرة التي يقع عليها. فكَّر أليك: (أُراهن أنَّه لا يقلُّ جوعاً عني). وخَرَّ على الأرض وشرب من اليُنبوع.

جاء الظَّلام بسرعة. وعلى حين غِرَّة أحسَّ أليك بسكونِ الجزيرة وهدوئِها. لا أطيار ولا حيوانات ولا أصوات. فكأنَّه هو والأدهم المخلوقان الوحيدان في العالم. أشعَّت ملايين النُّجوم فوق رأسه وبدت قريبة جداً. وأشرق القمر عالياً مستديراً، مُلقياً انعكاسه على البركة.

تطلَّع الأدهم من مرعاه. بدا وكأنَّه هو أيضاً يُراقب القمر. صفَّر أليك صفيراً منخفضاً ثُمَّ صفيراً أعلى لا يلبث أن يتلاشى. لحظة من الصَّمت ثُمَّ مزَّق صفيرُ الجواد الحاد هواء الليل. رأى أليك الأدهم ينظر في اتجاهه ثُمَّ يواصل بحثه عن العشب.

فابتسم وزحف إلى مأواه. لقد أتعبه عمل النهار وسرعان ما غرق في النَّوم.

وأطلَّ الصَّباح التَّالي على أليك قرب الخليج الصَّغير وحَربته في يده وهو مصممٌ على أن يصطاد سمكة للفطور. وعند الظُّهر أكل

العلَّيق. وعند العصر شعر بأنَّه مريض داخ رأسه ودار. وما كان إلا بصعوبة. ليستطيع أن يمنع مقلتيه عن الانطباق.

ظهرت دوَّامةٌ صغيرةٌ على سطح الماء. قبض أليك الخربة بجانبه ونهض على ركبتيه فرأى جسماً أشهب في الماء تحته. فرفع حَربته وحرَّكها مُتابعاً حركة السَّمكة ثُمَّ أطلقها. ارتجف النَّصل في انطلاقه. لقد أصاب. وَثْبَ إلى الماء، دافعاً الحَربة والسَّمكة نحو القعر. يجب ألا يفقد هذه السَّمكة. وصلت يده إلى السِّكينة، كانت السَّمكة هناك تتلوَّى وتُناضل، ثُمَّ أخذها وبسرعة رفع السَّمكة من الماء ورمى بها وبالحَربة إلى الضِّفَّة. وصعد إلى الضِّفَّة في تعبٍ ونظر إلى صيده. وقال في جوع: (قدمان ولو كانت إنشاً واحداً). سحب الحَربة والتقط السَّمكة وعاد إلى المخيَّم.

غسل أليك السَّمكة في اليُنبوع. ثُمَّ وضعها على قطعةٍ من الخشب وسَفَطَها. والآن لو أنَّه استطاع أن يحصل على نار تذكَّى!

تذكَّر أنَّه راقب أحد أهالي الهند يُشعل ناراً دون ثِقاب. ربَّما استطاع أن يفعل الشَّيء نفسَه.

جمع بعض قطع اللِّحاء الصَّغيرة والخشبَ الجاف وعشَّ طائرٍ مهجورٍ، ونثرها وعلى الأرض أمامه التقط أجفَّ قطعةٍ من الخشب وحفر ثُقباً في منتصفها بسكِّينته. في عناية انتزع خيوطاً صغيرة من القشِّ من عشِّ الطائر ووضعها داخل الثُّقب. سوف تشتعل بسرعة. ثُمَّ قطع غُصناً قويَّاً من أغصان المطَّاط يبلغ طوله حوالى الثَّمانية عشر إنشاً من شجرةٍ قريبةٍ وقشَّره ووضع إحدى نهايتيه في الثُّقب واتَّكأ على العصا فحناها ثُمَّ أدار بسرعة القسم المنحني كمثقب نجَّار.

بدا لأليك أنَّ ساعةً مرَّت قبل أن يتصاعد الدُّخان. دفعت ذراعاه المتعبتان بأقوى من ذي قبل، وفي بطء تنامت شعلة صغيرة ثمَّ اشتعل الخشب اليابس بالنَّار. وأضاف مزيداً من الخشب. ثُمَّ اختطف السَّمكة ولفَّها ببعض أعشاب البحر التي كان قد غسلها من قبل، ثُمَّ وضعها على قمَّة النَّار.

حرَّك أليك السَّمكة فيما بعد، جرَّب قطعة منها فوجدها طيِّبة. ثُمَّ افترس بقيَّتها وهو في جوعه.

مرَّت الأيامِ وكافح الفتى في يأسٍ ليجد طعاماً يُبقي عليه الحياة. لم يَصِد إلا سمكةً واحدةً أُخرى. سيكون مستحيلاً عليه أن يعتمد على البحر ليوفِّر معيشته. تحوَّل مرَّةً أُخرى إلى العلَّيق، لكنَّه كان يتضاءَل ويتلاشى بسرعة. دبَّر أن يُبقي ناره مُشتعلة بعد أن جعلت الحرارةُ الوقودَ اليابس وفيراً. وعلى كلِّ حال، كانت النَّار ذات نفع قليل له إذ لم يكن لديه ما يطبخه.

وفي الأيام التَّالية بينما كان أليك يسير على السَّاحل رأى قوقعةً حمراءَ كبيرةً في البعد، شدَّ قبضته على حَربته. كانت تبدو كسلحفاة. ثُمَّ جعله الجوع يفقد كلَّ حذر فاندفع إلى الأمام وحربته مرفوعة. رمى نفسه على القوقعة وغطست سكِّينته تحفر الفتحة حيث اعتقد أنَّ رأس السُّلحفاة كان. وفي يأسٍ قلب القوقعة ظهراً لبطن، لقد كانت فارغة خاوية الجوف. لم تلاقي نظرة أليك الجائعة سوى القوقعة الخاوية. وقف ساكناً دائخاً. وفي بطءٍ استدار وسار عائداً إلى المخيم.

كان الأدهم يشرب من اليُنبوع. كان جسده الكبير قد بدأت تظهر عليه أَمارات الجوع. لم يعد أليك يشعر بأيِّ خوفٍ منه. رفع الجواد رأسه المتكبِّر ونظر إلى الصَّبي. ثُمَّ انصرف وخبَّ مبتعداً. راحت الرِّيح تسوط عرفه الطَّويل المتطاير. وملأ صفيره الهواء.

راقبه أليك، حاسداً روحه الوحشيَّة المتكبِّرة. كان الحصان مُعتاداً على مشاق الصَّحراء. لعلَّه سيعيش بعد أن يموت هو. طغت فكرة الغلام نصف الواعية على سطح عقله: (هناك طعام، لو أنَّك استطعت مجرَّد أن تجد طريقة ما لقتله). ثُمَّ هزَّ رأسه كارهاً نفسه. يقتل الحيوان الذي أنقذ حياته؟ كلا أبداً – حتى لو استطاع، فإنَّه يفضِّل أن يموت جوعاً! بلغ الجواد قمَّة التلِّ ووقف هناك، كتمثال أسود جميل. ونظرته متَّجهة إلى البحر.

في ذات صباحٍ أخذ أليك طريقه، في ضعف، نحو الجانب الصَّخري من الجزيرة. أتى إلى الصُّخور الضَّخمة وتسلَّق إلى قمَّة واحدة منها. كانت أكثر عريَّاً من أيِّ جزء آخر من الجزيرة، كان البحر في حالة جَزر. جالت عينا أليك على الشَّاطئ الصَّخري، لاحظ مادَّةً تُشبه الطُّحلب على جميع الصُّخور عند حافة الماء، وعلى الصُّخور الممتدَّة خارجه وقد عراها المدّ. ما الذي كان ذلك الشَّيء الذي جعلهم معلِّم علم الحياة يأكلونه في إحدى تجاربهم؟ ألم يسمِّه (الطُّحلب الأيرلندي)؟ نعم، ذلك هو. قال المعلِّم أنَّه نوعٌ من أعشاب البحر ينمو بوفرة على طول الأقسام الصَّخريَّة من ساحل الأطلسيِّ في أوروبا وأمريكا الشَّمالية، وأنَّه حين يُغسل ويُجفَّف يُصبح صالحاً للأكل. أيمكن أن يكون الطُّحلب الذي على الصُّخور من تحته، من ذلك النوع؟ لم يكد أليك يجرؤ على أن يأمل في ذلك.

وفي بطء قام بذلك الهبوط الخطر. بلغ حافَّة الماء وتخبَّط عبر الصُّخور. أخذ حَفنة من الطُّحلب النَّاعم الأخضر الضَّارب إلى الصُّفرة الذي كان يغطِّيها ورفعه إلى شفتيه. كانت له نفس الرَّائحة، ذاقه. كان الطُّحلب مالحاً بصورة فظيعة من البحر. لكنَّه كان نفس ما أكله ذلك اليوم، في غرفة الصَّفِّ!

وبلهفة ملأ جيبه به، ثُمَّ خلع قميصه فملأه بكلٍّ ما اتَّسع له. تسلَّق صاعداً مرَّةً أُخرى وأسرع عائداً إلى المخيَّم. وهناك أفرغ الطُّحلُب على الأرض في جانب اليُنبوع. وقضى ربع السَّاعة التَّالية يغسله ثُمَّ وضعه في الشَّمس ليجفَّ. وفي جوعٍ ذاقه مرَّة أُخرى. كان أحسن. لقد كان طعاماً!

حين انتهى من الأكل، كانت الشَّمس تهبط إلى المحيط والسَّماوات تُظلم بسرعة وفي البعد رأى أليك الجواد مُقبلاً نحو اليُنبوع.

وبسرعة التقط بعض الطُّحلُب لنفسه وترك البقيَّة على الأرض بجانب البركة. هل سيأكل الأدهم! هرع أليك إلى مأواه ووقف ساكناً يرقب عن كثب.

اندفع الأدهم مُقبلاً وهزَّ رقبته الطَّويلة وغمس فمه في الماء. وعبَّ طويلاً. وحين انتهى نظر نحو الغلام، ثُمَّ ارتجف منخراه القرمزيان. وضع الأدهم فمه على الأرض وسار نحو الطُّحلب الذي تركه أليك، وراح يشمُّه. ثُمَّ التقط قليلاً منه بفمه وراح يأكل، مضغ طويلاً وبعناية. ومدّ رأسه يطلب المزيد.

في تلك الليلة نام أليك أحسن مما قد نام منذ أن حلَّ بالجزيرة. لقد وجد طعاماً يُبقي على حياته وحياة الأدهم!

* * *

(4)

أشدُّ المخلوقات كلّها وحشيَّة

في اليوم التَّالي انطلق أليك ليحصل على المزيد من الطُّحلُب الإيرلندي. وحين اقترب من الصُّخور رأى الجواد واقفاً في سكون إلى جانب جُلمود كبير. لم تكن عضلة لترجف في جسمه الأسود، كما لو أنَّ فنَّاناً قد رسم الأدهم على صخرةٍ بيضاء. تسلَّق أليك هابطاً إلى حفرة صغيرة وتوقَّف ليتطلَّع باحثاً بين الصُّخور تحته. وعلى حين غِرَّة سمع حمحمة الجواد، كانت أكثر حِدَّة وأكثر إثارة للدَّم ممّا قد سمع من قبل. نظر إلى الأعلى.

كان الأدهم على قائمتيه الخلفيَّتين وقد كشَّر عن أسنانه. ثُمَّ انطلق، بقفزة جبَّارة، من الجُلمود نحو أليك، وجاء بخفَّة، وكانت سرعته تزداد مع كلِّ خطوة رائعة يخطوها. كان يوشك أن يكون على القمَّة من فوقه عندما أرعد واقفاً وقب على قائمتيه الخلفيَّتين مرَّة أُخرى.

وثب أليك جانباً وعثر بصخرة وسقط أرضاً. وعالياً من فوقه كانت قوائم الأدهم تضرب الهواء، ثُمَّ هبط فأصبح على مسافة ياردات ثلاث أمامه! ومرَّة ثانية راح يقب ويهبط. ومرَّة بعد أُخرى راح يخبط الأرض بقوائمه. اهتزَّت الأرض التي كان أليك يقف عليها من قوَّة سنابكه. كان الزَّبد يتصبَّب من شِدقيِّ الجواد، ولم تبرح عيناه المجنونتان الأرض من أمامه.

وبالتدريج قلَّ ضربه للأرض بالقوائم، ثُمَّ توقَّف. رفع رأسه عالياً وانطلق صفيره يشقُّ الهواء. وهزَّ رأسه وابتعد في بطء، ومنخراه يرتجفان.

نهض أليك واقفاً على قدميه وفي حذر أخذ طريقه نحو الأرض المحفَّرة، وقد طغى الاضطراب على ذهنه. وهناك أمامه رأى الأجزاء المنثورة من جسمٍ طويلٍ أسودٍ ضاربٍ إلى الصُّفرة، رأس حيَّة أشبه بماسة، مسحوقاً لا حياة فيه. وقف ساكناً وقد أذهله فجأة اكتشاف حياة، غير حياته وحياة الأدهم، على الجزيرة! تصبَّب العرق من جبهته حين أدرك ما الذي كان يمكن أن تعنيه لدغة حيَّة. الألم وربَّما الموت! نظر، وهو دائخ، إلى الجواد الواقف على مدى أقدامٍ قليلةٍ منه. هل قتل الأدهم الحيَّة لكي ينقذه؟ هل بدأ الجواد يفهم أنَّهما يحتاج أحدهما إلى الآخر لكي يعيشا؟

وفي بطء سار الغلام نحو الأدهم. تطاير عرف الجواد في الرِّيح وارتجفت عضلاته وتحرَّكت عيناه دون انقطاع، لكنَّه وقف حيث كان، فيما اقترب الغلام منه. أراد أليك أن يفهم الجواد أنَّه لن يؤذيه. وفي حذر مدَّ يده نحو رأس الجواد. جرَّ الجواد رأسه إلى أبعد ما استطاع دون أن يتحرَّك. اقترب أليك إلى جانبه. وفي رِفق لمسه لمدَّةٍ لحظة. لم يتحرَّك الجواد، حاول أليك مرَّة أُخرى أن يلمس الرأس الوحشيَّ. قبَّ الأدهم على قائمتيه الخلفيَّتين واهتزَّ قليلاً. قال أليك ملاطفاً: (مهلاً أيها الفتى لن أؤذيك). ارتجف الجواد ثُمَّ قبَّ على قائمتيه الخلفيَّتين وانطلق على مسافة مائة ياردة – وقف على حين غِرَّة والتفت.

حدَّق أليك فيه وهو واقف هناك دون حراك، ورأسه مرفوع عالياً في الهواء. وقال في تصميم: (ستخلص من هذا بطريقة ما أيُّها الأدهم، إذا عملنا معاً).

سار أليك عائداً إلى قمَّة الصُّخور وبدأ يهبط. أخذ طريقه نحو حافة الماء وكان ينظر في حذر قبل أن يخطو. فحيث كانت حيَّة واحدة، قد يكون هناك المزيد. حين بلغ القعر، ملأ قميصه مرَّة أخرى بالطُّحلب وأخذ طريقه عائداً. كان يستطيع أن يرى الأدهم، عالياً من فوقه، وهو ينظر خلل القمم، وعرفه يتطاير في الرِّيح. وتبع أليك على مسافة قصيرة خلفه فيما عاد أليك إلى اليُنبوع.

مرَّت الأيام وبالتَّدريج نمت الصَّداقة بين الغلام والأدهم. وأصبح الجواد يأتي الآن حين يناديه ويدع أليك يربِّت عليه بينما يحدِّق هو بعينين متسائلتين. وفي ذات ليلة جلس أليك متمتِّعاً بدفء النَّار وراقب الجواد يقضم الطُّحلب الإيرلندي في جانب البركة. وتساءل في نفسه ما إذا كان الجواد قد سئم الطُّحلب الإيرلندي كما سئمه هو. وجد أليك أنَّه إذا ما غلاه في قشرة السُّلحفاة كون مادة غرويَّة طعمها أطيب بقليل من طعم الطُّحلب. كان أكل السَّمك ترفاً نادراً بالنِّسبة إليه الآن.

انتشرت ظلال اللهب وألقت أشكالاً شبحيَّة مخيفة على جسد الأدهم. التمعت عينا أليك وأصبح وجهه عابساً فيما تدافعت الأفكار إلى رأسه. سيجرِّب ذلك غداً؟ هل يجرؤ على أن يحاول ركوب الأدهم؟ أعليه أن ينتظر بضعة أيَّام أُخرى؟ فليتقدَّم غداً. كلا، لا تفعل ذلك! تقدَّم.

خفتت النَّار ثُمَّ راحت تحترق دون لهب، ومع ذلك جلس أليك بجانبها وعيناه مثبتتان على ذلك الشَّبح الأكثر سواداً من الليل في جانب الينبوع.

في الصَّباح التَّالي أفاق من نوم عميق ليجد الشَّمس عالية فوقه. ثُمَّ بحث بعينيه عن الأدهم، لكنَّه لم يقع له على أثر. صفَّر أليك لكن لم

يأته جواب. سار نحو التَّلِّ. كانت الشَّمس تصبُّ شواظها وتحدر العرق من جسمه. لو أنَّها تمطر لا غير! كان الأسبوع الماضي كتنور على الجزيرة.

حين بلغ قمَّة التَّلِّ، رأى الأدهم في طرف الشَّاطئ. ومرَّة أُخرى، وفي هذه المرَّة جاء صفيرٌ يجيب صفيره فيما التفت الجواد إليه. سار أليك على الشاطئ نحوه، والعزم مُنعقد على وجهه.

وقف الأدهم ساكناً فيما اقترب أليك منه. ذهب في حذر إليه ووضع يده على رقبته. وغمغم فيما كان الجسد الدافئ يختلج اختلاجاً هيناً تحت يده: (على مهلك أيها الفتى). لم يُبدِ الجواد لا خوفاً ولا كرهاً له. كانت عيناه الواسعتان ما تزالان متَّجهتين نحو البحر.

وقف أليك للحظة. ويده على رقبة الأدهم، ثُمَّ سار نحو كثيب من الرَّمل على مسافةٍ قصيرة. تبعه الجواد. خطا صاعداً جانب الكثيب ويده اليسرى غارقة في عرف الحصان الكثيف. انتصبت أذنا الأدهم، وتابعت عيناه الصَّبيَّ في قلق أعصاب، عادت بعض الوحشيَّة إليه، وارتجفت عضلاته.

وللحظة لم يكن أليك مصمِّماً على ما سيفعل. ثُمَّ قبضت يداه على العرف أشدَّ مما كانتا تقبضان ورمى نفسه على ظهر الأدهم. وللحظة وقف الجواد دونما حركة، ثُمَّ شخر وتطاير الرَّمل فيما تثنَّى الجواد في الهواء. أحس أليك بالعضلات الجبَّارة وهي تضطرب وتجيش، ثُمَّ انقذف في الهواء واستقر، وبقوَّة، على ظهره. وأظلم كلُّ شيء.

استعاد أليك الوعي ليجد شيئاً دافئاً إزاء خدِّه. فتح عينيه في بطء. كان الجواد يدفع برأسه. حاول أليك أن يحرِّك ذراعيه ورجليه. فوجدها مرضوضة لكن غير مكسورة، وفي إعياءٍ نهض على قدميه.

اختفت الوحشيَّة من الأدهم مرَّة أخرى. كان ينظر كما لو أنَّ شيئاً لم يحدث.

انتظر أليك دقائق قليلة، ثُمَّ قاد الجواد إلى كثيب الرَّمل مرَّة أخرى، ووضع قبضة يده على عرف الحصان لكنَّه لم يفعل هذه المرَّة أكثر من أنَّه وضع الجزء الأعلى من جسمه على ظهر الجواد، بينما تكلم في أذنه مُلاطفاً. راح الأدهم يرفُّ بأذنه إلى الوراء والأمام، وهو ينظر بعينيه السَّوداوين.

غمغم أليك وهو يربِّت على الجواد ويدعه يشعر بثقله: (انظر، إنَّني لن أؤذيك يا فتى). بعد بضع دقائق، زلق أليك نفسه على ظهر الجواد في حذر، ومرَّة أُخرى شخر الجواد وأرسل الغلام طائراً في الهواء.

رفع نفسه من على الأرض، أبطأ هذه المرَّة. لكنَّه بعد أن استراح، صفَّر للأدهم ثانية، تحرَّك الجواد نحوه. وخطا أليك في عزمٍ وتصميمٍ، على كثيب الرَّمل. ومرَّة أُخرى جعل الأدهم يُحسُّ بثقله، تكلَّم في أذنه الواسعة في لطف ورقَّة: (إنَّه أنا، أيُّها الفتى الأدهم، هوا... أيُّها الفتى). وانسلَّ على ظهر الجواد. انسلَّت إحدى ذراعيه حول رقبة الجواد فيما شبَّ على قائمتيه الخلفيَّتين. ثُمَّ انطلق الجواد هابطاً إلى الشَّاطئ، كطلقةٍ من بندقية، تغيَّرت حركته وبدت خطواته الهائلة وكأنَّها تجعله يطير في الهواء.

تعلق أليك بعرف الجواد حفاظاً لحياته. كانت الرِّيح تعول بجانبه ولم يكن يستطيع أن يرى. وعلى حين غِرَّة انحرف الأدهم في سيره واتَّجه نحو التَّل. بلغ القمَّة، ثُمَّ هبط. وبدا اليُنبوع كلطخة حينما انطلقا بجانبه. ركض إلى الصخور، ثُمَّ رسم الجواد دائرةً واسعةً دون أن

يخفِّف من سرعته. وهبط منطلقاً خلال وَهدَة. واستطاع بصر أليك المشوَّش أن يرى جسماً أسودَ أمامهما، وكومضة برق تذكَّر الأُخدود العميق الذي كان هناك.

أحسَّ بالجواد يجمع نفسه، وبفعل الغريزة مدَّ نفسه إلى الأمام وأمسك بالأدهم في قوَّة بيديه وركبتيه. وإذا هما طائرين على حفرة سوداء. انزلق أليك قليلاً حين أرسيا على الأرض. لكنَّه استعاد نفسه في الوقت المناسب لئلا يسقط من على ظهر الجواد. ومرَّة أُخرى بلغ الجواد السَّاحل ووقعُ حوافره منتظمٌ موقع في انسجام على الرِّمال البيضاء.

ساعدت الطَّفرة كثيراً على تصفية ذهن أليك، اتكأ إلى أذن الجواد واستمرَّ يُردِّدُ (على مهلك، أيُّها الفتى الأدهم، على مهلك). بدا الجواد وكأنَّه ينزلق على الرَّمل ثُمَّ بدأت سرعته تقل. استمرَّ أليك يتحدَّث إليه. وأخذ الأدهم يجري أبطأ فأبطأ. وبالتَّدريج انتهى من ركضه إلى الوقوف. وأرخى الغلام قبضته من عرف الجواد وأحاطت ذراعاه برقبة الأدهم كان ضعيفاً من شدَّة الإجهاد، لم يكن في حالٍ تسمح له بمثل هذا الرُّكوب! وفي إعياءٍ انزلق إلى الأرض. لم يحلم ذاتَ يوم بأنَّ حصاناً يستطيع أن يركض بمثل هذه السُّرعة! نظر الجواد إليه، ورأسه مرتفع، وجسده الضَّخم غير مكسوٍّ إلا بالقليل من العرق.

تلك الليلة اضطجع أليك دون نوم، وجسده يتقطَّع ألماً، لكنَّ قلبه كان خافقاً بانفعال. لقد امتطى صهوةَ الأدهم! لقد ذلَّل هذا الجواد الوحشيّ غير المذلَّل وقهره بالرِّقة، وقد أحسَّ واثقاً بأنَّ الأدهم عاد مُلكاً له منذ ذلك اليوم. له وحده! ولكن، هل تراهما يُنقذان؟ أتراه يرى وطنه وبيته مرَّة أُخرى؟ هزَّ أليك برأسه. لقد عاهد نفسه بألا يُفكِّر في ذلك مرَّة أُخرى.

في اليومِ الثَّاني، امتطى الأدهم ثانيـة، شـبَّ الحـصان شـبَّةً علـى قائمتيه الخلفيَّتين لكنَّه لم يقاومه. تكلَّم أليك، بلطف، في أذنه ووقـف الأدهم ساكناً. ثُمَّ لمسه أليك لمساً خفيفاً على جانبه. بينمـا كـان يـسير في خُطى طويلة متخطِّرة. وذهبا بعيداً على الشَّاطئ، ثُـمَّ حـاول أليـك أن يديره بأن حوّل ثقلـه، ودفـع رأس الجـواد برفـق. اسـتدار الجـواد بالتَّدريج شدد أليك قبضته على عرفه الطَّويل وضغط ركبتيه بأوثق ممَّا كانتا على جسمه الكبير. وانطلق الجواد من مـشيته. في خَبَـبٍ سـريعٍ. نسفت الرِّيح عرفه إلى الوراء في وجه الغلام. كان خطو الجـواد خطـواً لا جهد فيه. وفيما كانا في منتصف طريقهما إلى الشَّاطئ، اسـتطاع أن يُعيد الجواد إلى أن يمشي مشياً، ثُـمَّ إلى الوقـوف وقوفـاً كـاملاً. وفي بطء حوَّله إلى اليمين ثُمَّ إلى اليسار، ثُمَّ أداره في دائرة.

مرَّت ساعات منهكة فيما كان أليك يحاول أن يجعل الأدهم يفهـم ما أراده أن يفعل. كانت الشَّمس تنحدر إلى المغيب بسرعة. بينما سـار بالجواد إلى نهاية الشّاطئ. استدار ووقف ساكناً. كـان هنـاك ميـل مـن الرَّمل الأبيض النَّاعم يمتدُّ أمامهما.

وعلى حين غِرَّة جمـح الجـواد، موشـكاً أن يلقيـه أرضـاً، ثُـمَّ ازداد سرعة على نحوٍ عجيب، انطلق فأسرع. انـبطح أليـك علـى رقبـة الجـواد وهو يتنفَّس تنفُّساً متقطِّعاً. راح الجواد يُرسل الرَّعـد مـن سـنابكه منحـدراً على الشَّاطئ. انحدرت على خدَّي أليك الدموع من الرِّيح. وبعد أن قطـع ثلاثة أرباع الطَّريق حاول أن يكـبح مـن سـرعة الأدهـم. اجتـذب العـرق المُتطاير إليه وصرخ (هوا، يا أدهم) لكنَّ الرِّيح ذهبت بكلماته معها.

قارب الجواد نهاية الشَّاطئ بخفّشة وبسرعة، وظنَّ أليك أنَّ ركوب الأمس المكرب سوف يتكرَّر. اجتذب العرف إليه بأشدَّ وأقوى. وعلـى حين غِرَّة تباطأت خُطى الأدهم. رمى أليك ذراعاً حول رقبـة الجـواد،

تحوَّل الأدهم إلى خَبَبه السَّريع الذي أصبح أبطأ فأبطأ تـدريجيّاً. حتَّـى استطاع أليك أن يُسيطر عليه. أداره وقد غمره الفرح وركبه عـابراً التَّـلَّ إلى اليُنبوع. وشربا معاً الماء البارد المنعش.

في الأيام التي تلت ذلك، صارت سيطرة أليك على الأدهم أعظـمَ فأعظم. وصار يستطيع أن يفعل به ما يشاء تقريباً. كان الغـيظ الوحـشيُّ للجواد غير المذلَّل يختفي حين يرى الغلام أليك يركبه طائفاً الجزيرة، هابطاً به نحو الشَّاطئ. متعجِّباً من الخطوات الجبَّارة والسُّرعة المرعبة. كان أليك دون أن يشعر يحسن الفروسيَّة حتَّى بلغ الدَّرجة الـتي أصبح عندها جزءاً من الأدهم فيما كانا ينهبان الأرض.

جلس أليـك ذات ليلـة إلى جانـب النَّـار في (مخيَّمـه) محـدِّقاً إلى الشُّعل وألسنة النَّار التي كانـت تمسُّ الهـواء في جـوع. كانـت ركبتـاه متقاطعتين واستقرَّ عليها كوعاه. وقد وضع ذقنه في يديه. كان مستغرقاً في التَّفكير. لقد غادرت الـ(دريك) بومبي في يوم سـبت. في الخـامس عشر من آب. وغرقت السَّفينة بعد أقلِّ من أسـبوعين بقليـل، ربَّمـا في الثَّاني من أيلول، لقد مرَّ عليه وهـو علـى الجزيـرة تـسعة عـشرة يومـاً بالضَّبط. إنَّه إذن في الحـادي والعـشرين مـن أيلـول تقريبـاً. لا بُـدَّ أنَّ عائلته تظنُّه قد مات الآن. شدَّ قبضتيه. عليه أن يجد طريقـاً للخـلاص. لا بُدَّ لسفينةٍ من أن تمر بالجزيرة يوماً ما. لقد كان يقف، كلَّ يوم علـى قمَّة التَّلِّ محدِّقاً إلى البحر. يأمل، في جنون، أن يرى سفينة ما.

فكَّر أليك بالطَّقس البارد الذي كان يقترب موعده، للمرَّة الأولى كـان الحرُّ شديداً للغاية على الجزيرة منذ وصوله بحيث أنَّه لم يخطر علـى بالـه أنَّ الجوَّ سرعان ما سيبرد. ترى هل يـوفِّر لـه الملجأ حمايـة كافيـة؟ لقـد استعمل كلَّ قطعة من الخشب وقعت عليها عينه ويـداه في الجزيـرة لكـي يحصِّنه ويعزِّزه، ولكن هل سيكون ذلك كافياً؟ كيف سيكون بردها؟ نظـر أليك إلى السَّماء الصَّافية المُضاءة بالنُّجوم، من فوقه.

نهض على قدميه وسار نحو التَّلِّ. رفع الأدهم – وهو واقفٌ إلى جانب الينبوع – رأسه وصفَّر حين رآه. وتبع أليك في تسلُّقٍ إلى القمَّة. اكتسحت عينا الغلام البحر المعتِم المتلاطم. كانت أمواج يغشاها الرَّغو الأبيض تندفع إلى السَّاحل ثُمَّ تتدحرج إلى الشَّاطئ، وكان الجواد أيضاً يبدو وكأنَّه يرقب. عيناه محدِّقتان في الليل، وأذناه منتصبتان إلى الأمام. مرَّت ساعة، ثُمَّ استدار وأخذا طريقهما عائدين إلى المخيَّم.

بدأت ريح تهبُّ من الغرب. أوقد أليك النَّار لليل ثُمَّ زحف إلى مخبئه متعباً. كان متعباً، فقد أنفق معظم يومه يجمع الطُّحلب، تمدَّد وسرعان ما أغفى.

لم يدرِ كم من الوقت نام، لكنَّ صرخة الأدهم الحادَّة أيقظته على حين غرَّة. فتح عينيه مُغالباً النُّعاس. كان الهواء قد صار حارَّاً، ثُمَّ سمع صوتاً مقرقعاً من أعلى، فرفع رأسه إلى الأعلى، كان سقف الملجأ يشتعل بالنَّار، وكانت ألسنة النَّار تزحف هابطة إلى الجوانب. قفز أليك على قدميه واندفع خارجاً. كان إعصارٌ يكتسح الجزيرة، وأدرك في الحال ما حدث. لقد حملت الرِّيح شرارات من ناره إلى سقف الملجأ فأشعلت النَّار في الخشب اليابس، بسهولة. تناول قوقعة السُّلحفاة وركض إلى الينبوع. ثُمَّ عاد راكضاً، وقد ملأها، ورمى الماء على اللهيب.

كان الأدهم يقفز، بعصبية، إلى جانب اليُنبوع ومنخراه يرتجفان، بينما كان أليك يندفع غادياً رائحاً بقوقعة السُّلحفاة مليئة بالماء. محاولاً أن يمنع الحريق عن الانتشار، لكنَّ النَّار كانت قد بدأت منذ مدَّة وسرعان ما أحاطت بالكوخ كلِّه. ملأ الدُّخان الهواء، فأرغم الولد وحصانه على أن يتقهقرا أبعد فأبعد.

سرعان ما أُصيبت الشَّجرتان القريبتان بالنَّار. لقد أدرك أليك أنَّ الحريق لا يستطيع أن ينتشر إلى ما هو أبعد كثيراً، فلقد كانت الجزيرة

خاوية من أيِّ وقود، لكنَّ ألسنة النَّار أصبحت الآن تفترس كل ما تقع عليه العين. كانت تُزمجر وترتفع عالياً في الهواء. لم يكن ثمَّة ما يستطيع أليك أن يفعله. الشَّيء الوحيد الذي كان يحتاجه حقاً – كوخه – قد ذهب. ولم يبقَ لديه شيءٌ من الحطب.

اشتعل الحريق زمناً طويلاً قبل أن يبدأ بالخمود. ثُمَّ بدأت الرِّيح أيضاً تضمحل.

جلس أليك بجانب الينبوع يراقب ألسنة النَّار، حتَّى ظهرت الخيوط الأولى من الفجر في السَّماء. رمش بعينيه المملوئتين بالدُّخان، وجرش أسنانه، لم يجرَّد من كلِّ شيء بعد. سيجد طريقةً ما لكي يصنع كوخاً، وإذا لم يكن ذلك ممكناً، فإنَّه حينذاك سينام في الصَّحراء مثل الأدهم.

قصد الشَّاطئ مملوء النَّفس بالعزم والتَّصميم. فلعلَّ الأمواج تجرف شيئاً من الخشب خلال الليل.

كان الأدهم يخبُّ أمامه، ثم رآه يشخر ويقبُّ على قائمتيه الخلفيَّتين عندما بلغ قمَّة التَّلِّ، ثُمَّ اندفع هابطاً مرَّة أُخرى. أسرع أليك، ومن كتف التَّلِّ نظر إلى الأسفل، فرأى سفينة قد ألقت مراسيها على بُعد أربعمائة ياردة من الجزيرة.

سمع أصواتاً، ورأى زورقَ تجديفٍ يسحبه خمسة رجال إلى الشَّاطئ، واندفع وهو غير مصدق، وهو غير قادر على أن يهتف، هابطاً التَّلَّ.

وسمع أحد الرِّجال يهتف للآخر: «لقد كنت على صواب يا بات، فإنَّ هناك أحداً ما على هذه الجزيرة».

وأجاب الآخر بلهجة إيرلنديَّة غليظة: «بالتأكيد. وأعرف أنَّني رأيت ناراً تبلغ عنان السَّماء!».

* * *

(5)

الإنقاذ

غشيت عينا أليك، فلم يستطع أن يرى، تعثَّر وهوى ثمَّ نهض على قدميه. ومرَّةً أُخرى اندفع إلى الأمام، ثُمَّ أحاطوه بأذرعتهم، زَمجر الرَّجل المسمَّى بات: «القدِّيس باتريك، إنَّه مجرَّد غلام».

اختلطت الكلمات والتصقت في حلق أليك فيما نظر إلى الأزواج الخمسة من العيون المحدقة فيه. ثُمَّ عاد له صوته فصرخ: «لقد أنقذنا، يا أدهم، لقد أنقذنا!».

نظر البحَّارة إليه، كان منظراً غريباً، شعره الأحمر طويلٌ أشعث، وجهه وجسمه داكنان، حتَّى أنَّهم كادوا يحسبونه أحد الأهالي، لولا البقايا الممزَّقة من ملابسه التي كانت تتعلَّق مُرخاة طليقة عليه.

تقدَّم أحد الرِّجال، كان واضحاً من بزته أنَّه قبطان السَّفينة، وقال وهو يلفُّ ذراعه حول أليك ويهدِّئه: «كلُّ شيء سيكون على ما يرام يا بنيَّ».

وفي بطء استعاد أليك السَّيطرة على نفسه. قال: «إنَّني في حالة جيِّدة الآن، يا سيِّدي» تحلَّق البحَّارة حوله. سأل القُبطان: «هل هنالك شخصٌ آخر معك على الجزيرة؟».

- «الأدهم وحسب يا سيدي».

نظر الرِّجال بعضهم إلى بعض، ثُمَّ تكلَّم القبطان ثانية. سأل: «من هو الأدهم يا بني؟».

أجاب أليك: «إنَّه حصانٌ يا سيدي».

ثم روى لهم قصَّته. روى عن العاصفة وغَرَق السَّفينة، والسَّاعات التي قضاها في البحر الصَّاخب وهو ممسك - في يأس - بالحبل المشدود إلى رقبة الجواد. وعن كفاحهما معاً تجاه الجوع على الجزيرة، وتذليله للأدهم، وعن الحريق الذي أحال - تلك الليلة - ملجأه إلى كومة من الرَّماد. تفصَّد العرق من جبهته فيما عاش مرَّة ثانية. في الصُّور اللَّفظيَّة الحيَّة. أيَّام المشقَّة والعناء العشرين منذ أن غرقت الـ(دريك).

حين انتهى. كانت لحظةٌ من الصَّمت، ثُمَّ تكلَّم أحد الرِّجال: «هذا الصَّبيُّ يتوهَّم أشياء، أيُّها القبطان. إنَّ ما يحتاج إليه هو طعام حارٌّ وفراش مريح!»

نظر أليك من وجهٍ إلى آخر ورأى أنَّهم لم يصدِّقوه. ملأه الغيظ. لمَ كانوا في مثل هذا الغباء؟ أكانت قصَّته خياليَّة إلى هذه الدَّرجة؟ سيثبتها لهم وسيدعو الأدهم. رفع أصابعه إلى فمه وصفَّر وصرخ: (أصغوا! أصغوا!) وقف الرِّجال ساكنين، مرَّت دقيقة، ثُمَّ أُخرى، لم يكن ليسمع إلا الأمواج وهي تصطفق على الشَّاطئ في صمت الجزيرة المروِّع.

ثُمَّ جاء صوت القبطان إليه: «علينا أن نذهب الآن يا بني، إنَّنا قد خرجنا عن طريقنا وتخلَّفنا عن جدول المواعيد».

اتَّجهت عينا أليك — وهو دائخ — من الجزيرة إلى السَّفينة الملقيَّة مرساها، والدُّخان يندفع من مدخنتها، كانت أكبر من الـ (دريك).

مرَّة أُخرى اقتحم صوت القبطان أفكاره: «نحن ذاهبون إلى أمريكا الجنوبيَّة، (ريودي جانيرو) محلُّ وقوفنا الأول. نستطيع أن نأخذك إلى هناك ونبرق لأبويك من السَّفينة أنَّك حيٌّ».

حمله القبطان وبات من الذِّراعين، وكان الآخرون في الزَّورق مستعدِّين للانطلاق. حاول أليك، في يأس، أن يجمع أفكاره. لقد كان يغادر الجزيرة. ولسوف يترك الأدهم وراءه. الأدهم الذي أنقذ حياته! انفلت منهم وراح يركض إلى الشَّاطئ.

راقبه البحَّارة. وأفواههم فاغرة في دهشة، وهو يتعثَّر صاعداً التَّلَّ، رأوه يبلغ القمَّة ويرفع أصابعه إلى فمه. وصل صفيره إليهم، ثمَّ كان صمْت.

على حين غِرَّة، مزَّق السُّكونَ صراخٌ غير بشريٍّ، نداء وحشيٌّ مرعب! وقفوا ساكنين، وهم مخدَّرون، وخيَّل إليهم أنَّ الشَّعرات على مؤخِّر رقابهم قد تجعَّدت والتوت. ثُمَّ كما لو بسحرٍ ظهر إلى جانب الغلام حصان أسود عملاق، يتماوج عرفه كشعلة، صهل الحصان مرَّة ثانية، ورأسه مرتفع عالياً، وأذناه منتصبتان إلى أمام، واستطاعوا – حتَّى على هذا البعد – أن يروا أنَّه كان حصاناً جسيماً هائلاً، جواداً وحشيَّاً.

رمى أليك ذراعيه حول رقبة الأدهم ودفن رأسه في عرفه الطَّويل وقال: «نحن مغادران معاً، يا أدهم!، معاً» في لطف تكلَّم إلى الجواد مهدئاً. بعد بضع دقائق نزل التَّلَّ وتبعه الحصان في تردُّد. قبَّ الجواد على قائمتيه الخلفيَّتين حين شارفوا البحَّارة، وقائمتاه تخبطان في الهواء، تدافع الرِّجال إلى الزَّورق، بات والقبطان وحدهما وقفا حيث كانا، وفي خوف راقبا الأدهم فيما كان يخطو نحوهما، تراجع إلى الوراء. ونظرت عيناه الوحشيتان في قلقٍ عصبيٍّ، من أليك إلى مجموعة الرِّجال. ربَّت عليه أليك ولاطفه، كان سيره بديعاً وكان كلّ بضع خطوات، يقفز بخفَّة إلى جهة.

على بعد ثلاثين ياردة تقريباً، وقف أليك. صرخ: «عليك أن تأخذنا معك، أيُّها القبطان! لا أستطيع أن أتركه». جاء الجواب: «إنَّه وحشيٌّ للغاية، لا نستطيع أن نأخذه ولا نستطيع أن نسوسه». «أنا أستطيع أن أسوسه. انظر إليه الآن». كان الأدهم ساكناً وقد استدار رأسه نحو السَّفينة كما لو أنَّه فهم ما الذي يحدث فعلاً. كانت ذراع أليك حول رقبته فقال: «لقد أنقذ حياتي يا كابتن، ولا أستطيع أن أتركه».

استدار القبطان وتحدَّث مع الرِّجال الذين في الزَّورق، ثُمَّ هتف: «لا طريقة لدينا لنقل هذا الشَّيطان إلى ظهر السَّفينة، على أيَّة حال». وتوقَّف، ثُمَّ قال: «كيف سنخرجه من هناك؟» وأشار القبطان إلى السفينة.

أجاب أليك: «إنَّه يستطيع أن يسبح».

ثُمَّ كان نقاش آخر بين القبطان والبحَّارة. وحين التفت الكابتن إلى أليك، كان وجهه المجعَّد أكثر عبوساً مما كان. رفع قبَّعته وأمرَّ يداً ضخمة خلال شعره المشتعل شيباً.

ثُمَّ قال: «حسناً يا بني، لقد ربحت، ولكن عليك أنت أن تَخرجه هناك».

خفق قلب أليك بشدَّة وهو ينظر إلى الجواد. وقال: «تعال أيُّها الأدهم» سار إلى الأمام بضع خطوات. تردَّد الأدهم ثُمَّ تبعه. مرَّة أُخرى تحرَّك أليك قُدُماً. وفي بطء بلغا الجماعة. ثُمَّ توقَّف الأدهم وارتجف منخراه وقبَّ على قائمتيه الخلفيَّتين.

هتف أليك: «انزل في الزَّورق يا كابتن، تحرَّك إلى المقدِّمة. سأُمسك بمؤخره حين تنزلونه في الماء».

أمر القبطان رجاله أن يدفعوا، وصعد هو وبات إلى الزَّورق. ثُمَّ انتظروا أليك.

التفت أليك إلى الأدهم وقال: «هذه فرصتنا يا أدهم. لا تخذلني!». لقد أدرك أنَّ الجواد كان عصبيّاً. فالحصان تعلَّم أن يثق به. لكنَّ غرائزه الطَّبيعيَّة ما زالت تحذر منه ومن الآخرين، وفي لطف تكلَّم أليك إليه. وفي بطء تراجع إلى الوراء. رفع الأدهم رأسه في عصبيَّة، ثُمَّ تبعه، ولمَّا قارب الغلام الزَّورق، توقَّف الجواد. ظلَّ أليك يرجع إلى الوراء حتَّى تسلَّق إلى الزَّورق. قال: «جذِّفوا في بطء» دون أن يدير عينيه عن الحصان.

فيما تحرَّكا مبتعدين عن الشَّاطئ، كان أليك ينادي: «تعال أيَّها الفتى الأدهم». حمحم الجواد ورأسه وذيله منتصبان، وأذناه مندفعتان قبَّ على قائمتيه الخلفيَّتين نصف قبَّة، ثُمَّ خطا إلى الماء. وفي لمح البرق كان قد عاد إلى الشَّاطئ. كانت قدمه الأماميَّة تضرب الرَّمل وترسله متطايراً. لم تبارح عيناه السَّوداوان الزَّورق أبداً، فيما كان يتحرك في بطء نازلاً إلى الماء، ركض مسافةً قصيرةً هابطاً الشَّاطئ. ثُمَّ عاد من حيث أتى.

أدرك أليك القتال الرَّهيب الذي كان الجواد يخوضه مع نفسه. صفَّر، فتوقَّف الأدهم حيث كان وأجاب. وفي بطء تحرَّك الزَّورق مبتعداً في الماء أكثر ممَّا كان.

على حين غِرَّة شبَّ الجواد عالياً في الجو، على قائمتيه الخلفيَّتين، ثُمَّ وثب إلى الماء، هتف أليك «تعال يا أدهم، تعال!».

كان الأدهم في الماء حتَّى لبانه الضَّخم الآن، ثُمَّ أخذ يسبح ويتقدَّم بخفَّة نحو الزَّورق.

صاح أليك: «جذِّفوا إلى السَّفينة، يا كابتن».

ارتفع الرَّأس الأسود في الماء من خلفه، والعينان تتبعان أليك، بصورةٍ مرعبة، فيما تدلَّى إلى نصفه خارج الزَّورق وهو ينادي الجواد. كان الجسم الضَّخم الأسود ينزلق خلال الماء وأرجله تعمل كأنَّها الأساطين الكابسة.

سرعان ما بلغوا السَّفينة، صعد القبطان وثلاثة رجال السُّلَّم إلى السَّفينة. بات وحده تخلَّف مع أليك. صاح القبطان من على كتفه: «أبقه هناك مدَّة دقيقتين!».

وصل الأدهم إلى زورق التَّجديف واستطاع أليك أن يوصل يده إلى رأس الجواد، غمغم في اعتزاز: «أيها الطَّيِّب!». ثُمَّ سمع تحيَّة القبطان من على سطح السَّفينة. تطلَّع إلى الأعلى فرأى الرَّافعة التي تُستعمل لرفع الحمولة تنزل. كان في نهايتها رباط جرسيُّ الشَّكل، رُبط حول الأدهم ليمكن رفعه، عليه أن يجعل ذلك الرِّباط حول معدة الجواد!

رأى أليك عينيَّ الجواد تتركانه وتحدِّقان في خوفْ في الحبل الهابط على رأسه. على حين غِرَّة سبح مبتعداً عن الزَّورق. وفي جنون، ناداه أليك.

حين أصبح الرِّباط في متناول اليد، أمسك بات به. قبضت أصابعه على الشَّرائط والبكل. صاح أليك: «علينا أن نضع هذا حوله بطريقةٍ ما، إنَّها الطَّريقة الوحيدة!».

حاول أليك، في يأس، أن يفكِّر. لا بُدَّ أن تكون هناك طريقة ما، ولا ريب أنَّ الجواد كان قد استدار مرَّة أُخرى. ناظراً في اتجاههما. لو أنَّه استطاع فقط أن يقترب منه. قال: «ناولني الرِّباط يا بات، ومزيداً من الحبل». ناوله بات إياه، وأشار بيده إلى الأعلى. سأل: «وما أنت فاعل؟».

لكنَّ أليك لم يبد وكأنَّه قد سمع سؤاله. قبض على شرائط الرِّباط بقوَّة. قال لنفسه: «لقد وصلنا إلى هذا الحد». تسلَّق على جانب الزَّورق ودلَّى نفسه إلى الماء. سبح أليك ياردات قليلة نحو الأدهم، والرِّباط ممدود من ورائه. ثُمَّ توقَّف وراح يخطو في الماء. نادى بلطف فسبح الجواد نحوه.

أصبح الجواد على مرمى ذراع فلمسه أليك، مبعداً جسمه بصورة كافية لأن يتحاشى قوائم الجواد المتحركة. كيف يستطيع أن يجعل الرباط حول الجواد؟ كان بات يصرخ بالاقتراحات، غير أنَّ أليك لم يستطع أن يفكِّر إلا بطريقةٍ واحدةٍ قد تنجح.

غطس في الماء قليلاً ويده تنزلق بالتَّدريج على رقبة الجواد منحدرة، وأمسك بشرائط الرِّباط باليد الأخرى بالقوة. أخذ نفساً عميقاً وملأ رئتيه بالهواء. ثُمَّ غاص في الماء متحركاً إلى جانب، وأحسَّ بالماء يُطبق على رأسه. هبط أعمق فأعمق، مكافحاً جهد إمكانه أن يهبط إلى عمق يكفي لأن يصبح في منجى من قوائم الجواد. ثُمَّ سبح مباشرة تحت بطن الأدهم. كان الماء يمخض أبيض من فوق رأسه، واستطاع أن يلمح السَّنابك الضَّاربة في الماء.

حين أحسَّ، واثقاً، أنَّه كان في الجانب الآخر. بدأ يصعد إلى الأعلى وأصابعه ما تزال تطبق بشدِّة على الشَّرائط والرِّباط المنسحبة من ورائه.

حين بلغ سطح الماء، وجد الجواد في نفس الوضع وعيناه تبحثان عنه، والآن، كان الرِّباط تحت الأدهم مباشرة. وأشار إلى بات أن يقلِّل الفجوة بين الزَّورق والحصان. كلُّ ما كان. عليه أن يعمله الآن، هو أن يشدَّ من الرِّباط حول الجواد بأن يدخل هذه

الشِّرائط البكل التي على الجانب الآخر! اقترب أليك من الأدهم، سيكون عليه أن يتحمَّل مصادفة أن يرفسه الحصان. بقي قريباً من وسط الجواد غاية ما أمكنه أن يقترب، ثُمَّ أصبح بجانبه. أحسَّ بالمياه تردم على كلا الجانبين. كان الحبل متوتِّراً الآن، نازلاً في الهواء إلى قمَّة الرَّافعة على الباخرة.

أصبح الأدهم قلقاً، مدَّ أليك يده إلى ظهره وحاول يائساً أن يسحب الشَّرائط خلال البكل. سرى ألم ممزِّق في رجله فيما ضربته إحدى سنابك الأدهم. أصبحت رجله عرجاء. مرَّت الدَّقائق فيما راحت أصابعه تعمل في جنون. ثُمَّ أدخل الشَّرائط في البكل وبدأ يشدُّ الرِّباط شدّاً أقوى. التهب الجواد غيظاً لمَّا أحسَّ به يشدُّ عليه. جذب أليك جذباً أقوى. ومرَّةً أُخرى أحسَّ بإحدى سنابك الجواد تضرب رجله، لكن لم يكن هناك من أمل. أدخل الشَّرائط في البكل إلى أبعد ما تدخل، تأكَّد من أنَّها كانت مشدودة بصورة محكمة، ثُمَّ دفع نفسه، في إعياء، مبتعداً عن الأدهم.

حين أصبح أليك على بُعد مأمون، أشار إلى الرِّجال الذين على السَّفينة أن يرفعوا. سمع محرِّكاً يبدأ بالعمل، وأصبحت السِّلسلة الحديديَّة أكثر توتُّراً. ثُمَّ سحب الجواد خلال الماء حتَّى أصبح بجانب السَّفينة. كانت أسنانه مشرعة وعيناه مليئتين بالحقد! ثُمَّ بدأت الرَّافعة ترفعه إلى الأعلى. وفي بطء تحرَّك الأدهم خارج الماء إلى الأعلى وإلى الأعلى في الهواء ارتفع، وقوائمه تخبط في جنون!

سبح أليك نحو زورق التَّجديف؟ وقدمه تتعلَّق عرجاء من ورائه. وحين بلغه، مال بات على جانب الزَّورق وساعده في الصُّعود إليه. قال: «ولد طيِّب».

جعل الألمُ الذي في رجل أليك رأسَه يدور، بدا أنَّ الظَّلام أخذ يطبق عليه، هزَّ رأسه ثُمَّ أحسَّ بذراع بات الضَّخمة حول خصره وغاب عن الوعي.

حين استعاد أليك وعيه، وجد نفسه في الفراش، وإلى جانبه بات، وعلى وجهه تكشيرة عريضة وعيناه الزرقاوان متجعِّدتان في زواياهما.

غمغم قائلاً: «يا الله!، ظننتك ستنام إلى الأبد».

سأله أليك: «وما الوقت يا بات؟ هل نمتُ لمدَّة طويلة؟» أمرَّ بات يداً ضخمة مليئة بالعقد على شعره وقال: «مدَّة غير طويلة يا بنيَّ، كنت متعباً للغاية، كما تعلم» وتوقَّف ثُمَّ قال: «دعني أرى، لقد التقطناك صباح الثُّلاثاء، ونحن في ليلة الأربعاء الآن».

قال أليك: «يا الله!، إنَّه نوم لا يُستهان به!».

- «أيقظناك مرَّتين لنعطيك بعض الشُّوربة، ولكن أظنُّك لا تتذكر الآن».

تحرَّك أليك قليلاً وأحسَّ بألم يتخلَّل رجله. اتجهت عيناه إلى بات وسأل« هل أوذيت كثيراً؟».

- «الطْبيب يقول أن لا، وصل الأذى إلى العظم لكنَّه أخذ في البرء بصورة جيِّدة. ستكون الحال حسنة في أيَّام قليلة».

- «الأدهم، ما الذي حدث؟».

- « أيُّها الصَّبيّ، لم أتوقَّع في حياتي أن أرى مثيلاً له» التمعت عينا بات الزرقاوان ثُمَّ قال: «أيُّ قتال خاض!، يحطِّم الزَّورق فلقتين! يا إلهي!، أيَّ شيطان كان! في اللحظة التي لمست فيها سنابكه سطح السَّفينة أراد أن يُقاتل. لو لم يكن الرِّباط لا يزال

حوله، لكان قد قتلنا جميعاً! لقد جمح وضرب برجله إلى الأمام ممَّا لم أرَ مثيلاً له من قبل. رفض أن يقف ساكناً. كنتَ تستطيع أن تساعدنا يا بنيَّ. رفعناه في الهواء مرَّة ثانية، حتَّى فارقت قوائمه الأرض. ظننت أنَّه قد جُنَّ، وغدا وجهه شيئاً رهيب المنظر، وتلك الصَّرخات، سأسمعها إلى يوم أموت!».

توقَّف بات، وتحرَّك، غير مرتاح في مقعده. ثُمَّ واصل الكلام: «حدث حين اقترب إليه أحد الرِّفاق أكثر مما ينبغي وضربه ذلك الشَّيطان الأسود في جنبه فسقط عند أقدامنا، إننا قرَّرنا أنَّه لم يكن ثمَّة من شيء نفعله غير أن نخنقه. لففنا حبالنا حول رقبته وجذبنا حتى كاد أن يهلك، كان ذلك صعباً عليه، لكن لم يكن هناك سبيل غير ذلك السبيل. حين أوشك أن يفقد الوعي أنزلناه مرَّة ثانية ودبَّرنا أمر تخفيضه». «كانت مهمَّة، أيها الفتى، آمل أن لا أتولاها مرَّة أُخرى، لدينا بعض الخيول الأخرى والماشية في العنبر، وهي خائفة كلُّها منه حتَّى الموت. إنَّها دارٌ للمجانين الآن، وإنِّي لأكره أن أفكِّر فيما عسى أن يحدث حين يعود الجواد إلى وعيه مرَّة ثانية. لقد وضعناه في أقوى حظيرة ولكنَّني أتساءل عمَّا إذا كانت تلك الحظيرة كفيلة بأن تُبقيه في مكانه!». نهض بات من كرسيه وسار إلى الجانب الآخر من القمرة.

كان أليك صامتاً، ثُمَّ تكلَّم في بطء: «إنَّني آسف على أنَّني سبَّبت لكم جميعاً مثل هذا الإزعاج. لو أنَّني كنت قادراً وحسب على أن...».

قاطعه بات قائلاً: «لم أهدف إلى جعلك تشعر كذلك أيُّها الفتى، كنَّا عالِمِين ماذا نفعل، ومن منظر ذلك الجواد، يبدو أنَّه يستحقُّ ذلك، سوى أنَّنا ندرك جميعاً الآن أنَّه يحتاجك أنت للسَّيطرة عليه، وكان الله في عون كلِّ من يحاول ذلك سواك!».

- «أخبر القبطان أنّني سأروِّضه وإيَّاكم، أيضاً يا بات، بطريقة ما».

- «لا شك، لا شك، أيُّها الفتى الصَّغير، والآن لديَّ ما أعمله. حاول أن تحصل على مزيد من النَّوم، وغداً أو في اليوم الذي يليه ستنهض على قدميك ثانية» وتوقَّف وهو في طريقه إلى الباب وقال: «إذا أعطيتني عنوانك، فإنَّنا نستطيع أن نبرق إلى والديك بأنَّك سليم مُعافى. ونخبرهما إلى أين نحن ذاهبون».

ابتسم أليك وكتب عنوانه على قطعة الورق التي ناوله بات إياها. وقال فيما انتهى من الكتابة: «أخبرهما أنَّني سأكون معهما في الحال».

* * *

(6)

ملكُ القطيع

بعد أيَّامٍ قليلةٍ نهض أليك من فراشه للمرَّة الأولى. كانت ساقه المصابة تسنده في ضعف، وفيما كان يرتدي ملابسه، سمع طرقة على الباب.

هتف: «ادخل».

ودخل بات، كانت في يده برقيَّة. كشَّر قائلاً: «إنَّها من أهلك». أخذها أليك وقرأ: «حمداً لله على سلامتك. حوَّلنا نقوداً إلى (ريو دي جانيرو). أسرع للبيت. مع حبنا. أمُّك وأبوك».

صمت للحظة ثُمَّ رفع عينيه إلى بات وقال: «لن يكون بعيداً الآن».

ابتسم بات وسأل: «كيف حال قدمك؟».

أجاب أليك وهو يكمل ارتداء ملابسه: «لا بأس بها. كيف حال الأدهم؟».

فأجاب بات: «أخشى أنَّه أحسن. إنَّه لأمرٌ حسن أنَّك قادر على أن تنزل إليه اليوم!».

تناول أليك بنطالاً كبيراً أعطاه إيَّاه أحد البحَّارة. سأله بات: «كبير عليك نوعاً ما. أليس كذلك؟».

«خيرٌ من السَّير دون لباس» قال أليك مبتسماً. انتهى من ارتداء ملابسه وسار يعرج في بطء، إلى الباب. ابتسم وقال: «عليَّ أن أذهب إلى الأدهم قبل أن يحطِّم المكان». طوى البرقيَّة ووضعها في جيبه بعناية وقال: «شكراً يا بات». حذَّره بات قائلاً: «لا تبق على قدميك أطول ممَّا ينبغي يا بني تذكَّر ما قال الطَّبيب».

حين دخل أليك العنبر، سمع ضرب حوافر الأدهم يعلو على ضوضاء الخيول الأخرى والماشية. جاء إلى حظيرة الجواد ورأى رأسه الأسود مرتفعاً فوق الباب. كانت عيناه الواسعتان تدوران في قلقٍ من حوله. ناداه أليك فانحرف رأس الجواد نحوه. ارتجف منخراه وصهل. مدَّ أليك يده وقال: «هالو، يا فتى. هل افتقدتني؟» هزّ الجواد رأسه ورمى أنفه نحوه. مرَّ أليك بيده على المنخر النَّاعم.

أخذ من جيبه تفاحة كان قد ادَّخرها من فطوره. مدَّ بها يده إلى الأدهم الذي اختطفها منها. التقط أليك المحسة والفرشاة من الأرض، وفتح الباب وولج إلى الدَّاخل وقال: «أظنُّ أنَّ الأمر كان عسيراً عليك نوعاً ما أيُّها الفتى، لكن لم يكن لهم من خيار». قضى السَّاعة التَّالية يفرِّش الأدهم، حتَّى أصبح جسمه يلمع في إشراق.

مرَّت الأيَّام بسرعة بالنِّسبة لأليك. فيما كان يقضي معظم وقته في العنبر مع الأدهم شُفيت رجله وسرعان ما أصبح على أحسن ما يكون. حاول القبطان وبات في أوَّل الأمر أن يُثيرا اهتمامه بالسَّفينة والرحلة، لكنَّهما تخلَّيا عن ذلك أخيراً. كانت الصداقة بين الغلام والجواد شيئاً أصعب من أن يَفهماه.

ارتفعت يد القبطان إلى ذقنه فيما كان هو وبات يراقبان أليك داخل الحظيرة. قال: «أنت تعرف يا بات. إنَّه شيء عجيب سلوك

هذين الاثنين معاً. حيوان وحشيٌّ قاتلٌ، كهذا، لكنَّه لطيف كقطيطة حين يكون مع الغلام».

أومأ بات برأسه وقال: «نعم يا سيدي، إنَّه لمن أغرب الأشياء التي رأيتها في عمري، وإنِّي لأتساءل إلى أين سيؤدِّي ذلك بهما؟»

بعد خمسة أيَّام وصلوا إلى (ريو دي جانيرو). أوفد القبطان بات لكي يذهب مع أليك إلى دائرة اللاسلكي حيث يستطيع أن يحصل على النُّقود التي أرسلتها عائلته إليه، وأن يدبِّر أمر إبحاره إلى الولايات المتَّحدة.

فيما كان أليك يمشي مع بات لمح المدينة الأميركيَّة الجنوبيَّة. فكَّر كم كان يقترب من بيتهم، كان في المرحلة الأخيرة من سفرته! بلغا الدَّائرة ودخلا.

تحدَّث بات إلى الرَّجل الجالس على المنصَّة باللغة الإسبانيَّة. بعد بضع دقائق سلَّمه الرَّجل قلماً، ووقَّع أليك باسمه. ثُمَّ سلَّم إليه بعض المال.

ثُمَّ ذهبا إلى دائرة البطاقات. وهناك وجدا أنَّ الباخرة التَّالية إلى الولايات المتَّحدة ستُبحر في اليوم التَّالي. كان لدى أليك من المال ما لا يزيد على أن يكفيه هو والأدهم وسجِّل سفره. تطلَّع إلى بات وقال: «ذلك لن يبقي معي شيئاً للقبطان ولكم أنتم».

أجاب بات: «لا تقلق بشأن ذلك، يا أليك».

حين عاد إلى السَّفينة أخذ طريقه إلى مكتب القبطان. وجده وراء منضدته الضَّخمة يشتغل في بعض الأوراق أمامه. رفع القبطان بصره، وأشار إلى الغلام أن يجلس واستمرَّ هو يكتب، وأخيراً توقَّف واتّكأ

على كرسيِّه. قال: «حسنا يا بني. أتينا إلى مفترق الطَّريقين، أليس كذلك» فأجاب أليك: «نعم يا سيِّدي، لقد أخذنا، بات وأنا، النُّقود وكلَّ شيء كما يرام». ودسَّ يده في جيبه وأخرج «الفكة» من النُّقود وقال: «لكن هذا هو كل ما بقي، كما ترى يا سيدي. حسناً، إنَّ أمِّي وأبي لم يعرفا بشأن الأدهم، وإنَّ ما أرسلاه كان كافياً لإرسالنا كلينا إلى نيويورك».

قاطعه القبطان قائلاً: «والآن أنت تفكِّر بكم أنت مَدين لنا، أليس كذلك؟» فأجاب أليك: «نعم يا سيِّدي، فلولاكم من المحتمل أن نبقى حتَّى الآن على الجزيرة».

نهض القبطان من الكرسيِّ وسار إلى جانب أليك. وضع ذراعاً على كتفه وقال: «لا تقلق بشأننا يا بني، فنحن لا نتوقَّع منك شيئاً، وأنت وذلك الحصان هيأتما لنا من الإثارة ما هو أكثر ممَّا لقيناه هنا منذ سنين». وابتسم، ثُمَّ سار نحو الباب، وأكمل القبطان قائلاً «عليك أن تقطع بقيَّة الطَّريق إلى البيت في أمان. ذلك كل ما تشتهيه».

فقال أليك وهو يخرج إلى سطح المركب: «شكراً يا كابتن» فردَّ الكابتن قائلاً: «لا تدع أحداً يسرق ذلك الشَّيطان المارد منك!».

«لن أدع أحداً يفعل ذلك يا سيِّدي، وشكراً مرَّة أُخرى».

بعد ظُهر اليوم التَّالي أنزل الأدهم على لوح العبور. كان قد أمسك بلجام الجواد بيد ثابتة، وظلَّ يتكلَّم معه مُلاطفاً. كانت السَّفينة التي ستقلُّهما إلى الوطن قد وصلت خلال الليل وكانت الآن تحمَّل بحمولتها. وتجمَّع بات وبعض البحَّارة حوله حين وصل إلى الرَّصيف.

ودَّعوه واحداً بعد الآخر، حتَّى لم يبق سوى بات، فقال: «وداعاً يا أليك، اعتنِ بنفسك جيداً».

أجاب أليك: «هو كذلك. وتذكَّر يا بات، لقد وعدتَ بأن تزورنا كلَّما جئت إلى نيويورك».

قال بات: «بالتَّأكيد، ربَّما زرتكم يوماً ما، حين أتعب من البحر وأملُّه». وتوقَّف ثُمَّ قال: «ما الذي ستفعل بالأدهم حين تصل به إلى البيت؟».

أجاب أليك: «لا أدري يا بات، لم أفكِّر في الأمر كثيراً، إنَّني آمل وحسب في أن يسمح لي بابا وماما بأن أحتفظ به».

كان بات ينظر إلى الجواد: «إنَّ تركيب جسمه معدٌّ للسُّرعة. أراهن أنَّه يستطيع أن ينهب طريقاً».

سأل أليك: «تعني سباقاً؟»

قال بات: «ربَّما سنواتٌ ثمانٍ، وقبل أن أذهب إلى البحر، درَّبت بعض الخيول الجيِّدة في أيرلندا. إنَّني لم أرَ منها ما يبدو أكثر استعداداً للجري من هذا الجواد!»

قال أليك: «بوسعك أن تُراهن بآخر بنس لديك على ذلك».

وومضت في ذهنه الذِّكريات عن ركوبه مرَّةً بعد مرَّة، ركوباً يبهر الأنفاس على ظهر الجواد في الجزيرة. ثُمَّ قال: «حسناً يا بات، عليَّ أن أذهب الآن، لقد أوشكوا أن ينتهوا من التَّحميل. إلى اللقاء». ومدَّ يده وقبض الآخر عليها مجيباً: «وداعاً يا أليك وحظّاً سعيداً».

قال أليك: «وداعاً يا بات».

قاد أليك الأدهم إلى الطَّرف الآخر من الرَّصيف. كان عدد من الخيول مجتمعاً في زاوية وهي تنتظر دورها لكي تشحن في السَّفينة. كان حمَّالو الرَّصيف وعمَّاله يندفعون، في جيئة وذهاب. وروائح

الماشية والفاكهة تمتزج معاً وتملأ الهواء. شبَّ الأدهم على قائمتيه الخلفيَّتين، وحمحمت الخيول الأخرى مرعوبة حين أبصرته. أخذ أليك الجواد إلى زاوية بعيدة. كانت أذناه منتصبتين إلى الأمام، وعيناه تحدِّقان، في سيطرة، في الخيول الأخرى.

قال أليك: «تذكِّرك بالأيام القديمة، أليس كذلك يا فتى؟».

ابتسم وتساءل في نفسه عمَّا عسى أن تقوله أمُّه وأبوه حين يريان الأدهم.

كان فرحاً الآن بأنَّهما قد تحوَّلا من المدينة في العام الماضي إلى (فلاشنغ)، إحدى ضواحي نيويورك. كان واثقاً من أنَّه سيستطيع أن يجد مكاناً قرب منزله ليبقي الأدهم فيه. شريطة أن تدعه أمُّه وأبوه يفعل ذلك.

على حين غِرَّة حمحم عالياً وأحسَّ به أليك يرتجف. وملأت الجوَّ حمحمة جوابية. راحت الخيول الأخرى بدفع بعضها بعضاً في اضطراب، رأى أليك جواداً كستنائيَّ اللَّون يُقاد نحو الرَّصيف. كان كبيراً ضخماً، يكاد يساوي الأدهم في ضخامته.

توقَّف الرِّجال الذين يقودونه في الطَّرف الأقصى من الرَّصيف. وشكر أليك الحظَّ على أنَّ هذا الحصان لن يُشحن معاً في الزَّورق نفسه مع الأدهم.

جذب الجواد الأدهم حبله في قلق، ورأسه مرتفع في الهواء، وعيناه لا تبارحان الجواد الكستنائيَّ.

كان للرَّجل الذي يقوده مشاكله أيضاً. ارتفع الجواد الكستنائيُّ في الهواء. حمحم الأدهم وجذب حبله بأشدَّ وأقوى. وبدأت الخيول

الأخرى تصهل عالياً. حاول أليك أن يهدِّئ الأدهم لكنَّه استطاع أن يرى أنَّ شيئاً وحشيّاً غريزيّاً كان يصعد في نفسه. وتذكَّر القصص التي كان عمُّه قد رواها له عن قطعان الخيول الوحشيَّة، كيف أنَّ جواداً واحداً كان هو الملك.

قال: «هو، أيها الفتى الأدهم». كان الجواد ينخر وإحدى قوائمه تضرب في الخشب وأذناه مبسوطتان على جانب رأسه. ارتفع صفير الجواد الكستنائيٍّ عالياً واضحاً. وارتفعت صرخات ونداءات من البحَّارة. ثُمَّ رأى الرَّجل الذي كان يُمسك بالجواد الكستنائيِّ يسقط على الأرض. وصار الجواد مطلق السَّراح!

شبَّ الأدهم على قائمتيه الخلفيَّتين، وكان صهيله وحمحمته مرعبَين. عرف أليك الآن أنَّه لا يستطيع أن يمسكه. لقد أفلت الحبل من يديه. اندفع الكستنائيُّ والأدهم أحدهما نحو الآخر وحوافرهما المرعدة تهزُّ ألواح الخشب من تحتها. ضاقت المنافسة بين الجوادين في سرعة، ثُمَّ اصطدما.

ارتفعا عالياً في الهواء، على قوائمهما الخلفيَّة، وأرجلهما الأماميَّة تخبط وتضرب أحدهما الأخرى في جنون، أخذ الأدهم بممسك الكستنائيِّ وتعلَّق، حيث كان، في وحشيَّة. وفي غيظ. راحا يتضاربان ويترافسان وعرفاهما يتموَّجان في الهواء. أفلت الكستنائيُّ من قبَّة الأدهم، وللحظة تهيَّأ للكفاح. ثُمَّ هاجم أحدهما الآخر كرَّة أخرى.

لم يطق أليك أن ينظر، ولم يستطع أن يصرف بصره. كانت أصوات السَّنابك وهي تضرب الأجسام وصيحات الرُّعب من الخيول الأخرى تمتزج مع حمحمات الجوادين الوحشيَّين اللَّذَين كانا يتصارعان في سبيل السِّيادة.

صرخ الأدهم بأعلى ممَّا سبق لأليك أن سمعه من قبل، كانت قوَّته وتدريبه يغلبان الكستنائيَّ في بطء. اكتسحت حوافره الضَّارية قوائم الجواد الكستنائيِّ من تحته، فسقط على الرَّصيف. وارتفع الأدهم عالياً في الهواء، ثُمَّ هبطت سنابكه على جسد الجواد الكستنائيِّ. أغمض أليك عينيه. وبعد لحظة، وصل إلى أذنيه صهيل الأدهم.

رأى الأدهمَ واقفاً فوق الكستنائيِّ، وعيناه توقدان وجسده ملوَّث بالدَّم والرَّغو الأبيض. ما الذي سيفعل بعد ذلك؟

استدار رأس الأدهم صوب مجموعة الخيول المُتكأكئة في الزَّاوية. وفي جلال خطا نحوها. صهلت الخيول في عصبيَّة، لكن أحداً منها لم يتحرَّك وفي بطء سار من حولها. وعيناه تجرحان الهواء في انتصار.

تبعه أليك. سمع أصواتاً تزعق به: «ابتعد، أيُّها الفتى، ابتعد حتَّى يهدأ». لكنَّه ظلَّ يمشي. والتفت الأدهم فرآه. وقف الجواد ساكناً. واقترب أليك منه. كان الجسد الأسود الضَّخم ممزَّقاً يتصبَّب دماً، لكنَّ رأسه كان عالياً، وعرفه يتسرَّح مع الرِّيح. راقب أليك عينيه. لقد عرف الكثير من عينيِّ الجواد. رأى قليلاً من الوحشيَّة يتركهما. توقَّف منخراه عن الارتجاف، وتحدَّث أليك إليه في رقَّة.

مرَّت دقيقة ثُمَّ أُخرى. التقط الحبل ما زال مشدوداً بلجام الأدهم، سحب الارتخاء ثُمَّ جذب في لطف. استدار رأس الجواد الأدهم نحوه. تردَّد لحظة ثُمَّ استدار نحو الخيول الأخرى. انتظر أليك صابراً بينما كان الجواد يتفحَّص القطيع. ثُمَّ نظر أليك مرَّة أُخرى. بدا لأليك كما لو أنَّه كان يحاول أن يقرَّ على رأي بينهما، أخذ بضع خطوات أخرى نحو الخيول، ثُمَّ استدار وسار في هدوء نحو الغلام.

وارتفعت بين البحَّارة صيحات الدَّهشة والعجب. حاول أليك أن يقود الجواد نحو عارضة العبور. وقف الأدهم وأدار رأسه مرَّةً أُخرى نحو الخيول. ظلَّ يحدِّق فيها مدَّة دقيقة، وصفَّرت صفَّارة الباخرة. فجذب أليك الجواد بأشدَّ قليلاً من ذي قبل. قال: «تعال أيُّها الفتى الأدهم». مرَّت دقيقة أخرى، ثُمَّ التفت الجواد مرَّةً ثانية.

تعثَّر البحَّارة وسقطوا وهم يتقدَّمون، وحين بلغوا عارضة العبور. نظر أليك وراء كتفه فرأى حشداً يتجمَّع حول الجواد الكستنائيِّ الذي كان يرتفع على قدميه في بطء. كان الرَّجل يمرُّ بيديه على قوائم الجواد. ثُمَّ سار به. بدا الكستنائيُّ وكأنَّه على غاية ما يرام. كان أليك فرحاً، فرغم أنَّ الكستنائي هو الذي بدأ القتال، فلو أنَّ الأدهم كان قد آذاه إيذاءً خطيراً لكان معنى ذلك التَّخلُّف والانتظار.

صعد العارضة إلى السَّفينة. ونادى أليك بحَّاراً أشجع من باقي زملائه: «اتبعني أيُّها الولد، من هذا الطَّريق» وقاده إلى حظيرة على شكل صندوق، ثُمَّ ابتعد مسافة يكون منها في مأمن.

قاد أليك الأدهم إلى لوحة العبور، ونزع اللِّجام، ثُمَّ مهَّد فراش الجواد، ملأ سطلاً بالماء، وجلب إليه البحَّارُ قارورة من المرهم، كان فتيًّا لا يكبر أليك إلا قليلاً، وكان وجهه مليئاً بالدَّهشة والعجب. قال: «لم أرَ في حياتي شيئاً كهذا». أجاب أليك: «ولا أنا رأيت». تحسَّس قوائم الأدهم وجانبيه وقال: «سيكون فضلاً منك إن استطعت أن تأتيني ببعض الخرق النَّظيفة، عليّ أن أعنى بهذه الجراح والكدمات».

أجاب الفتى البحَّار: «بالتَّأكيد. سنبحر خلال دقائق قليلة، لكنَّني سأعود بها بأسرع ما أستطيع».

* * *

(7)

إلى البيت

سمع أليك الباخرة تصفِّر ثلاث صفرات قصيرة. جاء آخر حصان إلى العنبر وهو منكمش في عصبيَّة حين مرَّ بحظيرة الأدهم، مدَّ الجواد رأسه الضَّخم من على الباب، وأذناه منتصبتان إلى الأمام وعيناه تتجوَّلان من حظيرة إلى حظيرة.

اضطرب الزَّورق حين بدأت المحرِّكات دورانها، وانحنى أليك ليبلِّل الخرقة التي في يده. فكَّر أن: «لن يطول الوقت الآن». وفي عناية نظَّف جرحاً عميقاً في جانب الأدهم حيث ضربه الجواد الكستنائيّ. أحسَّ الجواد يرتجف حين دخل الماء إلى الجرح. كان الجواد ضخماً قويّاً. أتراه سيكون أصعب مراساً من أن يقدر عليه؟ وماذا ستقول أمُّه وأبوه حين يريانه؟ لقد فكَّر في مكان يحفظه فيه. على بعد عمارتين من بيتهم في «فلوشنغ» كانت مزرعة قديمة مخربة. كان البيت الكبير ذو اللون البنيِّ يُستعمل الآن لإيواء السُّياح. ولكن... كان في مؤخِّرته عنبر قديم، في أمسِّ الحاجة إلى تعمير، ومساحة فَدَّان من الأرض. مكان مثاليٌّ لإيواء الأدهم.

لو أنَّ والديه يسمحان له بأن يحتفظ بالجواد. فسيُصلح العنبر بنفسه، ويجد لنفسه عملاً بعد انتهاء وقت المدرسة ليستطيع دفع نفقات طعامه.

فرك أليك الجرح بالمرهم في رفق، أدار الأدهم رأسه، فقال أليك: «كان يوماً عصيباً للغاية. أليس كذلك أيُّها الفتى؟» هزَّ الجواد رأسه، وحكَّ أنفه في صدر الغلام، دافعاً إيَّاه إلى الحائط. ضحك أليك والتقط السَّطل والخرق.

أغلق الحظيرة وراءه. وارتجف منخرا الجواد وتبعت عيناه أليك وهو يتراجع في بطء إلى الوراء. قال أليك: «خذ الأمر في يُسر الآن أيُّها الفتى الأدهم. عليّ أن أرى كيف هو حال فراشي!».

حمحم الأدهم حين بدأ أليك يرتقي الدَّرج. ارتفع صوت اصطدامٍ عالٍ، فيما خرقت حوافر الجواد جانب الإسطبل. عاد أليك مسرعاً. قال: «هو... أيُّها الفتى. هو...» مدَّ الأدهم أنفه نحوه، فوضع يده على الجلد الرَّقيق.

جاء السُّواس من الحظائر الأخرى راكضين نحوهما. سأل أحدهم: «أكلُّ شيء على ما يرام؟».

فأجاب أليك: «نعم، إنَّه متهيِّجٌ قليلاً.. وحسب».

قالوا: «إنَّه مخلوقٌ وضيع عليك أن تراقبه».

فقال أليك: «إنَّه لا يُحب أن يُترك وحيداً. ولهذا فسأظلُّ على مقرُبة منه.. كما أظن».

عاد السُّواس إلى أعمالهم. ونظر أليك إلى الجواد وقال: «أيُّها الأدهم! أنت كثير المشاكل». وسار إلى جانب الحظيرة ودفع اللوحة المكسورة مُعيداً إيَّاها إلى موضعها، وتلفَّت حواليه في العنبر فلحظ أنَّ السُّواس قد فتحوا الأسرَّة السَّفريَّة. وكانوا يضعونها إلى جانب الحظيرة. عثر أليك على واحد منها وفعل نفس ما فعلوا. قال: «يبدو كما لو أنَّني سأرقد هنا أردت ذلك أم لم أرده».

بدأ أليك يتقلَّب على سريره تلك الليلة. بينما الباخرة تشقُّ طريقها خلال البحار الدَّاجية الثَّقيلة. كانت كلُّ موجة تبدو كما لو أنَّ القدر أراد لها أن تدحرجه من فراشه. كان الأمر صعباً على الخيول أيضاً. وأحال ضربها الحوافر العنبر إلى دارٍ للمجانين. كان في وسع أليك أن يسمع الأدهم وهو يضرب الأرض في حظيرته.

كان الجوُّ ما يزال عكراً في الصَّباح التَّالي، واستمرَّ كذلك طوال النهار.

بدأت الخيول تمرض وظلَّ السُّواس في شغل دائم. مساعد القبطان الأول وحده، الذي قام بدور الطَّبيب على السَّفينة، هو الذي نزل إليه وحاول أن يجعله يعود إلى قمرته، لكنَّه - وهو المريض - أدرك أنَّه لن يستطيع أن يترك الأدهم.

بعد أصبحة ثلاثة، قام أليك على قدميه في وهن وسار حتَّى أتى الجواد كانت السَّفينة قد كفَّت عن التَّأرجح. قال: «هالو أيُّها الفتى. أرى أنك نحيف كما كنت على الدوام». انتصبت أذنا الجواد إلى الأمام وهزَّ رأسه.

أقبل سائس وسأل: «كيف تشعر أيُّها الولد؟».

أجاب أليك: «ضعيف قليلاً. لكني، فيما عدا ذلك، على أحسن ما يُرام».

وتوقَّف ثُمَّ سأل: «كم سيطول بنا الوقت قبل أن نصل نيويورك؟».

أجاب السَّائس: «حوالي يومين آخرين، ما لم نُصادف جوّاً سيئاً مرَّةً أُخرى، لكن... أظنُّ أنَّنا قد نلنا نصيبنا من ذلك».

قال أليك وهو يعني ما يقول: «أرجو ذلك».

بعد يومين صفَّرت السَّفينة لدائرة الحجر الصِّحي، حيث كانت ستفتَّش قبل مرورها إلى ميناء نيويورك. دخل مفتشو الحجر الصِّحي إلى العنبر وذهبوا من حظيرة إلى حظيرة يفحصون الخيول. لاحظ أليك أن كلَّ سائس يبرز أوراقاً ويريها للضَّابط المسؤول. ماذا سيفعل حين يأتون إليه؟ لعلَّ الأفضل أن يذهب إليهم ويوضِّح لهم أنَّه لا يملك أيَّة أوراق. سار أليك نحو الضَّابط. وفجأة أوقفته حمحمة الأدهم في طريقه. التفت ورأى أنَّ واحداً من المفتِّشين قد عبر العنبر وصار يفتح باب الجواد. هتف أليك «حذرك!»، لكنَّ صيحته كانت بعد فوات الأوان... كان الجواد قد شبَّ على قائمتيه الخلفيَّتين وراح يضرب الرَّجل بقائمتيه الأماميتين. فأرسله طائراً حتَّى صدم الباب.

اندفع أليك إلى الحظيرة ورمى نفسه بين الجواد وبين المفتِّش. لم تفارق عينا الأدهم المذعورتان الرَّجل المطروح على الأرض. وقف المفتِّش، وهو يغمغم في غضب، على قدميه. فأحسَّ أليك بعبءٍ يُزاح عنه. إن كان غاضباً فلا يمكن أن يكون قد أصيب بأذى كبير. كان بنطاله ممزَّقاً حيث ضربه الأدهم. لكن لم تكن ثمَّة دلائل أخرى على الأذى.

جاء المفتِّشون الآخرون راكضين، وسأل الضَّابط المسؤول: «ماذا يجري هنا؟».

قال الرَّجل: «هذا الحصان هاجمني يا سيِّدي، إنَّه حيوان خطر». اقترب الضَّابط من الباب وسأل أليك الذي كان يُمسك بزمام الأدهم بقوَّة «ما عندك لتقوله بشأنه؟».

نظر أليك إلى الرَّجل الطَّويل ذي الملامح الحادَّة، وتساءل في نفسه عمَّا إذا كان يستطيع أن يمنع الأدهم من دخول البلاد. شعر بالسَّقم بعد هذه المخاطرة.

إنَّهم لن يستطيعوا أن يفعلوا ذلك. قابل عيني الضَّابط بعينيه وقال: «أنا متأسِّف يا سيِّدي لما حدث وإنِّي لأعرف أنَّه ما كان ليفعل ما فعل لو لم يدخل مفتِّشك إلى الإسطبل بتلك الطَّريقة. أنت ترى أنَّه غير معتاد على النَّاس يا سيِّدي. لم يسبق لأحد أن اقترب منه عداي أنا».

تنقَّلت عينا الضابط على الجواد. ثُمَّ سار نحو الباب وذهب إلى الدَّاخل. شدَّد أليك قبضته على اللِّجام، وقال: «لا بأس أيُّها الأدهم. هو... يا فتى». تحرَّك الجواد في قلق.

سار الضَّابط في بطء من حوله وسأل: «إنَّه جواد حقّاً. أهو لك؟».

أجاب أليك: «نعم يا سيدي».

- «أجميع أوراقك كاملة؟».

- «ليست لديَّ أيَّة أوراق يا سيِّدي ولكن الرُّبان أخبرني أنَّ كلَّ شيء سيكون على ما يرام. لقد غرقت سفينتنا و...». قال الضَّابط مقاطعاً: «أوه، أنت الشَّخص إذن. لقد تلقيَّنا أوامر بشأنك. إنَّك ستدخل البلد». وابتسم ثُمَّ قال: «لقد وجدت في سفرتك ما يكفيك من مشاقٍّ ولا حاجة إلى جعلها أشقّ ممَّا هي».

التفت إلى المفتش الذي شمَّر بنطاله عن ساقيه وراح يغسل جرحاً عميقاً فسأله: «كيف حال رجلك يا ساندي؟» أجاب: «حسنة كما أظنُّ يا سيِّدي، لكن ذلك الحصان أوحش جواد وقعت عليه عيناي هنا خلال أربعة عشر عاماً». فابتسم الضَّابط وقال: «أظنُّه أحسن ما رأيت أيضاً». ثُمَّ التفت إلى أليك وقال: «لا بدَّ أنَّ لديك قصَّة رائعة يا ولدي، غرق السَّفينة ونجاتك أنت وحيوان كهذا».

أجاب أليك: «وهو كذلك يا سيِّدي. لقد كنَّا كلانا على ظهر الـ(دريك) حين غرقت، ونحن، كما استنتجت مما سمعت،

النَّاجيان الوحيدان» وتوقَّف ثُمَّ تابع كلامه: «إنَّها قصَّة طويلة للغاية يا سيِّدي». والتفت إلى الجواد وقال: «ما رأيك فيها، أيُّها الرجل؟» فنخر الأدهم.

بعد أن ثبتت سلامة السَّفينة صحيّاً، غادرت منطقة الحجر الصِّحي وسارت خلال المضايق نحو الميناء. حدَّق أليك في لهفة خلال الكوَّة التي في جانب الأدهم. تصلَّب حُلقومه حين ارتفع خطُّ السَّماء من البحر. ها هو ذا يعود إلى الوطن! وبأيَّة طريقة مختلفة عن هذه غادر البيت منذ خمسة أشهر! لقد بدت أشبه ما تكون بخمسة أعوام!.

أحسَّ أليك بأنفاس الأدهم الثَّقيلة على ذراعه. التفت وأمر يده على المنخرين الرَّقيقين قال: «حسناً، أيُّها الأدهم، لقد عُدنا إلى الوطن!».

استطاع أن يرى السَّاحبتين الصَّغيرتين تدفعان الشَّاحنة الكبيرة دون جهد. كانت الأبنية تشمخ أعلى فأعلى نحو السَّماء. ومرَّت بهم سفينة أكبر، تقصد المحيط. وزحفت ناقلات نفط وزوارق حمل مسطحة بعربات قطار. وفي المدى، رأى أليك تمثال الحريَّة. امتلأت عيناه بالدمُّوع. ما خطبه؟ كان أكبر من أن يصبح عاطفيّاً. لكنَّ حنجرته تصلَّبت وراح يبتلع ريقه بصعوبة حينما اقتربوا من رمز الحريَّة والوطن!

شقَّت عبَّارة كهربائيَّة، طريقها خلال الماء إلى جانب السَّفينة وسطوحها مزدحمة بالنَّاس. كانت الشَّمس تغرق وراء الأبينة على شاطئ جرسي. راح الأدهم يشمُّ يد أليك فالتفت هذا وابتسم ثُمَّ قال: «دقائق قليلة وحسب، أيُّها الأدهم» مدَّ يده إلى جيبه وأخرج قطعتين من السُّكر وورقة برقيَّة. أخذ الجواد السُّكر من يده. فتح أليك قطعة الورق الصَّفراء وقرأها مرَّة أُخرى: «سنكون على رصيف الميناء. نكاد لا نستطيع صبراً مع الحُبِّ. ماما وبابا».

كانت الباخرة الآن مقابل (بروكلين) حيث سترسو. دار زورقا السّحب بالسَّفينة، ثُمَّ توجها نحو الشاطئ. كان العنبر مليئاً بالضَّوضاء وتهيَّأ البحارة لإفراغ حمولة السَّفينة. وأصبح الأدهم قلقاً.

ثُمَّ انزلقت إلى جانب رصيف الميناء. سمع أليك صوت احتكاك السَّفينة برصيف الميناء وصلصلت سلسلة المرساة وهي تنحدر إلى القعر. بعد دقائق قليلة فُتحت أبواب العنبر.

بدأ البحَّارة يُنزلون الخيول إلى البرِّ، وبسبب سمعة الأدهم، تركوه ينتظر حتَّى أُنزلت جميع الخيول الأُخرى. ثُمَّ أشار أحد البحَّارة إليه فقال: «حسناً» وابتسم أليك فيما رآه يتحرَّك بسرعة متنحِّياً عن الطَّريق.

قاد الأدهمَ خارج حظيرته، ويده مشدودة على اللِّجام.

ارتفع رأس الجواد عالياً، كان يعرف أنَّ شيئاً غير عاديٍّ سيحدث. وفي خفّة خطر نحو الباب. كان رصيف الميناء مزدحماً بالنَّاس. وقد هبط الغسق وأضيئت الأنوار نحو الأدهم، إذ لم تسبق له رؤية شيء كهذا. شبَّ على قائمتيه الخلفيَّتين، لكنَّ أليك أنزله من شبوبه. كانت ليلة باردة من ليالي الخريف. والنَّسيم يهبُّ خلال الباب المشرع. يسوط عرف الجواد. تحرَّكت عيناه الواسعتان في عصبيَّة، فيما أطلق صفيراً حادَّاً قصيراً. هزَّ رأسه وحمحم بصوتٍ أعلى.

هبط على رصيف الميناء سكون مفاجئ، واتَّجهت العيون كلُّها نحو الأدهم عندما وقف بالباب. وفي بطء قاده أليك نحو لوحة العبور. أحسَّ بجسده الأسود يضطرب فيما أصبحت ضوضاء المدينة أعلى فأعلى. بعد أن هدأ رصيف الميناء.

وفي منتصف طريق الهبوط ارتفع الأدهم عالياً في الفضاء. فأنزله أليك. وهرع ثلاثة من البحَّارة يرتقون لوحة العبور لمساعدته. رآهم

الأدهم فارتفع ثانية. وقائمتاه الأماميَّتان تخبطان الهواء. فوقف الرِّجال. وتصبَّب العرق من جسد الجواد.

عرف أليك أنَّه أخذ يفقد السَّيطرة عليه. وشدَّد قبضته على اللِّجام بكلتا يديه. أقبلت سيَّارة نقلٍ على رصيف الميناء. وضوءاها الأماميَّان الباهران يقتربان منهم. حمحم الأدهم وانتصب مرَّة أُخرى. ورفع أليك من الأرض وهو ما يزال قابضاً على اللِّجام. طوح به الجواد إلى جانب فأفلتت قبضته اللِّجام وسقط إلى لوحة العبور. وعالياً فوق جسمه رأى السُّنبكتين الخابطتين. ومزَّقت السُّكون صرخات من المشاهدين.

هبط الأدهم، فاستقرَّت قائمتاه الأماميَّتان على جانب رأس أليك! نخر واستدار مختفياً في العنبر. ظلَّ أليك منطرحاً ساكناً، وقد داخ للحظة. ثُمَّ أحسَّ بيدين تساعدانه على الوقوف على قدميه.

سأله أحد الرِّجال: «أأنت بخير؟».

أجاب أليك: «إنِّني بخير. لقد أصبت بضَعضَعة بسيطة».

- «لا بدَّ أنَّك تريد ذلك! إنَّه حيوان وحشي»!

أقبل شرطي يركض وبندقيَّة في يده. زحف الخوف على الأدهم إلى قلب أليك. نظر إلى الضَّابط وقال: «لا تطلق النَّار عليه!».

أجاب الشُّرطي: «لن أفعل ذلك ما لم يعرِّض حياةً أخرى للخطر».

عادت قوَّة أليك في بطء إليه. قال: «سآخذه».

فقال الضَّابط: «سآتي معك». وتراجع الرِّجال الآخرون من لوحة العبور.

قال أليك: «ربَّما استطعت أن أفعل ذلك بصورة أحسن وأنا وحدي يا سيِّدي».

- «ربَّما .... لكنِّي سأرافقك خوفاً من ....».

دخل أليك العنبر قبل الشُّرطي. رأى الحصان واقفاً إلى جانب حظيرته. اتَّجهت عيناه المذعورتان إلى الصَّبي.

قال أليك: «ما الأمر يا فتى؟ أنيويورك أكثر ممَّا تطيق؟» وفي حذر تحرَّك إلى أمام ووضع يده على رقبة الجواد.

تحرَّك الأدهم بعصبيَّة فقال أليك: «طبعاً هي جديدة عليك، ولكنَّها في الحقِّ لا باس بها بعد أن تتعوَّد عليها».

حكَّ الجواد أنفه في صدر أليك، فوضع أليك يده في جيبه وأخرج بعض السُّكر وأعطاه إياه. انتظر حتَّى فارقت النَّظرة الوحشيَّة عينيِّ الأدهم.

ثُمَّ قبض على اللِّجام وقاد الأدهم نحو الباب. فتنحَّى الشُّرطي إلى جانب. شبَّ الجواد على قائمتيه الخلفيَّتين مرَّةً أُخرى حين رأى الأضواء والحشد من النَّاس، من جديد. أداره أليك على عجل وعاد به إلى الحظيرة.

تكلَّم الضَّابط قائلاً: «اخلع سترتك أيُّها الولد، وأعصب بها عينيه». قال أليك: «فكرة طيِّبة». وبسرعة خلع السُّترة. وقاد الجواد إلى غرفة خشبيَّة وصعد عليها ليبلغ عينيه. طوى السُّترة ووضعها عليهما، ثُمَّ شدَّه من الخلف. حرَّك الجواد رأسه وحاول أن يطوح بالسُّترة. وشبَّ على قائمتيه الخلفيَّتين نصف شبَّة، ولكنَّ يد أليك وصوته المطَمّنين هدأا منه.

ومرَّة أُخرى قاده نحو الباب. حين ظهرا في إطار الباب، هتف الجمهور. وبعناية قاد أليك الجواد ونزل به على خشبة العبور. رأى أذني الجواد تنتصبان إلى أمام ثُمَّ تلتصقان على جانبي رأسه. وثُقل تنفسه. وهزَّ

رأسه وشبَّ مرَّة أُخرى على قائمتيه الخلفيَّتين نصف شبَّة، فوضع أليك كلتا يديه على اللِّجام، لكنَّه وقد تذكَّر كيف طوَّح به الجواد إلى الجو من قبل، سحب يده اليسرى ووضعها على الحبل المتَّصل باللِّجام. نظر إلى تحت. ولاح له أن آلافاً من الأوجه المرفوعة صوبه تراقبهما.

في منتصف طريق الهبوط، شبَّ الأدهم مرَّة أخرى على قائمتيه الخلفيَّتين.

ومرَّةً أُخرى أحسَّ أليك بنفسه وقد بدأ يترك لوحة العبور.

أفلت اللِّجام وترك الحبل ينزلق خلال يديه.

ارتفع الجواد عالياً ثُمَّ هبط. تحاشى أليك السُّنبكتين الأماميَّتين. وقبض – وهو مصفرُّ الوجه- على الحبل مرَّة أخرى، ثُمَّ قاد الأدهم هابطاً به لوحة العبور. وبعد مسافةٍ قصيرة، أصبحا على رصيف الميناء. تنحَّى الجمهور بسرعة ليكون بعيداً عن طريق الجواد.

كان منظر الأدهم جميلاً. فهو يتحرَّك بخفَّة على قوائمه. يهزُّ برأسه مُحاولاً أن يخلِّص نفسه من العُصابة. كان عرفه يتموَّج في الرِّيح. وسترة أليك البيضاء على عينيه تتناقض تناقضاً صارخاً. وجسده الأسود الفاحم. فكَّر أليك: «لقد أخذ يتعوَّد على الضَّوضاء»، لكنَّه لم يُرخِ قبضته الممسكة بلجام الجواد.

على حين غرَّة سمع صوت أبيه: «أليك، أليك، ها نحن هنا» فالتفت ورأى أمَّه وأباه واقفَين على حافَّة الجمهور، كان أبوه طويلاً نحيفاً كما كان دائماً، بينما كانت أمُّه قصيرةً ممتلئة الجسم كما كانت أبداً. وجهاهما في مثل بياض السُّترة حول عينيِّ الأدهم. تحرَّك أليك نحوهما، ثُمَّ تذكَّر الجواد. رأى أمَّه تقبض على ذراع أبيه. ووقف على مسافةٍ قصيرةٍ منهما.

كان كلَّ ما قاله: «هالو، ماما وباب» رغم أنَّ قلبه كان يستطيع أن يرى أمَّه تبكي وجرى أليك إليهما، وهو قابضٌ على طرف الحبل ليظلَّ ممسكاً بالأدهم، ورمى ذراعيه حولهما معاً.

قال أبوه بعد دقائقَ قليلة: «إنَّه لَشيء جميل أن نراك يا أليك». فأجاب أليك: «إنَّه لَشيء جميل أن أعود إلى الوطن». فابتسمت أمُّه.

تحرَّك الأدهم، في قلق، إلى جانبه. نظر أليك إليه، ثُمَّ إلى أبويه. قال باعتزاز: «إنَّه لي».

قال أبوه: «لقد كنت أخشى ذلك». أمَّا أمُّه فقد انعقد لسانها دهشة.

رأى عيني أبيه تتفحَّصان الجواد. لقد ركب كثيراً من الجياد في زمنه ومنه تعلَّم أليك، وهو طفلٌ صغير إنَّه يحبُّ الخيل. لم يقل شيئاً. لكن أليك لم يغب عنه أنَّه يتأمَّل الأدهم ويقيمه. وعندها قال أليك: «سأروي لكما القصَّة كاملة، إنَّني مدين بحياتي له».

وحين استعادت أمُّه السَّيطرة على نفسها، قالت: «لكنَّه خطر للغاية يا بني، لقد رماك أرضاً» غير أنَّها توقَّفت حائرة حين قابلت النَّظرة الهادئة الواثقة في عينيِّ الفتى الممسك بالحصان. أهذا حقَّاً ابنها، الفتى الذي غادرها قبل خمسة أشهر وحسب؟! سأله أبوه قائلاً: «ما الذي ستفعل به، وقد حصلت عليه؟».

أجاب أليك: «لا أدري يا أبي، لكنَّني أعرف أين سأضعه!» هكذا انصبَّت الكلمات من فمه.

كان يعلم أنَّ عليه أن يُقنع والديه الآن، في هذه اللحظة، بصورةٍ نهائيَّة، بأنَّ الأدهم يجب أن يكون له ليحتفظ به. قال: «هناك ذلك

الجرن القديم في موضع (هاليران) القديم في الشَّارع الذي يعيش فيه (آل ديلي) الآن. أنا واثق من أنَّهم سيدعونني أبقيه هناك لقاء لا شيء تقريباً، وسيكون له فدَّان كاملٌ من الأرض يرتع فيه! سأعمل، يا أبي بعد المدرسة، لأحصل على نقود أُنفقها على إطعامه. دعني أحتفظ به، أليس كذلك؟

قال أبوه بهدوء: «سنرى يا بني». وابتسم لأمِّ أليك مطمئِّناً، ثُمَّ واصل الكلام قائلاً: «سنأخذه إلى البيت ونرى ما تكون النتيجة. تذكَّر وحسب يا أليك، إنَّك أنت المسؤول عنه، من واجبك أن تعتني به وأن تطعمه. على عاتقك مهمَّةٌ كبيرة. سأدبِّر أمر وصوله إلى (فلوشنغ)، وبعد ذلك سيوكَّل أمره إليك!».

شقَّ شابٌّ طريقه، حول الأدهم واتَّجه الأدهم. كان يحمل آلة تصوير في إحدى يديه وبالأخرى رفع قبَّعته كاشفاً عن شعر مثل سواد جسم الجواد. قال لأليك: «اسمح لي. أنا جو من صحيفة الديلي تلغراف. أودُّ أن ألتقط بضع صور وأسجِّلُ قصَّتك. لقد علمت أنَّك النَّاجي الوحيد من ركاب الـ (دريك) التي غرقت قرب ساحل البرتغال».

أشار أليك إلى الأدهم وقال: «لقد كان هو هناك أيضاً». غمغم روسو: «صحيح هذه قصَّة بحق. تعني أنَّ ذلك الحصان كان في السَّفينة، أيضاً؟» أجاب أليك: «نعم. لقد كان بالتَّأكيد» سأل جو، وهو مهتمٌّ بالموضوع اهتماماً صادقاً: «ما الذي حدث حين غرقت السَّفينة؟» وكتب في سرعة، بقلمه.

أجاب أليك: «إنَّ ذلك أطول من أن أخبرك به الآن، وبالإضافة فهناك الكثير ممَّا يجب أن أعلمه.....».

واستدار إلى الأدهم الذي كانت عيناه تتحرَّكان بعصبيَّة من جانب إلى جانب.

قال الصَّحفي الشَّاب جو بكلِّ إصرار: «دعني أساعدك عليه. ستحتاج إلى سيَّارة نقل لتصل به إلى البيت، وأعتقد أنَّني أعرف أين أعثر على سيَّارة نقل. وبعد ذلك، تستطيع أن تعطيني القصَّة كاملة!».

قال أليك: وهو ممتنٌّ لأيّضة مساعدة يلقاها في مشكلته المباشرة: «إيصال الأدهم إلى البيت.. حسناً».

* * *

(8)

نابليون

بعد ساعة، قاد أليك الأدهم إلى سيَّارة شحنٍ صغيرةٍ مغطَّاة، كان جو روسو قد وفّرها لتحمله إلى البيت. كانت أمُّه قد ذهبت قبله، تسوق سيَّارة العائلة. وقد قالت: «لن تجعلني أركب مع ذلك الحصان»! وجلس أبوه في المقدمة مع جو روسو والسَّائق. ووقف أليك – وهو يخشى أن يترك الأدهم وحيداً – في المؤخِّرة معه.

نخر الجواد حين بدأت السيارة تتحرَّك في الشَّارع، وعيناه ما تزالان معصوبتين بالسُّترة.

كانت سيَّارة الأجرة تئزُّ مارَّةً بهم، وأبواقها تنفخ بصوت عالٍ. وكانت سيَّارات الشَّحن تُطقطق سائرة نحو السَّفينة لتنقل حمولتها، كان الرِّجال يصرخون في الشَّوارع. والباعة المتجوِّلون يصيحون بأسعارهم. ضوضاء، ضوضاء، ضوضاء. هكذا كان دخول الأدهم إلى نيويورك.

كانت يد أليك مشدودة بقوَّة على اللِّجام، ومن النَّافذة الصَّغيرة وراء ظهر السَّائق كان يرى البنايات بأضوائها المُتألِّقة. تراءت نيويورك غريبة عليه هو أيضاً، فقد نسيها. تحرَّك الجواد في عدم ارتياح، وانتفض رأسه في محاولةٍ للتَّخلُّص من السُّترة. قال أليك: «هوا.... يا ولد» ربَّت على ظهر الجواد الأسود النَّاعم. وانحدروا في شوارع المدينة.

ظلَّ والد أليك ينظر حوله، كما لو لم يكن قادراً على انتزاع عينيه من أليك والجواد، وقد ارتفع رأسه عالياً في الهواء فوق الغلام. في بطء راحت سيَّارة النَّقل تتحرَّك داخلةً في ازدحام المرور وخارجة منه. زأر قطارٌ عالٍ قريباً منهم. فصفَّر الجواد وشبَّ نصف شبَّة، موشكاً أن يصطدم بسقفِ السَّيارة. وجذبه أليك إلى أسفل.

خفَّ ازدحام المرور تدريجيَّاً وتحرَّكوا مبتعدين عن القسم التِّجاري من المدينة واتَّجهوا نحو (فلوشنغ). لقد انتهى الأسوأ الآن، وكان الأدهم هادئاً. وأصبح أليك حُرَّاً بأن يفكِّر في بهجته حين يمتطي الجواد في ذلك الحقل الكبير قرب العنبر لو أنَّهم سمحوا له بإبقاء الجواد هناك!

ثُمَّ راحت السَّيارة تسير في شارعِ (فلوشنغ) الرَّئيسي. حدَّق أليك من النَّافذة بشوقٍ ولهفة. كان جميلاً أن يرى المخازن والمباني المألوفة لديه، مرَّةً أخرى. وبعد عمارتين أخريين، انعطفوا إلى شارع فرعي. وبعد عشر دقائق أخرى رأى أليك بيته على الجهة اليمنى. التفت أبوه وابتسم له من خلال النَّافذة. فردَّ أليك بابتسامة.

وتدحرجت السَّيارة مُجتازة البيت مُنطلقة في الشَّارع إلى منزل (هاليران) العتيق. وانعطفت السَّيارة إلى طريقٍ لمرور السَّيارات مُجتازة لافتة كبيرة كُتب عليها (للسوَّاح). ووقفت أمام الباب.

هبط والد أليك وسار إلى جانب سيَّارة النَّقل وقال: «حسناً يا أليك. إنَّ الأمر موكول إليك الآن. الأحسن أن تدخل وترى ما إذا كانت (المسز ديلي) ستسمح لك بإبقائه في العنبر».

أفلت أليك لجام الأدهم قائلاً: «على مهلك يا فتى» ثُمَّ قفز من السَّيارة وصعد عتبات المنزل، وقرع جرس الباب. كان آل (ديلي) قد

انتقلوا إلى منزل (هاليران) العتيق قبل أن يذهب أليك إلى الهند بوقت قصير. ولهذا لم يكن على معرفة وثيقة (بالمسز ديلي) التي جاءت الآن إلى الباب. كانت امرأةً ضخمةً مُريحة للنَّظر متينة البنيان. قال أليك: «هلو يا مسز ديلي. تتذكَّريني؟».

أجابت: «لم لا؟ أنت الفتى من ذلك الشَّارع، لكنَّهم أخبروني» وتوقَّضفت في حيرة ظاهرة، ثُمَّ استأنفت القول: «أخبروني أنَّك غرقتَ حين غرقَتْ سفينتك».

قال أليك: «لقد نجونا. وما وصلت البيت إلا الليلة».

قالت: «لا بُدَّ أنَّ أباك وأمَّك شاكران الله غاية الشُّكر. ولا ريب أنّضك عانيت وقتاً عصيباً!».

- «لقد كان عصيباً يا (مسز ديلي)، ولكن ما رغبت في أن أراك بشأنه يا (مسز ديلي) هو أنَّني...، قد أتيت بحصان معي نجونا معاً».

غمغمت قائلة: «حصان؟».

قال أليك: «نعم. وقد أخبرني أبي أنَّني أستطيع الاحتفاظ به، إذا وجدت مكاناً لبقائه، أودُّ أن أضعه في إحدى الحظائر في عنبرك» وأضاف: «سأدفع لك لقاء ذلك».

قالت (مسز ديلي): «لكنَّ العنبر ليس في حالةٍ جيِّدة يا ولدي». وابتسمت، ثُمَّ واصلت القول: «كما أنَّ لدينا نزيلاً في الحظيرة الجيِّدة الوحيدة!» - «نزيل؟».

نعم، إنَّه (طوني) البائع المتجوِّل، يحتفظ (بنابليون) العجوز هناك الآن. سأل أليك: «نابليون؟ هل تعنين الحصان الأشهب العجوز الذي كان عنده على الدَّوام؟».

- «نعم، ذلك هو - يبدو لي أنَّه سيموت في أيِّ يوم الآن... وحينذاك ستصبح قادراً على استعمال حظيرته!».

قال أليك: وقد بدأ يشعر باليأس: «لكنَّني لا أعرف أيَّ مكان آخر أستطيع أن أُبقي حصاناً فيه. أليس لديك حظيرة يستطيع أن يستعملها».

«أظنُّ الزَّريبة التي تلي زريبة (نابليون) يمكن إصلاحها وتنظيفها، لكنَّني لا أملك الوقت ولا المال اللازمَين لذلك. فإذا أردت أن تضع حصانك هناك، فعليك أن تنظِّمَها بنفسك».

قال أليك مسروراً: «بالتَّأكيد سأفعل ذلك يا (مسز ديلي). هل أستطيع تركه هناك الليلة؟».

قالت بابتسامة: «أوه، لا بأس. وإذا أصلحت الزَّريبة بصورةٍ حسنة فسوف أتساهل في الإيجار».

- «ذلك كرمٌ منك يا (مسز ديلي). سأقوم بأحسن ما أستطيع!».

قالت: «سأدعو زوجي ليفتح الباب لك». ثُمَّ صاحت بصوتٍ عالٍ: «هنري! سينزل خلال دقائق قليلة، كما أظنُّ. تستطيع أن تسوق سيَّارتك حتَّى الباب، سأجعله يلاقيك هناك».

قال أليك: «شكراً مرَّة أُخرى يا (مسز ديلي). شكراً مليون مرة».

واستدار وقفز هابطاً درجات العتبة.

هتف وهو يقفز على لوحة الصُّعود في سيَّارة النَّقل: «سوف تدعني أضعه هناك!»

أجاب والد: «ذلك حسن».

وضحك (جو روسو) قائلاً: «إنَّك بائعٌ ممتاز!» لاحظ أليك أن (جو روسو) كان يكتب ملاحظات على رُزمة الورق بين يديه، قال والد أليك عابساً: «انتظر حتَّى ترى (مسز ديلي) ما الذي سيوضع في عنبرها!».

ساقوا السَّيارة مجتازين حاجزاً حديديَّاً عالياً، حتَّى بلغوا الباب. وهناك وقفوا وراحوا ينتظرون (هنري) وأخيراً ظهر هنري وهو رجلٌ قصيرٌ غليظٌ عريضُ الأكتاف.

أقبل نحوهمْ سائراً مقوّس السَّاقين في خطوات مرتجفة. كانت أطراف قميصه ترفرف في ريح الليل. مسح يده الضَّخمة بفمه. وزمجر قائلاً: «كلُّ شيء على ما يرام». دسَّ مفتاحاً في القفل، ثُمَّ دفع الباب الثّضقيل. صرَّت فواصل الباب فيما انفرج مشرعاً. قال (هنري): «ادخلوا».

تدحرجت سيَّارة النَّقل خلال الباب واندفعت في الطَّريق الرَّمليِّ إلى العنبر. شعَّت أضواء السيَّارة الأماميّضة على الباب الدَّاخلي الواسع، وجاء (هنري) وراءها قائلاً: «سأفتح الباب الدَّاخلي وتستطيعون أن تدخلوه».

أنزل أليك الباب الجانبي لسيارة النَّقل ليستطيع إخراج الجواد. قبض على اللِّجام قائلاً: «إنَّه بيتك الجديد يا فتى!» وفي بطء قاد الحصان هابطاً به إلى الأرض. هزَّ الأدهم رأسه وضرب الأرض بقائمتيه الخلفيَّتين.

قال أليك: «انظروا إليه. إنَّه في حالٍ جيِّدةٍ منذ الآن»! ورأى الرِّجال يحدِّقون في الجواد بإعجاب.

اتكأ (هنري) على باب العنبر، وتحرَّكت عيناه ببطء تجسَّان جسم الأدهم. قال وهو يهزُّ رأسه: «أخبرتني زوجتي أنَّ لديك حصاناً، لكنَّني لم أتوقَّع حصاناً كهذا!».

ثُمَّ غمغم كما لو كان يُخاطب نفسه: «رأسٌ جيِّد، صدر عريض، أرجل قويَّة».

قاد أليك الأدهم إلى العنبر. وفي الحظيرة الخشبيَّة الأقرب إلى الباب، كان (نابليون)، ورأسه الأشهب العجوز متأرجح فوق باب الحظيرة. حمحم حين رأى الأدهم إلى داخل الحظيرة.

سأل أليك: «أأضعه إلى جوار (نابليون)، هناك يا مستر ديلي؟ أتعتقد أنَّه سيكون في مأمن؟ إنه يصبح عصبياً للغاية بعض الأحيان».

- بالتَّأكيد. ضعه هناك. سيكون (نابليون) العجوز عوناً له أكثر من أيِّ شيء آخر هدِّئه».

اتَّجه هنري إلى زاويةٍ من زوايا العنبر والتقط ضمَّة من القشٍّ عاد بها إلى الحظيرة ونثرها حوله قائلاً: «سنستعير بعض القشٍّ من (توني) كفراشٍ للأدهم. إنَّه لن يكترث». قام (هنري) بسفرتين أخريين ذهاباً وجيئة. قال: «الآن تستطيع أن تدخله يا بني. هناك أشياء قليلة يجب تنظيمها لكنَّني أظنُّ أنَّه سيتَّسع له. تستطيع أن تفعل غداً خيراً مما تفعله اليوم».

قال أليك: «شكراً».

وسأله والده قائلاً: «ما الذي ستطعمه الليلة يا أليك؟ أفكَّرت في ذلك؟».

قال أليك: «صحيح... لقد نسيت!».

التفت إلى (هنري) وقال: «أين تعتقد أنَّني أستطيع أن أجد بعض العلف يا مستر ديلي؟».

«إنَّ (توني) يحصل على علف من مخزن العلف في زاوية مخزن (بارسون ونورترن)، لكنَّني أتصوَّر أنَّه مغلق الآن. لكنَّك تستطيع أن تستعمل شيئاً من علف (توني)، ثُمَّ تردَّه له حين تحصل على علف لجوادك».

أجاب أليك: «عظيم». قاد الأدهم إلى الحظيرة التي تلي حظيرة (نابليون)، لقد كانت مهدَّمة قليلاً، لكنَّها كانت واسعة، وكان في وسع أليك القول بأنَّ الجواد قد أحبَّها. كان يقف في صبر بينما رفع أليك لجامه وحكَّ له جسمه. ثُمَّ سلَّم (هنري) إلى أليك سطلاً من العلف فأفرغه أليك في زريبة الأدهم.

مدَّ (نابليون) العجوز رأسه بحذر من على اللوحة التي بين الحظيرتين، رآه الأدهم، فخطا، وراح يشتمُّ متشكِّكاً. لم يتحرك (نابليون). كان أليك يخشى أن يتقاتلا. ثُمَّ مدَّ الأدهم رأسه إلى حظيرة (نابليون) وحمحم. فأجاب نابليون بحمحمة.

ضحك هنري وقال: «انظر، ما الذي قلت لك؟ إنَّهما صديقان منذ الآن».

غادر أليك الحظيرة، وهو يشعر براحة فيما يخص الأدهم بأكثر مما أحسَّ بها في أيِّ وقت منذ بدأ رحلتهما الطَّويلة عائدين إلى الوطن. قال: «إنَّني مسرورٌ بأنَّه يحبُّ نابليون. لعلني أستطيع أن أتركه الآن. عليه أن يتعلَّم البقاء وحيداً في حينٍ من الأحيان». قال أبوه: «يبدو كما لو أنَّه سيكون على ما يرام. في الحقِّ، يبدو وكأنَّه يحبُّ هذا المكان. إنَّه ليس متوحِّشاً للغاية، على كلِّ حال!».

- «إنَّه على ما يرامٍ يا أبي، حين يعتاد على الأشياء. إنَّه ينفلت من الزِّمام حين يُقلقه شيءٌ جديد!».

- «حسناً يا بني، دعنا نعود إلى البيت ونرى أمَّك، من الرَّاجح أنَّها تُقلق نفسها الآن حتَّى الموت».

تكلَّم (جو روسو) قائلاً: «أكره أن أكون لَجوجاً مزعجاً يا (مستر رامسي)، لكنَّني أودُّ أن أحصل على قصة ابنك قبل ذهابي. إنَّ لها كل أمارات القصَّة الجيِّدة، وأنا في حاجة إلى قصَّته».

ابتسم والد أليك وقال: «ولا بأس في ذلك. إنِّي سعيد بالتقائي بك واليوم يوم احتفال بالنِّسبة لنا، كما تعلم!»

تقدَّمهم (هنري) في طريق الخروج من العنبر، سمع أليك صفير الأدهم الخافت فيما انطفأ النور. ثُمَّ حلَّ صمت، وأغلق (هنري) باب العنبر.

زحفت برودةٌ هيِّنة إلى الجوِّ، كانت سيَّارة الشحن قد ذهبت. ساروا في بطء في الطَّريق الرَّملي نحو الباب، سلَّم هنري أليك مُفتاح القفل، وقال: «تستطيع أن تحتفظ بهذا، يا بني. إنَّ لديَّ مفتاحاً آخر في البيت ومن الرَّاجح أنَّك ستأتي إلى هنا كثيراً الآن».

أجاب أليك: «شكراً يا (مستر ديلي). سأفعل ذلك بالتَّأكيد».

«لستَ مضطراً إلى مناداتي بمستر ديلي – ادعني (هنري) وحسب كما يفعل كلٌّ واحد هنا. أيُّ شيء غير ذلك يبدو مضحكاً».

- «حسناً، يا هنري».

تركهم (هنري) عند الباب. عبروا الشَّارع وساروا نحو البيت، رأى أليك نوراً عند الباب الأماميِّ فأسرع في السَّير. قال أبوه: «على مهلك.

لم أعد شاباًّ كما كنت من قبل، كما تعلم». ضحك (جو) قائلاً: «لا أستطيع حتَّى مسايرة هذه الخطوات، وأنا ما زلت شاباً».

قال أليك: (سأراك هناك) وانطلق يعدو.

بلغ البيت وارتقي درجات العتبة درجتين درجتين. ورمى نفسه على الباب. لم يكن مُقفلاً، ركض داخلاً ممرَّ الصَّالة وصوَّب النَّظر إلى غرفة الجلوس، كانت خالية. ووضع يده على دربزين السُّلَّم وابتدأ يرتقي السُّلَّم. ثُمَّ سمع صوت أمِّه من المطبخ: «ألكسندر، أهذا أنت».

هتف قائلاً: «نعم، ماما، أنا» وركض إلى المطبخ ورمى ذراعيه حول أمِّه قال: «إنَّه لشيءٌ حسن أن يكون المرء في بيته!».

تطلَّع إلى أمِّه ورأى أنَّ عينيها كانتا نديَّتين. سألها: «ما الأمر يا أمِّي! لماذا تبكين؟».

ابتسمت (المسز رامسي) من خلال دموعها وقالت: «لا شيء يا بني، إنَّني مسرورة لأنَّك في البيت. ذلك كلُّ ما هناك».

ووضع أليك ذراعيه السَّمراوتين الضَّامرتين تحت ذراع أمِّه الممتلئة، وسارا معاً إلى غرفة الجلوس، فيما دخل والده و(جو روسو) من الخارج.

نظر المُخبر الصَّحفي في أرجاء الغرفة بأنوارها الخافتة المظلِّلة وأثاثها المريح للنَّظر، ثُمَّ إلى أليك وأبيه وأمِّه. قال (جو): «أظنُّك لا تستطيع أن تلومه على رغبته في العودة إلى هذا».

وافق أليك قائلاً: «صحيح!».

جلست أمُّه على السَّرير، وجلس أليك إلى جانبها وذراعه ما زالت في ذراعها. وكان أبوه يحشو غليونه في كرسيه الأثير في الزَّاوية. قال: «حسناً يا بنيَّ، هيَّا أخبرنا بكلِّ شيء».

بدأ أليك قائلاً: «بعد أن تركت العمَّ رالف في (بومبي) بأيامٍ قليلة، وقعنا في ميناءٍ عربيٍّ صغيرٍ في البحر الأحمر».

كانت السَّاعة التي فوق الراديو تَتُكُّ الدَّقائق فيما راح أليك يروي قصَّته. مرَّةً أخرى، كان على ظهر الـ (دريك) ويرى الأدهم للمرَّة الأولى. نسي أنَّ أمَّه وأباه و(جو روسو) كانوا يصغون إليه. كان في العاصفة يسمع زئير الإعصار وتحطُّم الأمواج على جانبيِّ السَّفينة. سمع قعقعةً عالية من قعقعات البرق فيما أصابت السَّفينة. ثُمَّ راح الأدهم يسحبه خلال الماء، راحا يُصارعان الأمواج في الظَّلام ساعات وساعات. طوّف في الجزيرة، يُكافح الجوع. اكتشف الطُّحلب المائيَّ الذي أنقذهما كليهما. ركب الجواد للمرَّة الأولى، ذلك الرُّكوب العنيف الذي لا يُنسى! الحريق، ذلك الحريق الرَّهيب، الذي ظهر أنَّه رحمة متنكِّرة في زيٍّ نقمة. وفرحه حين رأى البحَّارة يسحبون زورقهم إلى السَّاحل. ريو دي جانيرو الوطن...

انتهى، فحلَّ صمت. كانت يدُّ أمِّه تقبض على يده. راحت السَّاعة تَتُكُّ بصوتٍ عالٍ. وكأنَّها تقول: «هو ذا البيت... هو ذا البيت...» كان غليون أبيه قد انطفأ. قطع أبوه الصَّمت قائلاً: «لا أدري ما أقول، يا بني... إلا أنَّ الله كان معك لا بُدَّ ومعنا». – والتفت إلى (المسز رامسي) وقال: «نحن شاكرون الله، أليس كذلك يا أمَّاه؟» أحسَّ أليك بضغط يدها وهي تُجيب: «نعم، إنَّ لدينا الكثير ممَّا يجب أن نكون شاكرين الله عليه».

قال (جو روسو): «أستطيع أن أفهم الآن كم تحبُّون ذلك الحصان».

قال والد أليك: «نعم يا أليك. أستطيع أن أعدك بأنَّه سيجد على الدَّوام مكاناً له هنا معنا».

قالت أمُّه: «لولاه، ذلك الحيوان الوحشيّ غير المروّض».

وقف (جو روسو) قائلاً: «أودُّ أن أشكركم على سماحكم لي بالبقاء. إن كان ثمّة شيءٌ أستطيع القيام به».

نهض (المستر رامسي) من كرسيه وقال: «ذلك أمرٌ حسن. يسرُّنا أنّنا ساعدناك. طابت ليلتك». ومدَّ يده للمصافحة. ابتسم (جو روسو) لأليك وأمِّه قائلاً: «طابت ليلتك يا سيِّدي. اعتنوا عناية كبيرة بذلك الحصان».

أجاب أليك: «بالتّأكيد سأفعل. وشكراً لك على كلِّ ما قمت به».

بعد مضيِّ وقت غير طويل على مغادرة (جو روسو)، ألقى أليك على أبويه تحيَّةَ الليل: «طابت ليلتكما». وذهب إلى فراشه. إنَّ الانفعال من وجوده في البيت نائماً في فراشه الخاص جعله لا يستقرُّ على حال. اضطجع يقظان لمدَّة ساعة، ثُمَّ استغرق في نوم عميق.

أيقظه، على حين غِرَّة، صفيرٌ حاد، فتح عينيه وهو مازال نعساناً. أكان يحلم أم أنَّه سمع صفيرَ الأدهم حقاً؟ كان الليل ساكناً. مرَّت دقيقة. ثُمَّ سمع الصَّفير مرَّةً أُخرى، لقد كان الأدهم.

وثب أليك من فراشه، أنبأته السَّاعة التي على دولاب ملابسه أنَّ الوقت بعدَ الثَّانية عشرة بقليل. كان يقظاناً تماماً حين ارتدى «الرّوب» وركض يهبط السُّلَّم بسرعة، ثُمَّ يخرج من الباب. سمع الأدهم يحمحم ثانية فيما دخل البوّابة. كانت الأضواء تسطع في منزل (هنري). ثُمَّ في البيوت القريبة منه. كان الأدهم يوقظ الجميع! خفَّ أليك نحو العنبر. بلغ الباب. وإذا الضَّوء مشعلاً.

حمحم الأدهم حين رآه، ورأسه ممتدٌّ مسافة طويلة خارج الحظيرة. كان هناك صوت يتأوَّه من داخل حظيرة (نابليون) «ميو ديو – يا إلهي». لم يستطع أليك أن يرى أحداً، (نابليون) العجوز وحده؟

وقد وقـف مرتجفـاً في الطَّريـق البعيـد مـن الحظـيرة. اتَّجهـت عينـاه المذعورتان نحو أليك في توسُّل. جاء الصّوت ثانية: «ميو ديو!».

هتف أليك: «هلو، من هناك؟».

خبط الأدهم بقوائمه على أرض حظيرته في عصبيَّة، ثُمَّ رأى أليك يداً تتحرَّك على القسم الأعلى من باب حظـيرة (نـابليون)، ثُـمَّ تدفعـه في حذر فينفتح. وعلى حـين غِـرَّة، وكهجـوم مفـاجئ، انـدفع رجـلٌ خلال باب الحظيرة.

خفَّ الرَّجل مجتازاً وصار في الخارج قبل أن يستطيع الرَّجل أن يتبيَّنه.

صفَّر الأدهم مرَّةً أخرى. هتف أليك: «هاي، أيّتهـا الأدهـم. علـى مهلك!» ثُمَّ ركض نحو الباب ونظر إلى الليل في الخـارج. رأى أليـك رجلاً يقف إلى جانب (هنري)، الذي كان قـد وصـل لتـوِّه إلى مكـان الحادث. لقد كان (توني) البائع المتجوِّل، مالـك (نـابليون)! مـسكين (توني)، لعلَّ رؤيتـه للأدهـم في الحظـيرة الـتي تلـي (نـابليون)، قـد أذعرته حتَّى الموت!.

نادى أليك فيما أخذ طريقه نحوه: «هلو، توني» كان بعـض جيرانـه، وقد ألقوا بأروابهم على أجسامهم في عجـل، يُقبلـون في الطَّريـق المعـدَّ لدخول السَّيارات. ثُمَّ وصل صوت صـفَّارة (البـوليس) المعولـة إلى أذني أليك. وبينما دلفت سيَّارة (البوليس) إلى الطَّريق المعدِّ لمرور الـسَّيارات، سـأل أليـك: «تـوني، أأنـت علـى مـا يـرام»؟ أجـاب (هنـري) مكـشِّراً: «بالتَّأكيد. إنَّه على ما يرام. لقد فاجأه الأدهم... وحسب».

أومأ (توني) برأسه مؤمناً على ذلك القول. كان ما يزال أكثـر ذُعـراً من أن يتكلَّم. تجمَّع حشدٌ صغيرٌ حولهم. سـأل رجـل (بـوليس) فيمـا هبط من سيَّارته: «ما القضيَّة هنا؟».

أجاب (هنري): «لا شيء خطير، أيُّها الضَّابط، إنَّني أملك هذا العنبر وقد أنزلت فيه حصاناً آخر الليلة، دون أن يعلم (توني) بذلك. ولقد فاجأ أحدهما الآخر نوعاً ما، هذا كل ما هنالك».

سأل الضَّابط (توني): «هذا صحيح؟».

وجد (توني) صوته فأجاب: «سيِّدي، صحيح. كنت ذاهباً لأعالج جرحاً أُصيب به (نابليون) من اللِّجام، لقد أصاب نفسه اليوم، حين رأيت الحصان الجديد ورآني، يا سيِّدي» نظر إلى (هنري)، ثُمَّ أعاد النَّظر إلى رجل (البوليس) وواصل الكلام قائلاً: «لقد كانت مفاجأة لي ولا ريب!».

ضحك الجمهور من كلام (توني). قال رجل (البوليس): «حسناً، أظنُّ كلَّ شيء على ما يرام هنا. من يملك الحصان؟».

أجاب أليك: «أنا».

ابتسم الضَّابط وهو يقول: «إنَّك أحدث سنَّاً من أن تملك حصاناً يحمل مثل هذه المهمَّة الكبيرة، إخافة النَّاس».

أجاب أليك: «لقد جلبته إلى نيويورك بالأمس فقط. إنَّه ما زال عصبيَّاً للغاية، لكنَّه سيتغلَّب على ذلك».

قال رجل (البوليس): «يبدو حصاناً جيِّداً. أترى بأساً في أن أُلقي عليه نظرة؟».

قال أليك: «يسرُّني ذلك».

تحرَّك الجمهور الصَّغير إلى الأمام، دافعاً (توني) أمامه. وقف أليك في باب العنبر. قال: «على أغلبكم أن يراقبوا من هنا. إنَّ كثيراً من النَّاس سيُثيرون هياجه مرَّةً أُخرى».

صهل الأدهم صهيلاً خافتاً فيما دخل (هنري) وأليك و(توني) ورجل (البوليس) الحظيرة. مدَّ نابليون رأسه من باب الحظيرة، وصهل حين رأى (توني)، الذي رجع إلى الوراء. كان الأدهم ما يزال يخبط باب حظيرته بقائمتيه الأماميَّتين. حكَّ أليك أنفه.

قال رجل (البوليس): «إنَّه جميل. لقد كان بي على الدَّوام ضعف تجاه الخيل منذ أن قضيت عامين في قوَّة الخيَّالة. لا أظنُّ أنَّني رأيت جواداً كهذا». توقَّف ثُمَّ قال بعد أن ظلَّ يُراقب الأدهم بضع دقائق: «نعم. يبدو كما لو أنَّ كلَّ شيء على ما يرام هنا. وعليَّ أن أعود إلى المركز، وداعاً»، وغادر بعد أن أخذ الجمهور معه.

مكث توني في العنبر مع أليك و(هنري). وفي حذر تحرَّك نحو (نابليون) وهو يراقب الأدهم بعين حذرة. دفع الجواد رأسه إلى الأمام وصهل. قال أليك: «إنَّه يودُّك ويودُّ نابليون».

مدَّ (هنري) يده إلى بوز الأدهم، ثُمَّ أبعدها بسرعة حين هزَّ الجواد رأسه. ضحك أليك و(هنري)، قال (توني): «انظرا. إنَّني سأحبُّه أيضاً، بعد فترة!».

بعد وقتٍ قصير، صعد أليك مرَّة أُخرى، السُّلَّم إلى غرفة نومه. ولحسن الحظِّ كان والداه كلاهما عميقي النَّوم. كان الأحسن ألا يعلما بالهرج والمرج اللذين سبَّبهما الأدهم.

صعد أليك، في تعب، إلى فراشه. لقد كان متعباً حقَّاً الآن. حدَّق إلى السَّاعة الثَّانية والرُّبع وهو يريد أن يكون في العنبر في وقتٍ مبكِّرٍ صباح اليوم التَّالي. سقط رأسه على الوسادة وسرعان ما استغرق في النوم.

* * *

(9)

الهرب

في الصَّباح التَّالي حين فتح أليك عينيه، رأى رايات المدرسة الثَّانوية وأعلامها المعتادة معلَّقة على الجدران، ما أجمل أن يكون في غرفته مرَّةً ثانية. ثم تساءل في نفسه كيف كان الأدهم بعد عراك الليلة الماضية! انقلب أليك على جانبه وتطلَّع من النَّافذة. كانت الشَّمس تُشرق. لا بدَّ أنَّها حوالى السَّادسة.

لم ينل كثيراً من النَّوم، لكنَّه كان قد تعوَّد على ذلك بعد الأشهر القليلة الماضية. كانت الورقات على الأشجار قد بدأت تستحيل إلى حُمرة الخريف الفاقعة. لقد سرَّه أن أخبره والده أنَّه لا ضرورة لذهابه إلى المدرسة اليوم. كان قد قال: «إنَّ يوماً واحداً لن يضر، وإنَّه سيعطيك فرصة لتعوِّد نفسك مرَّةً أُخرى على محيطك». لقد عرف بأنَّ ما كان يعنيه في الحقِّ هو أنَّ ذلك اليوم سيعطيه فرصة لتعويد الأدهم على محيطه الجديد!

وثب أليك من فراشه وركض إلى غرفة الحمَّام. أخذ «دوشاً» بارداً، وارتدى ملابسه، وسار على أطراف أصابعه هابطاً السُّلَّم. فتح الباب وخرج إلى هواء الصَّباح المنعش.. كانت الدُّنيا هادئة ذلك الهدوء الذي لا يكون مثله إلا لصَّباخ الباكر. كان العشب مبتلاً بالنَّدى الثَّقيل. سار في الشَّارع وهو يصفِّر لنفسه صفيراً خافتاً. وحين أصبح على بُعدٍ كافٍ من البيت بدأ يغنِّي.

وجد البوابة مشرعة قليلاً. لا بُدَّ أنَّ أحداً كان هناك. لعلَّه (توني)! ركض في الطَّريق نحو العنبر وسمع صوتاً عميقاً من درجة (الباس) آتياً من الدَّاخل: «سان – تالو – تشي – آسانتا لو – تشيا!» لا يمكن أن يكون ذلك غير (توني)! كان باب العنبر مشرعاً أيضاً. رأى أليك الإيطاليَّ الصَّغير جالساً على كرسيٍّ، وعيناه مثبَّتتان على الحظيرتين اللتين كانت تأتي منهما أصوات مضغ عميقة. صاح أليك: «هلو، توني!».

التفت (توني)، ووجهه الأسمر المجعَّد يتكسَّر إلى ابتسامة عريضة، وقال: «هلو، أنت ترى أنَّني لم أعد أخاف منه!». ضحك أليك قائلاً: «نعم أرى ذلك، ستصبح على ما يرام معه بمضيِّ الزَّمن!».

– آه، إنَّه حيوان عظيم، يذكِّرني (بنابليون) عندما كان فتيّاً، وثَّاباً، مليئاً بالحيويَّة. وحين رآني أطعم (نابليون)، تركني أطعمه أيضاً!».

– «ذلك حسن للغاية يا (توني). إنَّه في العادة لا يترك أحداً يقترب منه سواي».

قال توني: «انظر إليهما».

كان (نابليون) قد دسَّ أنفه بين القضبان، وكان يحاول الوصول إلى صندوق علف الأدهم. وعضعضه الجواد مداعباً. سحب (نابليون) رأسه وراح ينظر من باب الحظيرة.

ضحك (توني) قائلاً: «حان وقت الذَّهاب إلى العمل، يا رجل!».

أخرجه من الحظيرة وحكَّ يده على جلده الشَّهب المهلهل. وقال: «غداً سأعطيك حمَّاماً جيِّداً وسيصبح أبيض كالثَّلج!».

راقب أليك (توني) وهو يلجم (نابليون) ويسرجه. رآه يرتِّب، في حنان، لزقة سميكة على الجرح في كتف (نابليون). لاحظ أنَّ الأدهم كان أيضاً مُتفرِّجاً مُهتمّاً.

قال (توني): «ساعدني يا أليك. نحن متأخِّران نوعاً ما هذا الصَّباح». ساعد أليك (توني) في ربط (نابليون) العجوز إلى عربة البائع المتجوِّل الصَّغيرة. بدت معاضلة الحصان الأشهب العجوز الرَّفيق عبث أطفال بعد معاضلة الجواد الشَّرس الممتلئ حميَّة.

سمعا الأدهم يهمهم في الدَّاخل. فركض أليك إلى العنبر قائلاً: «ما الخطب يا أدهم؟».

كان الجواد الأدهم الطَّويل ممتداً في تساؤل إلى الحظيرة التَّالية له. لقد افتقد (نابليون). قال أليك يخاطبه: «على نابليون أن يذهبَ إلى العمل، يا فتى، لكنَّه سيعود الليلة». فتح أليك الباب وأمسك بلجام الحصان. وتناول حبلاً من الرَّصاص، من مسمار خارج الحظيرة ووصله باللجام. ثُمَّ قاد الأدهم إلى الخارج.

كان (توني) يتسلَّق صاعداً إلى مقعد العربة. قال: «حسناً، يا أليك، علينا أن نذهب، أراك الليلة. هيا يا نابليون».

رفع (نابليون) رأسه وصهل حين رأى الأدهم. رفض أن يتحرَّك. هزَّ (توني) أعنته فردَّد: «هيا الآن يا نابي. علينا أن نذهب!» هزَّ (نابليون) رأسه ونظر إلى الأدهم، ثُمَّ سار في إذعان.

شدَّ الأدهم على الحبل، كان يريد أن يتبع (نابليون)، ردَّه أليك وصدَّه. شبَّ على قائمتيه الخلفيَّتين عالياً في الهواء. انتصبت أذناه إلى الأمام وشخر في غضب.

ابتسم أليك وقال: «تكره أن ترى رفيقك في السَّكن يرحل، ألـيس كذلك؟».

راقبا (تـوني ونـابليون) يـذهبان في بـطء في الطَّريـق الرَّملـي إلى البوَّابة. انطلق (نابليون) يخبُّ في بطء في الشَّارع.

حين أصبحا خارج نطاق البـصر، تحـرَّك الأدهـم في دائـرة حـول أليك. سأله أليك: «تشعر بأنَّك علـى خـير مـا يـرام، ألـيس كـذلك؟» جذب أليك الأدهم من حبله ليفسح له في المجال. قـاده نحـو الحقـل الواسـع المحـاط بجـدارٍ حجـريٍّ. قـال: «سـتحبُّ أن ترتـع في هـذا المكان. انظر إلى العشب العالي!».

راح الأدهم يقضم العشب الأخضر في جوع. وحين بدا أنَّه قد نـال كفايته، ركض أليك في الحقل معه. نادى أليك فيما كان الجواد يخـبُّ أمامه. وفي منتصف طريق الحقل وجد نفسه وقد صـار متعبـاً وجـذب الأدهم حتى أوقفه.

سأل: «ما رأيك في أن أركبك الآن، يا أدهم؟». بحث بعينيـه عـن مكان يرتقي الجواد منه. سحب الجواد إلى جانـب الجـدار الحجـريِّ. قابضاً على رسنه بكلتا يديه.

لم تسنح فرصة لركوبـه منـذ أن كـان في الجزيـرة. وقـف الجـواد ساكناً للحظة، ثُمَّ انطلق خبباً. استطاع أليك أن يقوده بصورة جيِّدة من الرَّسن ووجد أن الجواد ما زال يتذكَّر دروسه في الجزيرة.

انطلقا في الحقل، والرِّيح تـسوط وجـه أليـك، وسـكون الـصَّباح الباكر يصدى بوقعِ سنابك الجـواد. جعلـت خطواتـه الطِّـوال الجبَّـارة الحقل يبدو صغيراً للغاية. دار به أليك حول الحافَّة وعـاد بـه إلى أول الحقل من جديد. راحا يسيران أسـرع فأسـرع. غـرز أليـك ركبتيـه في

جانبيِّ الجواد وراح جسمه يتحرَّك حركة موقّعة منغومة مع جسم الأدهم. انطلقا مجتازَين العنبر، ثُمَّ عاد به أليك إلى آخر الحقل ثانية. ظلا يدوران الحقل مرَّة بعد مرَّة.

بعد فترة دبّر أليك أمر تخفيف سرعة الجواد قليلاً. واستمرَّ الأدهم يدور واثباً. ثُمَّ أبطأ عدوَه إلى خبب. لم يسبق لأليك أن كان أسعد ممَّا كان حينذاك. لقد عاد إلى الوطن أخيراً، ومع حصان كهذا! ملكه الخاص!، دفن رأسه في عرف الأدهم ومسح بيده على عينيه مجفِّفاً الدُّموع التي أثارتها الرِّيح فيهما.

نظر أليك إلى الإسطبل، فرأى (هنري ديلي) متَّكئاً على الباب يراقبهما. ركب حتَّى بلغه فترجَّل. ممسكاً برسن الأدهم. قال: «صباح الخير، يا هنري» وتحسَّس ظهر الأدهم، وقال: «حتَّى البلل لم يصبه.. يا له من حصان، يا هنري! لقد ظللنا ندور في الحقل كالرِّيح. هل رأيتنا؟».

لم يتحرَّك (هنري) من الباب. لكنَّ أليك رأى عينيه الرَّماديَّتين تفحصان الأدهم إنشاً فإنشاً. قال هنري: «بالتَّأكيد رأيتكما. يا بني، لقد رأيت الكثير من الخيول في زمني وركبت ما ركبت منها لكنَّني لم أرَ منها ما هو أحسن منظراً أو حركة من هذا!».

أشرق وجه أليك بالكبرياء وقال: «إنَّه أعظم يا هنري، أليس كذلك؟ ما زلت لا أصدِّق أنَّه ملكي». امتدَّ جيد الجواد الطَّويل إلى الأرض، ودسَّ أنفه في العشب الأخضر.

قال هنري: «دعه مطلق السَّراح، يا أليك. انظر كيف يحبُّ ذلك».

- «هل تظنُّ أن ذلك مأمون؟». مكتبة t.me/ktabrwaya

- «إنَّه على خير ما يرام الآن. لقد عدوت به عدواً طويلاً. وبالإضافة يجب أن يعتاد على أن يُترك وحيداً، على كل حال».

- «أظنُّك على صواب، يا هنري» حلَّ أليك الحبل الرَّصاصي من اللَّجام. رفع الجواد رأسه وارتجف منخراه، وعلى حين غِرَّة دار الجواد على نفسه وسار في خفَّة يجوب الحقل.

راقبه أليك وهنري. قال هنري: «إنَّها أوَّل حريَّة ينالها منذ وقت طويل» فقال هنري وهو ينظر وراء الأدهم في إعجاب: «وهو ملتذ بها ولا ريب».

وقف الجواد وأدار رأسه الضَّخم نحوهما. وصفَّر. قال (هنري) وهو مستغرق في الفكر: «يا ولد، أتمنَّى أن أراه في حلبة!».

سأل أليك: «تعني السِّباق، يا هنري؟».

- «نعم».

استدار أليك ملتفتاً إلى الأدهم الذي كان الآن يتواثب في الحقل مرَّة أخرى، في خبب رشيق هيِّن، ورأسه يتَّجه من جانب إلى جانب، قال أليك: «سيمضي وقت طويل قبل أن يكون مأموناً في أيِّ سباق، يا هنري».

- «حسناً، إنَّ لدينا كثيراً من الوقت. أليس كذلك؟»

قال أليك وقد فاجأه الرَّجل البدين القصير إلى جانبه: «لدينا؟ تعني يا هنري أنَّنا – أنت وأنا – نستطيع أن ندخله إلى السِّباق!».

لم يتحرك هنري، كانت عيناه ما تزالان تتبعان الأدهم في الحقل.

قال في هدوء: «طبعاً، نستطيع». ثُمَّ انخفض صوته بحيث كاد أليك لا يسمعه: «لم أرد مسألة التَّقاعد هذه. لست كبيراً جداً، ما زال فيَّ الكثير من سنوات العافية! هذه الحياة جيِّدة لزوجتي، إنَّ لديها من العمل ما يكفي لإبقائها مشغولة، أمَّا أنا فأحتاج إلى عمل وحركة. وها

هما يجرفان إلى حضني!». وعلا صوته: «أعرف أنّنا نستطيع أن نجعل من الأدهم بطلاً». كان وجهه مجعَّداً بالتَّأثر. وضاقت أجفانه حتَّى أصبحت مجرَّد شقوق في وجهه المفعم بالخطوط.

- «أتعني ذلك حقّاً، يا هنري، لكن... الآن...» قاطعه الرَّجل العجوز وتحرَّك للمرَّة الأولى: «بالتَّأكيد، أنا واثق يا أليكس، وأنا أعرف خيلي». وأخذ الصَّبيَّ من ذراعه وقال: «تعال معي وسأريك شيئاً».

قاده هنري إلى طرف العنبر الأبعد. ركع إلى جانب صندوق عميق. أخذ مفتاحاً من جيبه وأدخله في قفل وفتحه. كان الصُّندوق محشوّاً إلى حافته العليا بتذكارات صيد وأقداح فضيَّة. نبش هنري في بطن الصُّندوق وأخرج دفتراً كبيراً للصق الجرائد. قال: «لقد حفظت زوجتي هذا لي على الدوام، حتَّى قبل أن نتزوَّج».

قلب الورقات المصفرَّة الحائلة التي كانت مليئة بقصاصات الجرائد. لفت عيني أليك عنوان بعد عنوان فيما كان يجثو إلى جانب هنري: «ديلي يركب تشانغ إلى النَّصر في سباق سكوت التَّذكاري، ديلي يجعل واريور الفائز الأول بـ50.000 دولار. عالم السِّباق يعلن ديلي أعظم راكب في جميع الأزمان». توقَّف هنري من تقليب الورقات، وعيناه تحدِّقان بثبات في صورة فوتوغرافيَّة أمامه. قال: «هنا يا ولدي حصلت على أعظم هزَّة في حياتي، وقد ركبت تشانغ ففاز بالمرتبة الأولى في سباق الخيل في كنتكي. تكاد لا تظنُّ أنَّ ذلك الشَّاب الصَّغير كان أنا؟».

نظر أليك بإمعان أكثر. رأى صبيِّضاً صغيراً، تعلو وجهه تكشيرة وحشيَّة، راكباً على جواد أحمر ضخم مهيب المنظر. وحول عنق الحصان

علّق إكليل ورد الفوز المضفور على هيئة نعل حصان. لاحظ أليك يدين ضخمتين قويَّتين تمسكان العنان والكتفين العريضتين القويَّتين. قال: «نعم. يمكنني القول أنَّه أنت». ابتسم هنري ومدَّ يده إلى قاع الصُّندوق ثانية. وأخرج ما تراءى لأليك بأنَّه أوراق مجفَّفة قديمة. ثُمَّ رأى أنَّها كانت على هيئة نعل حصان. نظر مرَّة أُخرى إلى الصّور الفوتوغرافيَّة.

قال هنري: «نعم إنَّه نفس الإكليل الذي وضعوه حول رقبة تشانغ في ذلك اليوم. لم يبق الكثير من هذه الصُّور، لكنَّها ما تزال تحوي الكثير من الذِّكريات!».

أعاد هنري الأزهار الجافَّة إلى الصُّندوق واستمرَّ يقول: «حين أصبحت أخيراً أكبر عمراً وأثقل وزناً من أن أركب حصاناً، أخذت أدرِّب الخيل آنذاك.

تزوَّجت وكنَّا سعيدين زوجتي وأنا. ولد لنا طفلتان، إنَّهما الآن متزوِّجتان. وبطريقة ما، آلمني على الدَّوام أنَّه لم يكن لي غلام، غلام مثلك، يا بني، يحبُّ الخيل ويقتفي أثري. إذ لا شيء في الحياة يثير النَّفس كما يثيرها أن تصطف هناك عند علامة بدء السِّباق وأنت على صهوة قطعة من الدِّيناميت ذات أربع أرجل. على كلٍّ.. لقد كنت ناجحاً للغاية كمدرب، وحصلت على مال كثير. ثُمَّ جاء اليوم الذي فكَّرت فيه زوجتي أن قد حان الحين لنا لكي نتقاعد ونتنحَّى عن الطَّريق. لا أستطيع القول بأنَّني ألومها، إنَّها الحياة الوحيدة التي عرفتها بعد أن تزوَّجتني، وأظنُّ أنَّها لم تكن في دمها كما كانت في دمي. لقد ظللنا سنوات عديدة ننتقل من مكان إلى مكان، ثُمَّ اشترينا هذا المكان. وها نحن هنا. مضت سنتان منذ أن رأيت سباقي الأخير، سنتان. لا أظنُّ أنَّني أستطيع الصَّبر أكثر من هذا».

توقَّف هنري مرَّة أُخرى. ثُمَّ قال: «أنت ترى يا أليك أنَّني أخبرك بهذا لكي أريك أنَّه إذا كان هناك ما أعرف شيئاً حوله فهو إذا كان حصان ما جيِّداً أم غير جيِّد. ودعني أخبرك أننا نستطيع أن نجعل الأدهم أعظم جواد متسابق وضع حافره في أيَّة ساحة سباق!».

أغلق هنري الكتاب محدثاً صوتاً حادّاً وأعاده إلى جوف الصُّندوق. ثُمَّ نهض على قدميه ووضع يده على كتف الصَّبيِّ. وسأله «ماذا تقول يا بني؟ هل تتسابق؟».

تطلَّع أليك إلى الرَّجل العجوز. ثُمَّ نحو الباب المشرع حيث كان يستطيع أن يرى الأدهم في المدى. قال: «سيكون ذلك عظيماً يا هنري! وأنا أعرف أنَّك تستطيع أن تتسابق سباقاً رائعاً بأيٍّ حصان في العالم. إذا استطعنا أن نحول بينه وبين العراك».

- «سيكون ذلك عملاً شاقاً، يا أليك، ولكنَّه جدير بأن تراه يعدو في ساحة السباق؟».

- «أين نستطيع أن ندرِّبه يا هنري؟».

- «نستطيع أن نفعل الكثير حتَّى الرَّبيع، يا أليك، دعني فقط أعتاد عليه هنا. تستطيع أن تمتطيه حول الحقل وسوف أعلِّمك جميع الحيل التي أعرفها، لن نكون قادرين على أن نفعل الكثير بشأنه حين يُقبل الشِّتاء. لا أظنُّ أنَّنا سنزعجه بلجام وسرج منذ الآن، سننتظر حتى أوائل الرَّبيع، أيضاً. في ذلك الوقت لن نلقى عناءً كبيراً في وضعهما عليه. ثُمَّ أظنُّ أنَّني أستطيع أن أجد وسيلة لإرساله إلى (بيلمونت) ليتدرب على ساحة السِّباق، وعندئذ يبدأ التَّدريب الحقيقيّ!».

- «عظيم يا هنري! أتظنُّ أنَّنا سنكون قادرين على امتطائه في السِّباق!».

ابتسم هنري وقال: «ما لم أكن مخطئاً، فإنَّ الحصان لن يدع شخصاً آخر غيرنا يركبه».

وفيما سارا نحو الباب، ملأ الفضاء أزيزٌ عالٍ من إحدى الطَّائرات قال أليك:

«ذلك الرَّجل قريب للغاية من الأرض! يبدو محركه مختلاً أيضاً!».

ركضا إلى الخارج ورأيا طائرة تحلِّق فوق العنبر، تقطَّعت حركة محرِّكاتها، ثُمَّ اعتدلت مرَّة أُخرى معكِّرة هدوء الصَّباح الباكر بزئير يصمُّ الآذان. قال هنري: «لقد اعتدل!».

لكنَّ أليك لم يكن يراقب الطَّائرة الآن، فقد سمع شيئاً طغى على أزيز الطَّائرة. صفير الأدهم الحادِّ الجارح! رأى أليك الجواد يرتفع على قائمتيه الخلفيَّتين ويستدير في الجوِّ، راكضاً بسرعةٍ تقطع الأنفاس في الحقل. هتف أليك: «انظر يا هنري! الأدهم» كان الجواد يقترب من نهاية الحقل وخطوه لا يفتر، ولبدته السَّوداء الطَّويلة تتماوج وراءه كموجات من الدُّخان.

قال هنري: «يا الله! لقد أذعرته الطَّائرة! سيقتل نفسه على تلك الصُّخور!».

- «لن يقف يا هنري».

ثُمَّ رأيا الأدهم يجمع نفسه، وكنابض جبَّار مشدود أُرخي لتوِّه، انطلق خلال الجوِّ وعلى السِّياج. غمغم هنري: «سبعة أقدام بالضَّبط!» واندفعا معاً في الحقل.

رأيا الأدهم في المدى، ثُمَّ غاب عن النَّظر، وقف هنري على حين غِرَّة وقال: «سأعود وأجلب السَّيارة يا أليك. ابق أنت راكضاً خلفه!».

صاح أليك من وراء كتفه: «حسناً. إنَّه ميمِّم نحو المتنزه». وبسرعة تسلَّق السِّياج وركض بأسرع ما يستطيع في الاتِّجاه الذي سلكه الجواد. وسرعان ما لحق به (هنري) في السَّيارة. وقال: «اصعد يا بني». ولم يكن للأدهم من أثر.

* * *

(10)

البحث

ظلَّ أليك و(هنري) يبحثان عن الأدهم لمدَّة نصف ساعة في جنون. انطلقا، في سيَّارة (هنري)، يذرعان الشَّوارع طولاً وعرضاً.

قال هنري: «من حسن الحظِّ أنَّ هذا قد حدث في الَّصباح الباكر والنَّاس في الشَّوارع قلائل». سأل أليك دون أن يحول عينيه عن الطَّريق أمامه: «ما الوقت الآن؟» سحب (هنري) ساعته الفضيَّة الضَّخمة من جيب صدره وغمغم:

«السَّاعة السَّابعة».

فأعلن الصَّبي: «علينا أن نجده يا هنري – قبل أن يكون الأوان قد فات!» سأل هنري: «ما الذي تعني، الأوان قد فات؟».

«أخشى أن يطلق بعض الشُّرطة عليه النار. إنَّ ذلك سيكون فظيعاً!» انحنى هنري برأسه ودفع قدمه على المعجِّل بأشد مما كان يدفعها، فانطلقت السَّيارة قدماً.

«استدر إلى هذا الشَّارع، يا هنري، إنَّ المنتزه أمامنا، لعلَّه هناك».

رأى أليك رجلين في إحدى زوايا الشَّارع. «قف هناك يا هنري. سنسألهما عمَّا إذا كانا قد رأياه. يبدوان متَّجهين بسرعة بشأن شيءٍ ما!».

أطلَّ أليك من جانب السَّيارة وهتف: «قل، أيُّها السَّيد. هل رأيت حصاناً يجري هنا!».

أجاب أحدهما قائلاً: «بالتَّأكيد رأيناه. لقد انطلق ماراً بنا كأنَّه وميض البرق، قبل عشر دقائق! من أين جاء بحقِّ الشَّيطان؟».

قال أليك: «شكراً» دون أن يجيب على سؤال الرَّجل، انطلقت السَّيارة قدماً فيما داس (هنري) على البنزين.

قال هنري في عبوس: «نحن في الطريق الصَّحيح على كلِّ حال يا أليك». بعد بضع دقائق دخلا المنتزه. خفَّف هنري من سرعة السَّيارة، وقال: «انظر هناك أيُّها الفتى. وسأهتمُّ أنا بهذا الجانب».

قال أليك بعزيمة مثبِّطة: «إنَّه منتزه واسع للغاية».

قال هنري مكشِّراً: «ذلك أحسن، ليس هناك كبير احتمال في إيذاء أحد من النَّاس إذن!».

تدحرجت السَّيارة في الطَّريق المحفوفة بالأشجار، أطلَّ (هنري وأليك) كلاهما من جانبيِّ السَّيارة، وبعد أميالٍ قليلةٍ بلغا ساحة لعب الغولف المفروشة بالعشب الأخضر المتموِّج.

قال أليك: «لعلَّه ذهب إلى هناك يا هنري، هناك الكثير من التِّلال وهذا بالضَّبط ما يبحث عنه».

قال هنري فيما أوقف السَّيارة: «دعنا نوقف السَّيارة هنا ونلقي نظرة، يا أليك».

كان على أليك أن يهرول ليلحق بخطوات (هنري) القصيرة، المملوءة حيويَّة مع ذلك، عبر جادَّة النَّهر. كان الهواء بارداً، لكنَّه بدأ يدفأ بفعل الشَّمس التي كانت ترتفع أعلى فأعلى في السَّماء الزَّرقاء الصَّباحيَّة. كانت أحذيتهما تُحدث أصواتاً شاخبة عميقة في ندى الصَّباح الباكر.

غمغم هنري دون أن يخفِّف من سرعة خطاه: «سيكون يوماً حارّاً».

وتباطأ أليك وراءه. قال: «آمل أن نجده قبل أن يبدأ لاعبو الغولف في الصَّباح الباكر في الخروج».

حين بلغا منتصف جادَّة النَّهر، توقَّف هنري وقال: «الأحسن أن تذهب في اتِّجاه تلك الغابة هناك. وسأذهب أنا في جادَّة النَّهر هذه قليلاً نحو ذلك التل. إذا وجده أيٌّ منَّا، فليهتف».

قال أليك: «حسناً يا هنري». وانطلق في اتجاه الغابة. كانت قدماه مبتلَّتين. توقَّف وبدأ يخلع حذاءه، وحين فكَّر ثانية في الأمر، قوّم ظهره وواصل السَّير بخطى سريعة. انحدر إلى أخدود واسع. وفي القصد استدار وتبع الأخدود. فيما كان يتعرَّج يميناً ويساراً عبر الطَّريق وسرعان ما دخل الغابة. ارتقى إلى قمَّة الأخدود وراح ينظر حواليه. كان النَّدى على العشب الأخضر يلتمع في النَّدى. والهواء ساكن وبارد، في ظلٍّ الأشجار الضَّخمة. كان أليك يعلم أنَّ هناك جادَّة نهر أخرى على الجانب الآخر من الغابة. أسرع نحوها متتبِّعاً الممرَّ الذي كان قد سار فيه مرَّات عديدة كخادم للاعبي الغولف خلال شهور في الماضي. بلغ الجانب الآخر ونظر عبر بساط العشب الأخضر الممتدَّ أمامه.

لم يكن للأدهم من أثر. صفَّر أليك، لكنَّه لم يتلقَّ من جواب. بدأ السَّير عبر جادَّة النهر وفكَّر: «ما زالت أمامي مسافة طويلة أقطعها، من الممكن أن يكون في أيٍّ مكان».

ولمدَّة ما تراءت وكأنَّها ساعات، درج أليك يصعد التِّلال التي في طريقه ويهبطها باحثاً عن الأدهم. وقد ارتفعت الشَّمس الآن واشتدَّت حرارتها. أمَّا هو فقد ازداد قنوطاً حين لم يرَ أثراً للجواد. خلع السترة البيضاء ورماها على ذراعه. بلغ قمَّة تلٍّ عال ونظر تحته. وفي المدى، استطاع أن يرى بعض الرِّجال يلعبون الغولف.

قال لنفسه في أمل: «لعلَّ هنري قد وجده». لقد قطع أكثر من نصف الطَّريق ومن المؤكَّد أن الأدهم ليس هنا». صفَّر أليك مرَّة ثانية. إذا كان الأدهم في مدى سماع الصوت فإنه لا شكَّ سيميِّز صفيره. لكنَّه لم يلق جواباً لصفيره.

لعلَّ الجواد لم يدخل المنتزه مطلقاً. لعلَّه ما زال في مكانٍ ما في الشَّوارع. لكنَّ أليك أحسَّ بأنَّ الجواد أقل ذكاء من أن يفعل ذلك. إنَّ غريزته الطَّبيعيَّة ستقوده إلى المساحات المكشوفة هنا. في المنتزه. لقد فتَّش منطقته تفتيشاً دقيقاً. ثُمَّ توقَّف. إنَّه لم يذهب إلى «الثُّقب» حيث اعتاد هو وبقيَّة الصِّبية على الذَّهاب على الدَّوام، للسِّباحة بعد يومٍ كاملٍ من خدمة لاعبي الغولف. لقد كان خارج طريقه لكن هناك احتمالاً في أنَّ غريزة الجواد قد قادته إلى الماء.

عليه أن يُلقي نظرة هناك، عليه ألا يغفل عن أيِّ احتمال مهما كان طفيفاً. استدار أليك في مسيره، وذهب على طول جانب التَّلِّ. آلمته رجلاه، ولم تكن قدماه المبتلَّتان تساعدانه في شيء. سار مسافة ميل قبل أن يأتي إلى غابة أخرى. سلك طريقاً لا يبين منحدراً فيه، إلى منخفض، ثُمَّ صعد مرَّةً أخرى. كان «الثُّقب» على مسافة قصيرة أمامه الآن. حيث الجو على الأقل لطيف وبارد. وحث أليك خطاه مسرعاً. بلغ قمَّة التَّلِّ وتطلَّع إلى ما تحته. كان الماء يتلامع في الأسفل. لم تكن البركة واسعة. ولو أنَّ الأدهم هناك، لسوف يراه بالتَّأكيد. لكن لم يكن هناك من أثر له.

كانت الغابة ساكنة إلا من نقرات نقَّار الخشب تذكِّره بالسَّكتات في الموسيقى وهو دائب على النَّقر في شجرة قريبة. تلاشى الأمل في قلب أليك، لقد رمى سهمه الأخير. كان المكان الطَّبيعي الذي يجب

أن يكون الأدهم فيه - بركة الماء الوحيدة خلال أميال حول هذا المكان. ألقى نظرةً أخيرةً حتَّى الظِّلال على جانب البركة، التي كانت قادرة على حجب الجواد. إنَّه لم يكن هناك... وكفى.

وتسلَّق متعباً ليعود إلى حيث أتى. ما الذي حدث لحصانه؟ تخيَّل الأدهم ينطرح ميتاً في الشَّارع، وقد قتلته سيَّارة أو رصاصة من رجال (البوليس). لا يمكن لذلك أن يكون، لا يمكن أن ينتهي الأمر على تلك الصُّورة!

لعلَّ (هنري) قد وجده الآن.

مزَّق السُّكون صوت مقرقع حادٌّ. عاد أدراجه بسرعة. لقد جاء الصَّوت من ناحية البركة. أسرع عائداً وألقى نظرة من علٍ، كان شيء ما يشقُّ طريقه، على الجانب الآخر، خلال الدَّغل الكثيف قادماً في اتِّجاه الماء!. وقف أليك ساكناً، وهو لا يكاد يجرؤ على أن يأمل!. ليس هنالك أي ممرٍّ مهما كان ذلك الشَّيء، فقد كان يشقُّ طريقه خلال الشُّجيرات. ازداد الصَّوت علوّاً. ثُمَّ ظهر، على حين غِرَّة رأسٌ أسودٌ ضخمٌ. إِنَّه الأدهم!. رآه أليك يُدلي رقبته الطَّويلة ويغمر أنفه في الماء البارد.

شلَّه الشُّعور بالارتياح لمدَّة لحظة، ثُمَّ صفَّر في لطف، رفع الأدهم رأسه، والماء ما زال يقطر من شدقه وتطلَّع، صفَّر أليك مرَّة ثانية وركض هابطاً المنحدر، نحو البركة. رآه الجواد فهزَّ رأسه وصفَّر، فخفَّف أليك عَدْوَه إلى مشي اعتياديٍّ. وفي حذر، قطع المسافة فيما حول البركة وبلغ الأدهم. وسأله قائلاً: «ما الأمر يا رجل؟ خائف؟».

هزَّ الجواد رأسه وتقدَّم نحوه، كان جسمه الأسود مُتَّسخاً وكانت لبدته الطَّويلة مغطاة بالعُقد. ربَّت أليك البوز النَّاطف ماء. وقال وهو

يمرُّ بيده على رقبة الجواد يمسح القذارة عنها: «لاقيت وقتاً عصيباً أليس كذلك يا ولد!؟ ما أطيب أن أراك!».

دسَّ الجواد، مرَّة أُخرى أنفه، في الماء البارد وشرب طويلاً.

حين انتهى من الشُّرب، قبض أليك اللِّجام الذي كان ما يزال حول رأسه وقال: «تعال، يا ولد، لنذهب إلى البيت».

رفض الأدهم أن يتحرَّك، تحدَّث أليك بلطف إليه ومسح يده على رقبته، لكنَّ الجواد وقف ثابتاً في مكانه، شدَّ أليك اللِّجام مرَّةً أخرى. لمحت عينا الأدهم تجتاحان ما حولهما، ثُمَّ استقرَّتا على الصَّبيِّ، فهزَّ رأسه وسار وراءه في بطء.

قاده أليك مصعداً في الممر الذي يخترق الغابة، وحين بلغ جادَّة النَّهر وقف ونظر إلى الحصان وسأله: «ألا تحملني على ظهرك، يا سيّد؟» تحرَّك الأدهم بخفَّة إلى جانب، وعيناه متَّجهتان إلى جادَّة النَّهر المنفتحة أمامه.

قال أليك: «إنَّني في الحقِّ مُتعب للغاية يا أدهم، لقد كان طراداً ما سبَّبته لي، كما تعلم». قاد الأدهم إلى جذمور شجرة. وخطا على الجذمور ثُمَّ رمى نفسه على ظهر الجواد.

قال أليك: «هيَّا، يا فتى. لنذهب».

سار الأدهم بسرعة منطلقاً إلى الطَّريق، ثُمَّ طفق خبباً. أداره أليك نحو البقعة التي فارق هنري فيها. فكَّر: «الأحسن أن أخلص من هذا الطَّريق بسرعة، وإلا أثاروا ضجَّةً علينا، لأنَّنا اقتلعنا الأرض!».

بعد أن ركب أليك لحوالى الدَّقائق الخمس، رأى هنري عن بعد وهو يسير نحوهما، قال هنري حين بلغه أليك: «كدت أيأس».

قال أليك: «كدت أيأس أنا أيضاً. لقد وجدته هناك عند «الحفرة».

- «يبدو كما لو أنَّه يتمرَّغ في الوحل والقذر».

فأجاب أليك: «لقد قضى وقتاً كما يشتهي، انظر إلى العقد التي على جسمه، لا بُدَّ أنَّه اخترق كثيراً من الشُّجيرات الكثيفة».

فقال هنري وهو يلمح ساعته بعينيه: «نستطيع التَّخلص من هذا كلِّه، أمَّا الآن، فعلينا أن نعود. السَّاعة التَّاسعة تقريباً».

ولأوَّل مرَّة أدرك أليك أنَّه لم يتناول طعام الفطور، وأنَّ والديه لا يعرفان أين هو. فقال: «ستتساءل أمِّي عمَّا حدث لي». لقد تأخَّر عن أوَّل فطور له في البيت!

قال هنري في كآبة: «وزوجتي لن ترحِّب بي بذراعين متلهِّفتين. وعدتها بأن أذهب للسُّوق هذا الصَّباح، لكنَّ الوقت قد فات». وثب أليك من على ظهر الأدهم وسار إلى جانب هنري، ممسكاً بلجام الأدهم. ولمَّا بلغا السَّيارة. قال هنري: «الأحسن أن نذهب عن طريق الشَّارع الذَّهبي، لنتحاشى زحام المرور. أظنُّ أنَّ عليك أن تقوده، تلك هي الطَّريقة الوحيدة».

قال أليك: «سق السَّيارة أمامي على مهل، يا هنري، لعلَّني أحتاج إليك».

مشت السَّيارة خارجةً من المنتزه وتبعها أليك والأدهم. بعد عشرين دقيقة، لم تصادفهم فيها العراقيل، قاربوا الإسطبل. وانتصبت أذنا الجواد حين رأى العنبر. هتف أليك: «لا بدَّ لي من تعلية هذا السِّياج».

فأجاب هنري: «أخشى أن الأمر كذلك، وإلا فسنقضي نصف وقتنا نطارد هذا الحصان!».

ساق هنري السَّيارة إلى الإسطبل، وتبعه أليك بالأدهم. قال: «سأضعه في حَظيرته إلى بقيَّة النَّهار، يا هنري!» أجاب هنري: «فكرة حسنة، لقد نال رياضة، تكفيه ليوم واحد، وكذلك أنا».

أجاب أليك: «وأنا أيضاً سأضعه ثُمَّ أذهب إلى البيت لآكل. سأعود فيما بعد وأنظِّفه».

- «حسناً يا بنيّ. ربَّما رأيتك». وضحك ثُمَّ قال: «إذا خرجت!» واستدار وسار نحو البيت.

وضع أليك الأدهم في حظيرته وأمرَّ خرقة على جسمه، ووضع بعض التِّبن في معلف الجواد. وقال: «هاك، سيمسكك هذا حتَّى أعود. أعقل الآن وخذ الأمر على مهلك، أليس كذلك؟».

خبط الجواد الأرض بقائمته الأماميَّة وهزَّ رأسه، فضحك أليك وقال: «الأحسن أن تكون عاقلاً. لقد سبَّبت من الإزعاج ما يكفي ليوم واحد». أغلق باب العنبر وأخذ طريقه إلى البيت.

سمع أليك السَّاعة في غرفة الجلوس تقرع النَّصف بعد التَّاسعة، عندما دخل البيت. وجاءه صوت أمِّه قلقاً من المطبخ: «أهذا أنت، يا أليك؟».

أجاب وهو يدخل الغرفة: «نعم، ماما. أبي ذهب إلى العمل؟» تجعّد أنفه حين تنشَّق رائحة الكعك والسوسج المشهية.

أجابت أمُّه: «نعم، أراد أن يراك، لكنَّه لم يستطع الانتظار، أين كنت كلَّ هذا الوقت بحقِّ السَّماء؟ وانظر إلى نفسك!!».

أجاب أليك: «كنت أدرِّب الأدهم يا أمَّاه». لم يكن يعرف أكان ينبغي له أن يخبرها عن هرب الأدهم. لقد قرَّر خلاف ذلك؛ لأنَّه إنَّما يزيد في قلقها وحسب، والآن، وقد عاد الجواد فكلُّ شيء على ما يرام.

قالت أمُّه: «إنَّك تنفق كثيراً من الوقت مع ذلك الحيوان، لا أدري ما الذي ستفعل حين ينبغي عليك الذَّهاب إلى المدرسة».

سار أليك إلى مائدة المطبخ وجلس، أحسَّ بالماء ينزل من حذائه قال: «أوه، سأفيق مبكراً كلَّ صباح يا أمَّاه وأطعمه وأحسُّه قبل أن أذهب إلى المدرسة». تحسَّس سيور حذائه تحت المائدة. محاولاً أن يخلع حذاءَه دون أن تلحظ أمُّه ذلك.

استمرَّ قائلاً: «حين يكون الطَّقس لطيفاً، فإنَّني سأتركه خارجاً ليرعى خلال الصَّباح. سأكون في الدَّورة المبكِّرة في المدرسة هذا الفصل وأسير في دروسي حسب الأصول وأخرج في النِّصف بعد الثَّانية عشرة. سيوفِّر لي ذلك كثيراً من الوقت فيما بعد الظُّهر لكي أكون معه».

خلع أليك حذاءَه وجواربه ولفَّ قدميه حول رجليِّ الكرسي.

قالت أمُّه: «لا أريدك أن تهمل دراستك يا أليك. إذا رأيتك تفعل ذلك، فسيكون لزاماً عليَّ أن أخبر أباك، وسيكون علينا أن نفعل شيئاً بشأن الأدهم».

أجاب أليك: «لن أُخلَّ بدروسي يا أمَّاه». أجاب بذلك فيما كان يضع الزّبدة ودبس الأسفندان، على الكعك الذي وضعته أمُّه أمامه. لقد جعلت الحياة تستقرُّ على شكلها الطِّبيعي المألوف مرَّة أُخرى، كأحسن ما يمكن أن تكون مع الأدهم.

* * *

(11)

الشريكان

مرَّت بقيَّة النَّهار بسرعة بالنسبة لأليك، فبعد الفطور انسلَّ إلى الطَّابق الأعلى بينما كانت أمُّه في غرفة الجلوس ولبس حذاءين غير مبلَّلين وجوارب غير مبلَّلة، حين نزل، مرَّ على أمِّه وأشركها في شذرات من تجاربه على الجزيرة وأخبرها عن عمِّه (رالف) والأُنس الذي نالاه معاً في الهند. وبعد الظُّهر حسَّ الأدهم حتَّى أخذ جسم الجواد الأسود يلمع، وارتخى عرفه الطَّويل على جيده ناعماً.

جاء هنري إلى الإسطبل. غمغم قائلاً: «كنت أنظِّف غرف المخزن» كان يحمل تحت ذراعه رزمة كبيرة ملفوفة بورق الجرائد، فوضع الرُّزمة على الأرض وقال لأليك: «تعال هنا وانظر ما وجدت».

بدأ يحلُّ الرُّزمة ركع أليك إلى جانبه. تمزَّقت الأوراق، وقد اصفرَّت لطول العهد، وتناثرت فيما راح ينزعها، كان في داخلها سرج للسِّباق وزمام. رفعهما (هنري) برفق ونظر إليهما. لم يقل شيئاً. مرَّت دقيقة ثُمَّ مدَّ يده مرَّة أُخرى. وفيما يشبه المعانقة أخرج قبَّعة جوكي وقميصاً كلاهما أخضر لامع. نظر أليك إلى الرُّزمة ورأى زوجين ناصلي اللون من بنطلونات الرُّكوب والجزم السُّود.

ارتفعت عينا هنري وتكلَّم على هون: «كلُّ شيء هنا حتَّى رقمي». أمسك القميص بيده. حول الكم، كان الرقم 3 ما يزال معلَّقاً. قال هنري: «يبدو وكأنَّه أمس وحسب أنني ارتديتها في آخر سباق ركبت فيه».

توقَّف هنري. ولم يتكلَّم أليك، كان يستطيع القول، من وجهة هنري، بأنَّه كان يحيا ذلك السِّباق من جديد مرَّة أُخرى.

قال الرَّجل الصَّغير كما لو كان يحدِّث نفسه: «ذهبنا إلى نقطة البدء. وقد تجمع أكبر جمهور رأى (البريكنس) قط. وراحوا جميعاً يراهنون على (تشانغ) فقد كان أعظم حصان في ذلك اليوم. كيف ضجُّوا بالهُتاف المدوِّي حين اصطففنا. كانت الخيول الأخرى تأبى أن تقف ساكنة. لكن لم يكن من شيء يزعج (تشانغ)، فقد ترك التململ للآخر من الخيول. لقد وقف، في هدوء، ينتظر ارتفاع الحاجز.

«لم أرَ الخيول الأخرى في ذلك السِّباق. قفز تشانغ أمامها في البدء. وقد تركته على هواه، وربحنا بأن سبقنا الآخرين». ومرَّ (هنري) بيده على عينيه وواصل الكلام قائلاً: «ولم يكن إلا حين وقف أنَّه اضطرب على حين غرَّة، وتعثَّر، وحاول عبثاً أن يظلَّ واقفاً على أقدامه، ثُمَّ هوى إلى الأرض ميتاً. لم يعرف الدُّكتور أبداً ما الذي قتله في حقيقة الأمر، لقد قال أخيراً أنَّ ما قتله كان تخثُّراً في الدَّم أو شيئاً شبه ذلك. ولم أعرف مطلقاً ما الذي ينبغي أن أصدِّقه».

فالشَّيء الوحيد الذي همَّني هو أنَّ تشانغ قد ذهب. لكنَّ الرَّقم القياسيَّ الذي سجَّله ذلك اليوم ما زال محتفظاً هناك، أسرع ما ركض جواد في أيِّ سباق».

توقَّف هنري وتوجَّهت نظراته إلى الأدهم ثُمَّ قال: «ولم أفكِّر أبداً أنَّني سأرى حصاناً يستطيع أن يحطِّم ذلك الرَّقم القياسيَّ، حتَّى رأيته الآن». امتدَّ جيد الأدهم الطَّويل من فوق باب الحظيرة وهزَّ رأسه وحمحم.

وفي عناية أعاد (هنري) القميص إلى الرُّزمة ونهض واقفاً على قدميه، وحملها إلى زاوية الجرن ووضعها داخل الصُّندوق. ثُمَّ استدار

وواجه الغلام وقال: «هناك شيءٌ واحد وحسب يقف في طريق وضعنا الأدهم في سباق يا أليك».

- «تعني لأنَّه وحشيٌّ للغاية. يا هنري؟».

- «كلا، لا أعني ذلك، حتَّى يحين الرَّبيع سيكون قد هدأ قليلاً. لكنَّني أقرأ في الجريدة. الآن، عن كيف حصلت على الأدهم. إنَّك لم تخبرني هذا الصَّباح».

- «كنت سأخبرك يا هنري، ولكن، لِمَ يقف ذلك في طريقه؟».

- «لا شيء سوى أنَّك لا تملك سجلاً بمن كان أبوه وأمُّه، وأن حصاناً ما، يا أليك يجب أن يكون نسبه مسجلاً ليشترك في سباق».

أحسَّ أليك بما يشبه المرض في معدته، لم يكن قد أدرك من قبل كم بالغ في تصوُّر المستقبل ليرى الأدهم يجري في سباق. قال: «تعني، يا هنري، أنَّ علينا أن نكشف ذلك قبل أن نستطيع وضع الأدهم في حلبه للسِّباق؟».

أجاب هنري: «أخشى ذلك، يا بني». كان في وسع أليك أن يرى أنَّه كان خائب الأمل بمقدار ما كان هو خائبه، سأل الرَّجل الصَّغير: «أليس هناك من طريقة نتمكَّن بها من الحصول على تلك المعلومات؟».

- «لا أرى كيف يكون ذلك، يا هنري. إنَّني أعرف اسم الميناء في جزيرة العرب حيث كان، لكن هذا كلُّ ما هناك. كلُّ من كان على السَّفينة غرق، وهكذا فليس هناك من سجلات نستطيع الحصول عليها».

فكَّر هنري لمدَّة دقيقة، ثُمَّ قال: «سأرسل سطراً إلى صديقٍ لي في نادي السِّباق. لعلَّه يستطيع أن يساعدنا بطريقة ما».

- «عظيم يا هنري، آمل ذلك!».

قال هنري: «لدينا الشِّتاء كلّه لنجرِّب ونكشف. لعلَّهم يستطيعون أن يتتبَّعوا نسبه من المدينة أو شيئاً ما، إنَّه يبدو كجواد أثمن من ألا يُسجَّل في مكان ما!» وسار نحو الباب ثُمَّ واصل الكلام وقال: «عليّ أن أعود الآن وإلا فإن زوجتي ستأتي إليّ».

توقَّف ووضع يده في جيبه. أخرج قطعة من الورق. وقال: «سجَّلت ما الذي تحتاجه ليأكل الأدهم، يا أليك، بعد أن تكون قد انتهيت، تستطيع الذَّهاب إلى مخزن العلف للحصول عليها. لا نستطيع أن ندع الولد الكبير يأكل كلَّ علف نابليون، كما تعلم». توقَّف وامتدَّت يده مرَّةً أخرى في جيبه وقال: «إنَّني وقد رأيت أنَّنا سنعمل معاً، فإنَّه لمن العدل أن أشارك في بعض النَّفقات، يا أليك، وهكذا أريد أن أدفع ثمن هذا».

- «لست مُلزماً بأن تفعل ذلك يا هنري. سيعطيني أبي علاوة منتظمة لقاء العمل الذي أقوم به حول البيت».

ابتسم هنري وردّ قائلاً: «بالتَّأكيد. وسنحتاج كلَّ النّقود التي نستطيع الحصول عليها، إنَّه لأمر يكلِّف مالاً أن تخلق بطلاً، كما تعلم. ولا نستطيع أن نقتّر على طعام الأدهم. لهذا ينبغي أن نعمل معاً كشريكين. هيَّا، الآن. وخذ هذه النقود واذهب بها إلى المخزن». ودسَّ هنري النُّقود في يد الغلام.

تطلَّع أليك من الركبدار العجوز إلى الجواد. وقال مبتسماً: «حسناً، أيُّها الشَّريك».

في الصَّباح التَّالي عاد أليك إلى المدرسة. هبط (هويف سامبل وبل لي) إلى جانبه فيما كان يغادر البناية في النِّصف بعد الثَّانية عشرة.

سأل هويف في هياج: «ما كلُّ هذا الذي عنك من أنَّك كنت في سفينة غارقة وغير ذلك؟» وختم بل سؤال هويف قائلاً: «نعم، قرأنا ذلك في الجريدة صباح أمس، ولقد عدت إلى البيت بحصان».

أجاب أليك: «إنَّها الحقيقة. إذا لم تصدِّقاني، فتعالا وسأريكما إيَّاه، إنَّني ذاهبٌ إلى الإسطبل الآن».

أجابا معاً: «بالتَّأكيد سنأتي».

حين بلغوا الجرن، رأى أليك هنري، هتف: «هلو!».

- «وهكذا فقد جلبت بعض المتفرِّجين، هاه يا أليك؟».

كانت عيون (هويف وبل) متَّجهة نحو الحقل الذي كان الأدهم يرتع في زاوية منه. قالا: «عظيم... وززز.».

رفع الأدهم رأسه حين سمع صوت أليك. انتصبت أذناه إلى أمام وصفَّر. فأجابه أليك بصفرة. اندفع الجواد، على حين غِرَّة نحوهم. بقي (هويف وبل) في مكانيهما مع هنري فيما سار أليك نحو السِّياج.

تردَّد الأدهم حين رأى القادمين الجدد. حمحم وخبَّ من حيث جاء منحدراً في الحقل. لم يضطر هنري إلى حثٍّ (هويف وبل) على الابتعاد من وجهه. لقد ركضا داخلَين إلى الجرين، وعيونهما متسعة من شدَّة الإثارة. قال بل بنفس مبهور: «هل رأيته؟!».

أجاب هويف: «يا الله، إنَّه أكبر حصان رأيته في حياتي!! ولكن ما ألأمه!!» وراحا يراقبان من الشُّبَّاك.

وانطلق الأدهم يخطو خطوات طويلة مزدهية وجرى نحو أليك، فيما كان يسير داخلاً في الحقل. فهتف هنري: «الأحسن أن تعود، يا أليك، إذا لم يخفِّف من سرعته فسوف يضربك».

انقضَّ الجواد على الغلام مرعداً. وعلى بعد خمس ياردات منه انحرف، بعد أن كاد يصيبه. ركض إلى السِّياج واستدار ثُمَّ جرى نحوه مرَّة أخرى. انحرف كما فعل من قبل. حذَّر هنري أليك قائلاً: «الأحسن أن تخرج من هناك، يا أليك».

هتف أليك من وراء كتفه: «إنه يريد أن يلعب لا أكثر، يا هنري. لقد كنَّا نفعل هكذا طوال الوقت على الجزيرة لكيكا».

هتف هنري: «نعم... بعد الأنس!». راح يراقب فيما كان أليك يركض وراء الأدهم حتَّى حاده إلى زاوية. شبَّ الجواد على قائمتيه الخلفيَّتين وخبط الأرض وركض إلى جانبٍ ثُمَّ إلى آخر. سار أليك إليه في بطء. وكلتا يديه منشورتان منفردتان. شخر الأدهم وعرفه الطَّويل ساقط على عينيه. وعلى حين غِرَّة ركض أليك نحوه. دار الجواد على نفسه وانطلق إلى جانب. بلغه أليك ولطمه على قوائمه فركض الأدهم إلى وسط الحقل ثُمَّ استدار ونظر وراءه، هازّاً رأسه. قال هنري لنفسه: «يا لهما من اثنين!».

كرَّ الجواد على الغلام، منحرفاً مرَّة ثانية حين أوشك أن يسحقه. ظلَّ هنري، لمدَّة عشرة دقائق، يراقب أغرب لعبة شهدها في حياته، وفي بطء بدأ يفهم التّضفاهم الغريب الذي نما بين الجواد الوحشيِّ والغلام.

بعد دقائق قليلة جاء أليك إليه. كان قميصه مبتَّلاً بالعرق وعيناه الزَّرقاوان تلتمعان بالتَّهيُّج والإثارة. غمغم قائلاً: «هل ترى يا هنري؟ لقد أراد أن يلعب وحسب! انظر إليه يا هنري – هل رأيت شيئاً عظيماً كهذا في كلِّ حياتك؟».

انطلق الأدهم يعدو خبباً، وكان يجري حول الحقل، كان عرفه يتطاير إلى الوراء في الرِّيح، وفيما اقترب منهما هزَّت خطواته القوية الأرض هزّاً.

مرق مجتازاً إيَّاهما، ولم يقل هنري شيئاً حتَّى توقَّف الجواد في الطَّريق الآخر من الحقل، وحتَّى دار على نفسه ووقف ينظر إليهما، كانت عينا هنري متألّضقتين أيضاً. وقال: «كلا، لم أرَ أي شيء مثله، ولا حتَّى تشانغ». وواصل الكلام قائلاً، بعد لحظة من الصَّمت: «كتبت إلى صديقي في نادي السِّباق أشرح الوضع وأسأله عمَّا إذا كانت هناك طريقة ما نستطيع بها أن نتثبَّت من نسب الأدهم. إنَّه أصيل إذا صحَّ حُكمي، ولا بدَّ أنَّه مسجَّل في مكان ما».

- «كم سنمضي من الوقت قبل أن يجيبك يا هنري؟».

- «لا بدَّ أنَّه سيجيب في وقت ما من هذا الأسبوع، ليخبرنا ما نفعل، على أيَّة حال».

قال أليك: «آمل ذلك، لا يمكن أن يكون ذلك كثير التَّفكير بالنِّسبة لي».

«ولا لي... أظنُّ أنَّ من الأحسن أن نجلبه الآن. لقد مضى عليه، في الخارج، وقت كاف. ثُمَّ سنجعل السِّياج أعلى قليلاً في بعض المناطق، بحيث لا نضطر إلى مطاردته خلال المنتزه، كما فعلنا أمس».

صفَّر الغلام للأدهم راكضاً نحوه، ثمَّ قبض عليه من لجامه وحكَّ أنفه. وكان يقوده نحو العنبر حين سمع شخصاً ما يهتف: «هاي، أليك، ابتعد! لا تجلبه هنا. نحن هنا» وشخر الجواد.

قال أليك: «أتعرف يا هنري؟ لقد نسيت أمر هويف وبل. إنَّهما ما زالا في العنبر... أخرجا يا رجلان. سأبقي الأدهم هنا».

خرج الغلامان، وهما خجلان قليلاً.

قال هويف: «أظنُّ أنَّ من الأحسن أن نذهب إلى البيت للغداء». وأسرعا منحدرين في طريق العربات فيما كان الجواد يحمحم في خفوت.

قال أليك، مكشِّراً: «أظنُّ أنهما يصدِّقانني الآن».

بعد العشاء في تلك الليلة ذاتها، عاد أليك إلى العنبر. كان (توني) قد أدخل (نابليون) العجوز إلى الإسطبل ليقضي الليل. رآه أليك يدسُّ أنفه الأبيض في حظيرة الأدهم ليسرق شيئاً من دخنه. عضعضه الأدهم مداعباً فسحب (نابليون) رأسه بسرعة. لم يستطع أليك أن يتغلَّب على ولع الأدهم (بنابليون). لم يعد خائفاً من تركه وحيداً الآن، فما دام الحصان الأشهب موجوداً، فقد كان الجواد هادئاً. بعد قليل، فرش أليك إسطبل الأدهم وأطفأ الأنوار وذهب إلى البيت.

مرَّت الأيَّام والأسابيع والشُّهور. وأصبحت حياة أليك من اللَّحظة التي توقظه ساعته المنبِّهة فيها في الخامسة كلَّ صباح حتَّى يغلق كتبه في الليل، منتظمة كسير السَّاعة.

كان من عادته، دائماً، في الصباح قبل المدرسة أن يطعم الأدهم ويحسُّه ويركبه حول الحقل، وإذا كان الطقس لطيفاً، تركه في الخارج، فهو يعلم بأنَّ هنري قريب منه، ليرعاه. لم يعد لديه وقت للعب، بعد المدرسة، مع الزُّملاء كما كان لديه. إنَّ أمامه أشياء كثيرة للغاية عليه القيام بها. كان يندفع إلى البيت في النصف بعد الثانية عشرة. حالما ينتهي درسه الأخير، ويتناول غداءه ثُمَّ يذهب مرَّةً أخرى إلى الإسطبل حيث كان هنري، في العادة، ينتظره.

كان هنري قد تلَّقى جواباً من صديقه في نادي السِّباق، يذكر فيه عنوان مكتبهم في أوروبا، كتب يقول: «إنَّه من المشكوك فيه للغاية ما إذا كان في وسعهم أن يساعدوك، بما أنَّ ليس لديك إلا القليل من المعلومات للاستناد إليها. وعلى كلِّ حال، أنا واثق من أنَّهم سيبذلون أقصى ما في وسعهم».

كتب هنري إليهم. وأخبر أليك: «كلُّ ما نستطيع الآن أن نفعله هو أن ننتظر ونأمل، سيستغرق ذلك وقتاً طويلاً. لكنَّ ذلك لا يمنعنا من تدريب الأدهم. أريد أن أفرض رقابة على الجواد، حتَّى لو لم نكن قادرين على إدخاله السِّباق!».

لم يحاولا أن يضعا السَّرج واللِّجام على الأدهم بعد. أراد هنري أن ينتظر حتَّى الرَّبيع. لقد أصبح الطَّقس بارداً والأرض صلبة. أخبر هنري أليك قائلاً: «إنَّ عملنا الحقيقي يبدأ في الرَّبيع، سنسير الآن بالأمور على مهلنا!» أصبحت مهارة أليك في الرُّكوب أعظم فأعظم، تحت إرشاد هنري وخبرته، حتى أومأ هنري برأسه علامة الموافقة والرِّضى. قال لنفسه فيما كان يراقب الغلام وهو يركب عالياً على عنق الجواد الذي راح يخب به في الحقل: «مزيجٌ عظيم!».

بعد انتهائه من العمل، كان أليك في العادة يقضي بقيَّة ما بعد الظُّهر يؤدِّي أعمالاً متعددة حول البيت، أعطاه والده إيَّاها. قال له والده: «عليك أن تكسب منحتك المالية».

وكان والده قد وجد كثيراً من الأشياء له، ليقوم بها، أيضاً. لم يكن أليك يعرف من قبل أنَّ هناك مثل هذه الكثرة من الأعمال للقيام بها حول بيتٍ ما، ولم ينسَ والده شيئاً.

صار المدخلان الأماميَّ والخلفيَّ يلمعان بالطِّلاء. وأصبحت أبواب الجاراج تفتح بسهولة الآن، وتبقى مفتوحة، وشعَّ السِّرداب بالنَّظافة. ولم يكن أليك يعرف من قبل أنَّ من الممكن أن تسقط مثل هذه الكثرة من الأوراق، من الأشجار، في يومٍ واحد. كان يجرف ويحرق مئات منها. وفي اليوم التَّالي تغطي السَّاحة بها مرَّة أخرى. ومع مجيء الطَّقس البارد، كان هناك النَّار التي يجب إبقاؤها موقدة

والأرمدة التي يجب رميها إلى الشَّارع. ومن حسن الحظِّ، أنَّ الثَّلج لم يسقط حتَّى الآن، رغم أنَّهم كانوا في شهر كانون الثَّاني. فلم يكن إلزاماً إزاحة الثَّلج عن المماشي والممرَّات.

وحين هطل الثلج أول مرَّة كان الأدهم يرقب الثَّلج، أيضاً. كانت عيناه متَّسعتين من الدَّهشة، وأذناه منتصبتين إلى أمام قال أليك: «هنري! انظر إلى الأدهم. هذه أوَّل مرَّة يرى فيها الثَّلج!».

غمغم هنري: «ذلك صحيح! ليس لديهم من ثلج في المكان الذي جاء منه!».

- «إنَّني أتساءل ما الذي سيكون ردُّ فعله الآن؟».

أجاب هنري: «يجب ألا نزعجه بالمرَّة». خبط الأدهم بأقدامه أرض العنبر. قال أليك: «يبدو ثائر الأعصاب للغاية».

أجاب هنري: وهو غارقٌ في التَّفكير: «نعم، ولكن ذلك لأنَّه لم يخرج» خلال نصف السَّاعة القادمة ظلَّ هنري وأليك يراقبان الثَّلج المتساقط. قال أليك: «يبدو أنَّه أخذ يتوقَّف الآن».

بعد دقائق قليلة برزت الشَّمس من الغيوم، قال هنري فيما كان هو وأليك يراقبان أشعَّة الشَّمس تلتمع على الثَّلج الأبيض «ما أجمل الجو هناك في الخارج الآن!».

استدار الغلام نحو الأدهم وسأل: «هل تظنُّ أنَّنا نجرؤ على إخراجه يا هنري؟».

نظر هنري إلى الجواد الذي كان ما يزال يذرع حظيرته وقال: «إنَّه ولا ريب يحتاج إلى الهواء يا أليك. من الصَّعب إبقاء حصان، له طبيعة هذا الأدهم، محتجزاً حتَّى لمدَّة يوم. هل تظنُّ أنَّك تستطيع تدبير أمرك معه؟».

ابتسم أليك وأجاب: «لست أخاف من أيِّ شيء مع الأدهم يا هنري – أنت تعرف ذلك».

كشَّر هنري وقال فيما هو يسير نحو العنبر.

«حسناً، أخرجه!».

حالما فتح باب العنبر، شقَّ الأدهم طريقه إلى الأمام، قبض أليك على لجامه وقال: «هوا... يا ولد!».

تحرَّك هنري نحو باب العنبر وقال فيما كان يسحب الباب إلى الوراء: «الأحسن أن نقوده قليلاً حتَّى يتعوَّد على الجو». أحجم الأدهم فشدد أليك قبضته على اللِّجام، وفي حذر قاد الجواد خارج العنبر.

كان الهواء بارداً، ساكناً. غطست حوافر الأدهم في الثَّلج. تحرَّك في حذر حول الغلام، دون أن يدع أقدامه تبقى لأكثر من جزء من الدَّقيقة في بقعة واحدة. كان الثَّلج يتطاير في كلِّ اتِّجاه، وفي بطء قاد أليك الأدهم طائفاً به السَّاحة أمام العنبر. ظلَّ الجواد يهزُّ رأسه، وكان نفسه يندفع منطلقاً من منخريه بقوَّة، مرسلاً جدولين من البخار الكثيف إلى الهواء.

ربط أليك حبل الرَّصاص إلى اللِّجام، فأعطاه مجالاً أكثر للرَّكض والجري. رسم الجواد دائرةً حوله. وعلى حين غِرَّة توقَّف، وفي حذر خفض نفسه إلى الأرض ثُمَّ تدحرج على ظهره. وخبطت أرجله متموِّجة من فوقه.

هتف أليك بهنري: «انظر إليه! إنه يحب هذا!».

بعد دقائق قليلة، نهض الأدهم على أقدامه، وأمسك أليك به من اللِّجام. ثُمَّ سأله: «هل تحبُّ ذلك، يا ولد؟» فهزَّ الجواد رأسه. ضحك أليك وأزال الثَّلج عن ظهر الجواد. وسأل: «أأركبه، يا هنري؟» أجاب هنري: «بالتَّأكيد». وسار حتَّى أصبح إلى جانب الأدهم ووضع يديه معاً. خطا أليك عليهما وامتطى الجواد.

حذَّر هنري أليك فيما قاد الأدهم إلى الحقل: «تذكَّر، كن على مهلك معه قدما تستطيع» سار أليك يمشي سريعاً وقوائم الجواد تغوص أعمق فأعمق في الثَّلج.

انحنى أليك وربَّت على عنق الأدهم. وسأله مرَّة أخرى: «أتحبُّ هذا يا ولد؟» فانحرف الأدهم قليلاً وانطلق في خبب بطيء. تركه أليك يذهب ثُمَّ أعاده إلى السَّير مرَّةً أخرى وقال: «على مهلك يا غلام».

ترك أليك، الآن، الأدهم يذهب حيث أراد، كان يعلم أنَّ الجواد كان مسروراً بالثلج. اتَّجه نحو المنخفض في الطَّرف الآخر من الحقل. كان الثَّلج أعمق قليلاً هناك. راح الجواد يخطو خطوات عالية، وارتفع ذات مرَّة على قائمتيه الخلفيَّتين. أخرجه أليك من المنخفض. وانطلق الأدهم يعدو خبباً وتركه أليك يذهب، لكنَّه شدَّ على اللِّجام يداً قويَّة. هبَّت الرِّيح الباردة في وجهه وراح الثَّلج يتطاير، حتَّى بلغا نهاية الحقل، جذب لجام الجواد فأوقفه.

بعد ساعة من الرُّكوب، رأى هنري يلوِّح له بيده أن عُدْ. أدار الأدهمَ نحو العنبر. وقال حين وصل إلى هنري: «لقد أحبَّ الثلج». غمغم هنري: «لم يكن في مثل السُّوء الذي ظننته سيكون فيه!».

نزل أليك من على ظهر الجواد وقال: «إنَّه يتصرَّف كسيّد مهذَّب أكثر فأكثر كلَّ يوم».

قال هنري: «نعم. وحين يأتي الرَّبيع، سيكون جاهزاً لنا لنبدأ العمل معه».

رجّع أليك: «الرَّبيع. ما هو بعيد، يا هنري، مجرد شهور قليلة قصيرة».

نظر الرَّجل والغلام كلاهما إلى الآخر، وكلاهما يفكِّر في الشَّيء ذاته. وتحوَّلت نظرة هنري إلى الأدهم وقال: «لعلَّ ذلك سيكون حوالى أوَّل نيسان، إذا سار كل شيء على ما يرام».

* * *

(12)

التّدريب يبدأ

راحت قدما أليك تتحرّكان تحت رحلته. تململ وقلم الرّصاص في يده. كانت الورقة أمامه بيضاء ليس فيها من كتابة. لم يكن يستطيع التّفكير في الهندسة، في وقت كهذا. اتّجهت عيناه مرّةً أخرى إلى السّاعة التي على جانب الجدار 12،30. بعد خمس عشرة دقيقة سيكون في طريقه!. تحوّلت عيناه إلى التّقويم الضّخم المعلّق فوق السّبورة. أوّل نيسان!. لقد ظلّ ينتظر هذا التّاريخ طويلاً، وها هو قد حلّ الآن. واليوم، بعد أشهر من الاستعداد والتّهيؤ، سوف يضعان السّرج واللّجام على الأدهم ويبدآن تدريبه تدريباً حقيقياً، رغم أنّه لم تصلهما حتّى الآن كلمة من أوروبا بخصوص نسب الجواد. وقد كتب هنري رسالتين أخريين في الأشهر القلائل الأخيرة.

رأى أليك المعلّم ينظر إليه، ولهذا انحطّت نظرته على الورقة أمامه. وراحت الدقائق تزحف بطيئة بطء شهور الانتظار كلّها. لم يستطع احتمال كلّ هذا أطول ممّا احتمل. إنّ عليه أن يذهب وحسب! وعلى حين غِرّة قُرع الجرس. وكحصان سباق لمسافات قصيرة وهو ينطلق قفز أليك إلى الباب. وفتحه وأصبح في الممرّ قبل أن يبدأ بقيّة تلاميذ الصّف في التّحرُّك. ركض في الصّالة، وسمع صوتاً آمراً يخبره بأن يقف، لكنّه استمر يركض. ولم يقف إلا حين بلغ الشّارع. ظلّ يركض حتّى أصبح أكثر تعباً من أن يذهب أبعد ممّا ذهب، ثُمّ تحوّل ركضه إلى مشي سريع.

اندفع إلى البيت ورمى كتبه على الكنبة. كانت أمَّه قد هيأت طعام الغداء. جلس ليأكل، لكنَّه كان منفعلاً جدّاً. تطلَّع إلى أمِّه وقال: «أنا آسف يا أمّاه، لكنَّني لست جائعاً اليوم». تطلَّعت أمُّه إليه. رأت جمرة الانفعال تلهب وجهه. سألت: «أهناك شيء هام سيحدث؟».

أجاب أليك فيما انتهى من شرب قدحٍ من اللَّبن:

«نوعاً ما، يا أمَّاه لن أعود إلى البيت حتَّى موعد العشاء. وسأتناول طعامي حينذاك». ركض خارج البيت. ووقفت أمَّه في عتبة الباب وراحت تراقبه فيما شقَّ طريقه منحدراً إلى الشَّارع.

وجد أليك هنري يسير في عصبية جيئة وذهاباً أمام العنبر. هتف به: «هلو يا هنري».

أجاب هنري وهو يخرج الغليون من فمه: «هلو يا بني. يوم دافئ لطيف يصلح للتَّدريب» وتطلَّع إلى الشَّمس عالية في الأفق فوق رأسه.

رأى أليك الجواد في الحقل فسأل: «كيف يشعر اليوم؟».

أجاب هنري: «كان دائم الحركة طوال الصَّباح. أظنُّ أنَّ الجوَّ الدَّافئ يجعله هو أيضاً يشعر بالقوَّة والنَّشاط».

راحا يُراقبان الأدهم لدقائق قليلة. ثُمَّ قال هنري: «حسناً يا بني، يحسن بنا أن نبدأ. أتشعر بأنَّك على ما يرام؟»

- «طبعاً. ما الفرق بين ركوب الأدهم وهو مسرَّج أو ركوبه دون سرج؟».

نفض هنري الرَّماد من غليونه وقال: «كلُّ شيء يعتمد على الحصان، ولكن دعنا نذهب. لقد عثرت على سرجٍ ثقيلٍ في مخزنٍ للأغراض المُستعملة في نيويورك أمس. ومع أنَّه ليس كما ينبغي، لكنَّه

سيفي بالغرض حتَّى نُدخله إلى السِّباق وحينذاك نستطيع استعمال السَّرج الخفيف». وسار هنري نحو العنبر. صفَّر أليك فرفع الأدهم رأسه وجاء، متوثباً إليه.

دسَّ الأدهم أنفه في جيب أليك الجانبي، نحَّاه أليك، معاتباً، وأخرج من جيبه قطعتين من السَّكر. وسأل الجواد: «أتريد بعض السُّكر يا فتى؟». مدَّ الجواد لسانه القرمزيَّ الطَّويل إلى يد أليك، واختفى السُّكر.

جاء هنري نحوهما حاملاً اللِّجام والسَّرج وقال: «دعنا نذهب إلى وسط الحقل حيث سيكون لدينا متَّسع من المكان».

أجاب أليك: «حسناً» راح الأدهم ينقل خطواته متواثباً إلى جانب أليك. حين أصبحا في وسط الحقل وضع هنري العنان والسَّرج على الأرض وقال: «سنجرِّب السَّرج أولاً. لا أدري ما الذي سيحدث»

وقف أليك عند رأس الأدهم، وقد شدَّ قبضته على الزِّمام، وأخذ هنري السَّرج في ذراعيه واستدار إلى الجانب الأيسر من الجواد. رأى أليك عيني الأدهم تتجهان نحو هنري. استشعر بأنَّ شيئاً ما سيحدث وتحرَّك في قلق. ربته أليك وتكلَّم في أذنه.

قال هنري: «أمسكه الآن يا بني».

شدد أليك قبضته على الزِّمام، ورفع هنري السَّرج على ظهر الأدهم ووضعه على الجواد في رفق. لم تُتَح له الفرصة لكي يقبض على البزيم. فارتفعت قوائم الجواد الخلفية في الهواء وانقذف السرج أرضاً. ودار الجواد عصبياً في دائرة، وأشغل أليك يديه في محاولة للتشبث به. التقط هنري السرج واتَّجه به نحو الأدهم مرَّة ثانية، قال من خلال أسنانه التي شدد عليها: «لن يكون هذا سهلاً. أمسكه مرَّة أخرى يا أليك!».

ومرَّة أخرى وضع هنري السرج على الجواد، ومرَّة أخرى طار في الجوِّ. وقال فيما التقطه: «إنَّه لا يعطيني فرصة لشدِّ البزيم».

مرَّت خمس عشرة دقيقة ولم ينجحا في وضع السرج على الأدهم. كان هنري وأليك متعبين كلاهما، لكنَّ الجواد لم يكن متهيِّجاً إلى الحدِّ الذي توقَّعه أليك، وقال هنري: «إنَّه يُعاند وحسب».

لم يكن الأدهم ليسمح للسَّرج بالبقاء على ظهره مدَّة تكفي هنري لإدخال شرائط الشَّدِّ خلال الأبازيم، قال: «لو أنَّني استطعت فقط إدخال الشَّرائط بطريقة ما وشددت ذلك السَّرج عليه!».

فكَّر أليك لمدَّة دقيقة وقال: «لعلَّنا نستطيع أن تفعل ذلك يا هنري. هات قطعتين من ذلك الحبل القوي من العنبر. واربط كلَّ قطعة إلى شرائط الشَّدِّ. وحينذاك سأمسك بالسَّرج من فوقه ولكن ليس عليه. وتستطيع أن تسحب الحبل خلال الأبازيم إلى الحدِّ الذي تستطيع.

ثُمَّ، حين تقول الكلمة أستطيع أن أخفض السَّرج وفي الوقت نفسه. تسحب الشَّرائط خلال الأبازيم. سيكون عليك أن تعمل بسرعة».

قال هنري: «قد تنجح وكلُّ شيء يستأهل التَّجربة الآن». ذهب إلى العنبر وعاد بالحبل. أشغل نفسه بالحبل والشَّرائط بضع دقائق. وقال أخيراً: «حسناً».

اقترب أليك من جانب الجواد أكثر. ربّت عنقه ثُمَّ تناول السَّرج الذي أعطاه هنري إيّاه وأمسك به فوق الجواد. وتساقطت الشَّرائط والحبل على الجانب الأيمن من الجواد. ورأى أليك، من زاوية عينيه، هنري يسحب الحبل تحت الأدهم ويجذبه خلال الأبازيم. والأدهم يتحرَّك في عصبيَّة حول نفسه. وقال أليك: «هوا... يا ولد». خفض السِّرج كأقرب ما يكون من ظهر الجواد، بحيث استطاع هنري أن يوصل الشَّرائط إلى أقرب ما يستطيع من الأبازيم.

سأل أليك: «كلُّ شيء مرتب، يا هنري؟».

جاء الجواب: «ثانية واحدة فحسب».

كان الأدهم ينظر إلى الأمام حتَّى نهاية الحقل. قال هنري بصوت خفيض: «حسناً، الآن».

وبسرعة وضع أليك السَّرج على ظهر الأدهم. شبَّ الجواد على قائمتيه الخلفيَّتين ووثب أليك إلى جانب، كان هنري قريباً من الأدهم بصورة خطرة. وكانت يداه تجذبان بشكل محموم، الشَّرائط خلال الأبازيم.

رآه أليك يسحب سحبة نهائيَّة، ثُمَّ رمى نفسه مبتعداً عن سنابك الأدهم الخابطة. هتف: «فعلتها ابتعد عن طريقه!».

شبَّ الجواد على قائمتيه الخلفيتين مرَّة أخرى. ثُمَّ انطلق راكضاً في الحقل حائداً ورامياً قائمتيه الخلفيَّتين في الهواء. حاول محاولة يائسة أن يتخلَّص من السَّرج. راقبه أليك وهنري فيما راح يضرب دائراً حول الحقل. شبّ الأدهم، على حين غِرَّة، شبوباً عالياً على قائمتيه الخلفيَّتين، ثُمَّ وقع على ظهره. سمعا السرج ينكسر.

قال أليك: «ها هو ذا يذهب!».

أجاب هنري: «إذا لم يتخلَّص منه، فإنَّ ذلك يستأهل العناء!».

وقف الأدهم، أخيراً، على أقدامه. كان السَّرج ممزَّقاً محطَّماً لكنَّه ما زال على ظهره. مرَّة أخرى انطلق الجواد يعدو في الحقل. وعيناه المتوهِّجتان تتحرَّكان من جهة إلى أخرى. فيما اقترب منهما، صفَّر أليك. مرَّ الجواد يجتازهما خاطفاً. صفَّر أليك مرَّة أخرى. فوقف الأدهم على حين غِرَّة. وشبَّ على قائمتيه الخلفيَّتين نصف شبَّة، ثُمَّ استدار راجعاً.

انتصبت أذناه إلى أمام ووقف ساكناً لبضع دقائق. ثُمَّ انطلق مرَّة أخرى، منحدراً في الحقل، ينحرف من جهة إلى أخرى ويرفس.

قال أليك: «كان حسناً أنَّك استطعت أن تحكم شدَّ السَّرج يا هنري» أجاب هنري، وعيناه ما زالتا تتبعان الأدهم: «نعم».

صفَّر أليك مرَّة أخرى حين عاد الجواد إلى الحقل. وقف الأدهم على بعد حوالى ثلاثين قدماً منهما. سار أليك، في حذر، نحوه.

قال: «ما القضيَّة يا ولد؟ مذعورٌ من السَّرج على ظهرك؟».

استدار الجواد وظنَّ أليك أنَّه سيعدو في الحقل مرَّة أخرى. لكنَّه، بدلاً من ذلك، دار على نفسه ثُمَّ وقف ساكناً. وضع أليك يده في جيبه وأخرج بعض السُّكر. مدَّها نحو الأدهم قائلاً: «هاك يا ولد». وفي بطء سار إليه وأعطاه السُّكر. ربَّت على العنق الطَّويل النَّحيف وقال: «ستتعوَّد عليه يا رجل».

رأى أن السرج كان متلفاً إلى حدٍّ كبير لكنَّه ما يزال صالحاً للاستعمال. هتف هنري: «سر به لبضع دقائق، يا أليك».

قبض أليك على زمام الأدهم وبدأ يسير به في الحقل، راح الجواد يخطو بخفَّة وهو يرمي، بين الحين والآخر، قائمتيه الخلفيَّتين في الهواء. بعد عشر دقائق، قاده أليك عائداً به إلى هنري، قال: «إنَّه ليس في حالة سيِّئة الآن».

قال هنري: «اقفز عليه إذن، ودعنا نرى ما يحدث».

أجاب أليك وهو يتحرَّك نحو الجانب الأيسر من الجواد: «حسناً».

ساعد هنري الغلام على الارتفاع، بيده، فاستقرَّ هذا على السَّرج، وبعد أقلِّ من ثانية وجد نفسه يطير في الهواء، اندفعت

الأرض مرتفعة نحوه وكأنَّها تتلقَّاه. استطاع أليك أن يجعل قدميه تحته فأفسد سقطته. اضطجع ساكناً للحظة من الزَّمن وجسده يتوجَّع. اندفع هنري نحوه وجثا إلى جانبه وسأله بلهفة وقلق: «أأوذيت، يا بني؟».

- «أظنَّ أن لا يا هنري. لكنِّي مزعزع قليلاً وحسب».

أمر هنري أنامله على رجليِّ أليك وقال: «حاول أن تنهض على قدميك».

تحامل أليك على نفسه ناهضاً. كان غير ثابت في وقفته للحظة من الزَّمن، ثُمَّ بدأ رأسه يصفو. رأى الأدهم على بعد أقدام قليلة منه. نظر الجواد إليه ثُمَّ تقدَّم نحوه ودفع أنفه إلى جيب أليك الجانبي. قال أليك: «يبدو كما كان في السَّابق على الجزيرة».

والتفت إلى هنري قائلاً: «لماذا يا هنري، بحقِّ الشَّيطان، يرميني لمجرَّد أنَّ هناك سرجاً على ظهره؟».

أجاب هنري: «أظنُّ أنَّ ذلك مجرَّد شيء من تلك الأشياء، يا أليك. إنَّك لا تعرف كيف يتصرَّف حصان كهذا!. إنَّه لمَّا يتعوَّد على السَّرج، ولا أعتقد أنَّه كان يعرف أنَّك على ظهره. كلُّ ما كان يستطيع الإحساس به هو ذلك الثِّقل الإضافي. والآن تحدَّث إليه كما اعتدت دائماً من قبل. دعه يعلم أنَّك ستمتطيه. أظنُّ أنَّنا تسلَّلنا إليه نوعاً ما. دعه يحسُّ بذراعيك ورجليك».

قال أليك: «حسناً». ومرَّة أخرى اتَّجه أليك نحو الجانب الأيسر من الأدهم.

سأله هنري: «أمتأكِّد أنَّك تشعر بأنَّك على ما يرام؟ أتريد أن تنتظر بضع دقائق؟».

أجاب أليك: «كلا». نظر إلى الجواد وأمسك بالزِّمام بيديه كلتيهما وقال يخاطب الجواد: «والآن، اصغ يا رجل. على مهلك!» هزَّ الجواد رأسه فكاد يقتلع أليك من على قدميه».

خطا أليك إلى ذراعيٍّ هنري الممدودتين. وظلَّ يتكلَّم في أذن الأدهم، بينما راحت يده تمرُّ على عنق الجواد جيئةً وذهاباً. ثُمَّ كان في السَّرج. شبَّ الأدهم على قائمتيه الخلفيَّتين، لكنَّ أليك كان متهيِّئاً هذه المرَّة. ارتفع مع الجواد عالياً في الهواء وإحدى يديه تتشبَّث بعرف الأدهم والأخرى باللِّجام. هبط الجواد واندفع عبر الحقل. اتَّكأ أليك إلى الأمام وظلَّ يتحدَّث إليه. لم تخفَّ سرعة الجواد وظنَّ أليك أنَّه كان يركبه ركوباً آخر كالذي حدث على الجزيرة. وعلى حين غِرَّة وجد أنَّه كان قادراً على أن يقود الجواد، لقد سيطر عليه. استدار به بعيداً عن الحاجز وصعد في الحقل مرَّةً أخرى. اجتاز هنري بسرعة وهتف أليك: «عظيم!». لم يكن لدى الجواد مجال كافٍ ليركض كأسرع ما يريد. وبعد فترة قصيرة استطاع أليك أن يخفِّف من سرعته حتَّى أوقفه قرب هنري.

قال هنري: «جولةٌ لطيفة، يا أليك»، وقبض على زمام الأدهم وواصل الكلام: «سنضع اللِّجام عليه في هذه اللحظة».

- «لكن ألا تظنُّ أنَّه متعب نوعاً ما، يا هنري؟».

أجاب هنري: «ذلك أحد الأسباب التي تجعلني أقوم بذلك الآن. وفوق ذلك، لا أظنُّ أنَّه سيكترث بمقدار ما اكترث للسَّرج. إنَّ فيه قطعة خفيفة الانزلاق، وهو ليس أكثر من الزِّمام الموضوع عليه الآن».

قال أليك: «أنت الرئيس يا هنري. كيف سنقوم بذلك؟».

- «ابق أنت على ظهره وسأفتح أنا فمه، ثُمَّ تستطيع أن تسحب اللِّجام على رأسه».

- قال أليك فيما تحرَّك هنري أمام الأدهم: «حسناً».

- أولجت يدا هنري الخبيرتان العليكة في فم الأدهم خلال بضع دقائق. وبسرعة جذبها أليك فوق أذني الجواد ودفع الشَّريط خلال الإبزيم. هزَّ الأدهم رأسه وتحرَّك في قلق دائراً حول نفسه. تركه أليك وشأنه، لمدَّة خمس عشرة دقيقة ترك الأدهم يتعوَّد على العليكة، ثُمَّ قاده منحدراً في الحقل. وفي عناية وفي نفس الطَّريقة التي كان يتَّبعها على الجزيرة، علِّم أليك الأدهم أن يستدير يميناً وشمالاً بمجرَّد لمسة طفيفةٍ من العنان على رقبته. لم يكن هناك كبيرُ فرق بين طريقة أليك القديمة وبين استعمال الأعنَّة، وقد تعلَّمها الأدهم بسرعة.

عاد أليك، راكباً، إلى هنري وترجّل ابتسم هنري وقال: «ذلك يا أليك هو ما أدعوه عملاً موفَّقاً ليومٍ واحد!».

أجاب أليك: «بالتَّأكيد، يا هنري». حكَّ أليك أنف الأدهم. وقال مزهوّاً: «إنَّك في تقدُّم، يا ولد».

كانت الشَّمس تختفي وراء ناطحات سحاب (مانهاتن) في المدى البعيد فيما أخذ الرَّجل والغلام والحصان طريقهم إلى العنبر.

* * *

t.me/ktabrwaya مكتبة

(13)

ركوبٌ في الليل

لمح أليك ساعته اليدويَّة بعينه وهو يسرع بمغادرة البيت الذي ما يزال مظلماً، وأمُّه وأبوه نائمان. السَّاعة الواحدة. لقد مضى أسبوعان منذ أن ذلَّل مع هنري الأدهم باللِّجام والسَّرج. كان البدر عالياً في السَّماء. وكانت النُّجوم متناثرة. وهبَّت على وجهه نسمة دافئة من نسمات الرَّبيع. إنَّ هنري في انتظاره.

بلغ البوَّابة ثُمَّ دخل. كانت سيَّارة الشَّحن التي استعارها هنري تقف إلى جانب العنبر. وكان هنري يتَّكئ عليها.

همس أليك: «أكلُّ شيء على ما يرام، يا هنري؟».

وجاء الجواب الهادئ: «كلُّ شيء على ما يرام». فتح باب العنبر في حذر، لئلا يصدر عنه أي صدى. وقال من وراء كتفه، وقد تبعه أليك إلى الدَّاخل: «لا تضئ النُّور».

صهل الأدهم حين سمعهما. مدّ (نابليون) العجوز رأسه من الحظيرة وصهل أيضاً.

قال أليك وهنري معاً: «ش ش ش».

قال هنري: «اذهب إلى هناك وهدِّئه. سأجلب الأغراض».

وضع أليك يداً على كلِّ أنف من أنفيهما وقال: «على مهلكما أيُّها الغلامان. لا نريد أن نوقظ أحداً، كما تعلمان».

ميَّزه الحصان الآن في ضوء القمر. هزَّ الحصان رأسه برفق، ولفَّ (نابليون) لسانه الطَّويل حول يد الفتى.

عاد هنري حاملاً اللِّجام والسَّرج. قال: «حسناً. أخرجه». قاد أليك الأدهم خارج الحظيرة، دون أن يزيح دثاره. خطا الجواد في تهيُّب، وسنابكه تهزُّ أرض العنبر هزّاً.

واصل هنري الكلام قائلاً: «يا أليك، حاول أن توقفه ساكناً. سيوقظ زوجتي بكلِّ تأكيد!».

أجاب الفتى: «سأحاول، يا هنري. يبدو ثائر الأعصاب للغاية، أظنُّ أنَّه غير معتاد على أن يُوقظ في منتصف الليل!». تلفَّت الأدهم وراءه إلى (نابليون) وحمحم فيما قاده أليك نحو باب العنبر، ثُمَّ أغلق هنري الباب وراءهما.

صهل نابليون داخل العنبر على حين غِرَّة، أعلى ممَّا سمع أي منهما صهيلاً منه قبل هذا.

قال هنري فيما ركض نحو العنبر: «يا إلهي! لن نخرج من هنا دون أن نوقظ أحداً!».

رفع الأدهم رأسه عالياً في الهواء، وأذناه منتصبتان إلى الأمام، وأجاب نداء (نابليون). نظر أليك إليه ثُمَّ إلى العنبر.

قال: «هنري».

- «نعم».

- «لديَّ فكرة. لماذا لا نأخذ نابليون معنا. إنَّ سيَّارة الشَّحن تتسع لكليهما وإنَّ لديَّ شعوراً بأنَّ ذلك سيجعل الأدهم أسهل كثيراً لدى تداوله، بالإضافة إلى جعله أهدأ كثيراً».

نظر هنري نظرة تفكير إلى الجواد القلق. قال أخيراً: «حسناً. إنَّه أمرٌ يستأهل التَّجربة». بعد دقيقة قاد (نابليون) نحو سيارة الشَّحن.

صهل الأدهم برفق حين رآه. ولم يعان أليك مشقَّة في إيصاله إلى داخل سيَّارة الشَّحن عن طريق العارضة الخشبيَّة. وتبعه هنري يقود (نابليون). قال هنري: «والآن، ليس علينا أن نُعيد هذه السيَّارة إلى الشَّاب الذي استعرتها منه قبل السَّادسة وحسب، وإنَّما علينا أن نُعيد نابليون إلى توني كذلك!».

قال أليك: «إنَّها الواحدة والنِّصف الآن».

قال هنري: «علينا أن نكون هناك في الثَّانية». وتسلَّق هنري إلى مقعد السَّائق وجلس أليك إلى جانبه. بعد دقيقة كانت سيَّارة الشَّحن تتحرَّك هابطة في الطريق المعدِّ للعربات. وكان لا يأتي من مؤخرة سيَّارة الشَّحن سوى صوت سنابك الجواد.

ساق هنري الجواد بسرعة خلال الشَّوارع المعتمة. وبعد نصف ساعة وقفا أمام بوَّابة حديديَّة عالية. لمس المزمار لمسة خفيفة مرَّتين. وعلى الباب قرأ أليك الاسم (بلمونت). واجتذبت عينيه لمحةٌ من البياض. قبضت على القضبان يدان، وأطلَّ من خلالهما رأسٌ مجلَّل بشعر أبيض كالثَّلج. وسأل صوت عجوز عالي النَّبرة: «أهذا أنت يا هنري؟».

استند (هنري) على جانب السيَّارة وقد أخرج جسمه. أجاب برفق: «نعم يا جاك، إنَّه أنا. أكلُّ شيء على ما يرام؟».

جاء الجواب: «على ما يرام».

سمع أليك جلجلة المفاتيح، ثُمَّ دوران القفل. بعد لحظة انفتحت البوابة مشرعة.

حرّك هنري السَّيارة وساقها خلال البوابة. وأُغلقت البوابة خلفه. ولم يقف هنري، ساق كما لو كان يعرف طريقه.

سأل أليك: «من كان ذلك يا هنري؟».

أبقى هنري عينيه على الطَّريق المعبَّد أمامه، لكنَّ أليك لاحظ ابتسامةً طفيفةً على شفتيه حين أجاب: «ذلك جاك. لقد كنَّا زميلين منذ عهدٍ بعيد». ثُمَّ غمغم مكشِّراً: «الحقُّ أنَّ جاك علَّمني أن أركب الخيل. كنت مجرَّد فتى صغير يحبُّ الخيول ويريد أن يركبها، لكنَّي لم يسبق لي أن كنت على ظهر حصان. كان من عادتي أن أذهب لمشاهدة أعمال التَّدريب في الصَّباح الباكر، وأنا أحلم باليوم الذي سأخرج فيه هناك على صهوة جوادٍ أصيلٍ. وكان (جاك) خيالاً معروفاً آنذاك. وأظنُّ أنَّني كنت أعتبره مثلاً أعلى نوعاً ما، ولكن جميع الصِّبية كانوا يفعلون ذلك. على كلِّ حال، علَّمني كلَّ ما أعرفه الآن تقريباً. وإذا كنت ناجحاً، فهو سبب ذلك النَّجاح. انتقل (جاك)، فيما بعد، إلى تدريب الخيول وهو الآن في حال طيِّبة نوعاً ما، مُتقاعد، كما أظنُّ أن في الوسع تسميته».

توقَّف هنري عن الكلام وانحرف إلى زاوية. في عناية ومهلٍ. ثُمَّ استمرَّ قائلاً: «أتعلم، يا أليك، إنَّ الخيول مثل البحر نوعاً ما، ستكتشف ذلك حالما تتعوَّد عليها وتتعلَّم أن تحبَّها، فلن تستطيع التخلِّي عنها. هكذا جاك وهكذا أنا. إنَّ جاك مجرَّدْ حارس هنا الآن، لكنَّه يحبُّ عمله. هناك خيول تتدرَّب هنا، معظم أوقات السَّنة، وسيفتح السِّباق قريباً جدَّاً ولهذا فهو راضٍ قانع».

أوقف هنري سيَّارة الشَّحن بجانب ساحة السِّباق سأله أليك: «أأنت متأكَّد من أنَّه لا يوجد أحدٌ هنا، يا هنري؟».

أجاب هنري: «بالتَّأكيد. ليس هنا إلا خيولٌ قليلةٌ تتدرَّب، وجاك يحرسها، وهكذا فالمكان، في الواقع، تحت تصرفنا».

كان هنري قد وقف إلى جانب رصيف لتفريغ الشَّحن. قفزا من السَّيارة واتَّجها نحو الباب الخلفيِّ ليفتحاه. حمحم الحصانان فيما تسلَّق أليك داخلاً إلى جانبهما. رمى الجواد رأسه إلى الوراء وقطع الحبل المشدود إلى سيَّارة الشَّحن.

قبض عليه أليك من الزِّمام وقال: «هوا، يا ولد، على مهلك». صار وراء الأدهم ودفعه حتى أخرجه إلى الرَّصيف ثُمَّ أنزله إلى الأرض.

وتبعه هنري بنابليون، قال: «سيكون أمراً حسناً أن نُبقي نابليون بحيث يستطيع الأدهم أن يراه. والآن، الأحسن أن تمشي بالأدهم جيئة وذهاباً مرَّات قليلة؛ لتبرأ رجلاه من الجلوس».

قال أليك: «حسناً».

بعد دقائق قليلة، حين سار بالأدهم عائداً، نحو سيَّارة الشَّحن، سمع صوتَ (جاك) العجوز ذا النبرة العالية مرَّة ثانية، ورأى الرَّجل ذا الشَّعر الأبيض يتحدَّث إلى هنري: «بحقِّ السَّماء، يا هنري، لا تخبرني بأنَّ ذلك الجواد المزيف الواقف هناك هو البطل الذي أجازف بعملي من أجله!».

ضحك هنري وقال: «بحقِّ السَّماء عليك يا جاك، لا تقفز إلى الاستنتاجات بهذه السُّرعة، لم ترَ الشَّيطان الأشهب يركض، بعد».

أجاب جاك: «لقد مضى عليَّ من الزَّمن وأنا أعمل هنا، يا ولدي، أكثر من أن تجعلني أعتقد بأنَّ هذا العجوز يستطيع أن يفعل غير أن يقطع ساحة السِّباق ماشياً وحقَّ السَّماء!».

لم يستطع أليك أن يمنع نفسه من الضَّحك. سمعه (جاك) فالتفت. ثُمَّ رأى الأدهم فانفتح فمه واسعاً وفي بطء سار نحو الجواد. شبَّ الأدهم على قائمتيه الخلفيَّتين قليلاً، لكنَّ أليك هدَّأه فهبط. دار (جاك) وعيناه تنفضان كلَّ شبر من الأدهم.

جاء هنري إليه وقال بعد دقيقة من الصَّمت: «حسناً، يا جاك، ماذا تظنُّ به؟»

تطلَّع جاك إليه وقال: «لقد كنتَ على صوابٍ بالتَّأكيد، يا هنري. إنَّ لديك حصاناً حقيقيَّاً هنا».

سأله هنري مبتسماً: «يستأهل المُجازفة بعملك من أجله؟».

أجاب العجوز مؤمناً على قوله برأسه: «يستأهل المجازفة بعملي من أجله». واستمرَّ يقول: «لم أرَ حصاناً مثله، منذ تشانغ».

قال هنري: «هذا بالضَّبط هو ما أخبرتك به». وغمز لأليك ثُمَّ قال: «أقدِّم لك صاحب هذا الجواد الأدهم، أليك رامسي، أليك هذا جاك».

صافح أليك يد العجوز مصافحةً حارَّةً، ودُهش من القوَّة التي في أصابع جاك. قال جاك: «مسرور بمعرفتك يا بنيّ».

أجاب أليك: «أنا سعيدٌ بأن أعرفك، يا سيِّدي، كان لطيفاً منك للغاية أن تدعنا ندخل هنا، هنري وأنا نقدِّر ذلك بالتَّأكيد».

أجاب جاك: «يسرُّني أن أفعل ذلك. أظنُّ أنَّ هنري يعرف نقطة ضعفي. حين قال أنَّ لديك جواداً بطلاً، كان لا بدَّ لي من أن أرى بنفسي».

ضحك هنري قائلاً: «إنَّك لن تتغيَّر، يا جاك».

غمغم العجوز مكشِّراً: «أخشى ذلك».

طوَّح الأدهم برأسه وبعثر نسيم الليل عرفه، قال أليك: «إنَّه يتلهَّف للانطلاق».

قال هنري: «حسناً، سأجلب السَّرج». وتحرَّك نحو سيَّارة الشَّحن وقال من وراء كتفه: «البث قريباً يا جاك وسترى أسرع شيء يجري على أربع أرجل».

أجاب جاك: «لا تقلق لست ذاهباً». والتفت إلى أليك وقال: «تعال يا بنيّ، سننزل به قرب البوَّابة».

بعد دقائق قليلة جاء هنري ورمى السَّرج فوق الأدهم. تخطَّر الجواد في سهولة، ثُمَّ شبَّ على قائمتيه الخلفيَّتين قليلاً حين شدَّ هنري الرِّباط ووضع هنري وجاك اللِّجام عليه.

قال هنري، حين انتهيا: «كلُّ شيء تَمَّ» والتفت إلى أليك وقال: «والآن... الفكرة الليلة، يا ولد، هي أن نعوِّده على ساحة السِّباق. لحسن الحظِّ أنَّ هناك بدراً بحيث أنها ليست مظلمة هناك، ولا أظنُّ أنَّ الرؤية ستكون صعبة. أبقه مُسيطراً عليه غاية ما تستطيع. جرِّب ألا تدعه يتصرَّف وفق هواه حتَّى يأتي إلى الطريق المُفضي إلى البيت، حينذاك سيكون كلُّ شيء على ما يرام. دعه يخرج لمسافة بضع مئات من الياردات، لقد مضت عليَّ مدَّة طويلة وأنا أنتظر هذا! قبل أن تبدأ سر به جيئة وذهاباً. فهمت؟».

أجاب أليك: «نعم».

كان جاك مستنداً إلى الحاجز، ورأسه أبيض متَّكئ إلى الدَّربزين، وعيناه على الجواد، تحرَّك قليلاً ورأى أليك ومضة فضيَّة في يده. فعرف أنَّ جاك كان يُمسك بساعة للسِّباق. رفع هنري أليك على ظهر الأدهم وسوّى ركاب السَّرج. وصلت ركبتاه إلى ذقنه فيما جلس

القرفصاء على سرج السِّباق الصَّغير كفارس محنَّك. تحرَّك الجواد في قلق. قاده هنري إلى ساحة السباق.

قال: «حسناً يا بني، سِر به جيئة وذهاباً أولاً».

خطا الأدهم بسرعة على التُّراب النَّاعم، ورأسه مرتفع، وعيناه تلمحان من جانب إلى جانب. مدَّ أليك يده وربَّت عنقه. وغمغم: «على مهلك يا رجل».

أراد الجواد أن يركض فانشغلت يدا أليك في إبقائه يسير سيراً. ذهب به إلى أوَّل عطفة ثُمَّ عاد به. كان الليل دافئاً. وفيما بلغا هنري خلع أليك السُّترة ورمى بها إلى هنري قائلاً: «أحفظ هذه حتَّى أعود». وسار بالأدهم بضع ياردات مجتازاً إيَّاهما.

قال فيما استدار بالأدهم رأساً على عقب. «ها هو ذا يذهب».

شبَّ الجواد على قائمتيه الخلفيَّتين فتشبَّث الغلام بعنقه، وقميصه الأبيض يلوِّح بحيويَّة إزاء جسم الأدهم، ثُمَّ اندفع الجواد إلى أمام، شدَّ أليك الأعنَّة وكبح من جماح الجواد. انحدرا في ساحة السِّباق، وخطوات الجواد العملاقة تبتلع الياردات واحدة بعد الأخرى. كان أليك، وهو عالٍ في الرِّكاب، يتعلَّق واطئاً إلى جانب عنق الأدهم. كانت الرِّيح تهبُّ في وجهه، وتدفقت الدُّموع منحدرة على خديه. استدار حول العطفة الأولى وصارا في الامتداد الخلفي. أبقاه أليك قريباً من السياج الأبيض. ما زال كابحاً لجماح الأدهم، لكنَّه لم يسبق له أن انطلق سريعاً كهذه السُّرعة، إلا على الجزيرة.

أحبَّ الجواد ذلك وكافح ليحرِّر رأسه من شدَّة العنان. حاول أليك في جنون أن يحدَّه لكنَّ الجواد، في منتصف الطَّريق إلى الامتداد الخلفيِّ، أخذ العليكة في أسنانه واختطف الأعنَّة من سيطرة

الغلام عليها. مرَّة أخرى كان متوحشاً وحُرّاً. جذب أليك الأعنَّة المرتخية بكلِّ قوَّة. لكنَّ الأدهم راح يجري أسرع فأسرع. لم يستطع أليك أن يرى شيئاً بعد. كانت الرِّيح تسوطه كأنَّها إعصار، فمزَّقت قميصه إلى شرائط.

فيما دار حول العطفة البعيدة، اعتدل الغلام في السَّرج. وبحكم الغريزة تشبَّث بعرف الأدهم الطويل وظلَّ كذلك، متشبِّثاً بالحياة العزيزة. أرعد الجو بحوافره ودخل في الطَّريق المفضي إلى البيت، كانت أرجله تخبط في العشب، خطفا مجتازين هنري وجاك ثُمَّ دارا حول العطفة الأولى مرَّة أخرى ثُمَّ إلى الامتداد الخلفيِّ من جديد.

كان أليك يكاد يكون غير واعٍ. حاول أن يفكِّر. عليه أن يوقف الأدهم. شدَّ على الأعنَّة في يأس. لكنَّهما مرّا بهنري يجتازانه بأسرع من ذي قبل. كان الجواد، مرَّة أخرى، سيِّد نفسه، جارياً كما ولد ليجري.

لم يحسّ أليك بالأدهم يبطئ قليلاً وحسب، إلا حينما كانا في منتصف الامتداد الخلفيِّ مرَّة أخرى. تكلَّم أليك في أذنه. وأرخى يداً من العرف وفرك عنق الجواد. عندئذ راحت سرعته تقلُّ تدريجيّاً. وحين اجتازا هنري للمرَّة الثَّالثة، كان أليك قد أوشك أن يسيطر عليه. استطاع أن يخفِّف سرعته بعد العطفة الأولى، وفي الامتداد الخلفي كان أليك قد أوقفه أخيراً.

أداره رأساً على عقب. صفَّر الأدهم وهزَّ رأسه. كان يتنفس في ثقل، وكانت رغوة بيضاء تكسو جسمه الأسود.

راح يخطو بخفَّة في ساحة السِّباق متَّجهاً نحو هنري، بعد دقائق ركض هنري وجاك إليه، في ضعف، من السَّرج. أخذ هنري الأعنَّة كانت متصلِّبة رطبة بالدَّم.

نظر إلى يدي أليك الدَّاميتين، وأعطى الأعنَّة لجاك ووضع ذراعه حول الغلام ليسنده وقال: «على مهلك يا بني».

قال أليك: «إنَّني في خير حال، يا هنري. إنَّني مجرد دائخ قليلاً».

قال هنري: «لا بدَّ أن تكون كذلك، بعد ذلك الرُّكوب».

وقال جاك: «لن يكون أحد قادراً على السَّيطرة على هذا الحصان حالما يصبح سيِّد نفسه. فالشَّيء الوحيد هو أن تفعل ما فعلت، ان تتشبَّث به وتنتظر حتَّى يتعب».

قال أليك في عزم وتصميم: «سأسيطر عليه، في يومٍ من الأيام».

صار يحسُّ بأنَّه أحسن، الآن. كانت القوَّة قد أخذت تعود إلى جسمه وبدأت الأرض تستقرُّ في عينيه. أدار الجواد رأسه نحوه، وأذناه منتصبتان إلى الأمام، وصهل على مهل. دسَّ أنفه في جسم الغلام.

وضع أليك يداً ملفوفة في منديل، على البوز النَّاعم. وقال: «لا يمكنك أن تلومه يا هنري. إنَّه أوَّل مرح حقيقيٍّ يناله خلال وقت بعيد جداً. إنَّ عليَّ أن أتعلَّم البقاء على ظهره والتمتع معه بالرُّكوب. ذلك كلُّ شيء!».

ساروا خارجين من ساحة السِّباق وأليك يقود الأدهم. لم يتكلَّم أحد مرَّة أخرى حتَّى بلوغ سيَّارة الشَّحن. كان (نابليون) يقف هناك مربوطاً إلى جانب السَّيارة. رفع رأسه العجوز الأشهب في حذر. قاد أليك الأدهم إليه ووضعا رأسيهما معاً. والجواد يخفض رأسه طائعاً.

التفت هنري إلى جاك وقال: «إنَّ عليك أن تقرَّ بأن ليس هناك من حصان في البلد يستطيع الاقتراب منه».

نظر جاك إلى السَّاعة في يده وأجاب: «كلا. لم أسمع بأي حصان يفعل ما فعله الليلة، واريدير، وسيلون قد يتسابقان معه، لكنَّه سيتغلَّب عليهما إذا ركض».

سأله هنري: « ماذا تعني، إذا ركض؟».

أومأ جاك برأسه نحو الأدهم وقال: «لو أنَّه درج على نفس ساحة السِّباق مع تلك الخيول، فلن يكون ثمَّة أيٌّ سباق. ذلك الحصان سيريد أن يقاتل، لا أن يركض. فهو يتوحَّش حين تأتي. من أين حصلت عليه، يا بني؟».

نظر أليك إلى هنري، الذي أومأ برأسه. أخبر أليك جاك باختصار كيف حصل على الأدهم.

وحين انتهى قال جاك: «قصَّة عجيبة، يا بني». ثُمَّ التفت إلى هنري وسأله: «كيف تعرف أنَّه أصيل؟ أنت تعرف، كما أعرف أنَّه لا يستطيع أن يدخل في السباقات دون أن يسجَّل!».

أجاب هنري: «نعم أعرف. إنَّنا نأمل أن يكون مسجَّلاً في سجل أنساب الخيل العربي. لقد ظللت أكتب لهم لكنَّهم لم يجيبوا. أظنُّهم ما استطاعوا أن يجدوا شيئاً حتَّى الآن».

نظر جاك إلى الأدهم وقال: «لقد ولد هذا الحصان متوحشاً، يا هنري، إذا كان حكمي صواباً، لن تجده على قيد سجل».

قال هنري: «أخشى أنَّك على صواب، يا جاك. لكنَّك لن تستطيع أن تعلم قد يظهر شيء ما نستطيع أن نسابق به الزَّمن ونجعله يحطِّم بضعة أرقام قياسية، حينذاك ليروا ما رأيته أنا الليلة!»

سار أليك بالأدهم جيئة وذهاباً لمدَّة من الزَّمن ثُمَّ قاده إلى سيَّارة

الشَّحن بجانب (نابليون). بعد أن ربط الحصانين في أمان، قفز من السَّيارة وذهب إلى حيث كان هنري وجاك يتحدَّثان. كان هنري يقول: «لن نكون هنا غداً في الليل أعطِ الغلام راحة، ولكنَّنا سنفعلها في الليلة التَّالية. فكن عند البوابة في السَّاعة الثَّانية».

أجاب جاك: «حسناً».

صعد أليك وهنري إلى المقعد الأماميٍّ، ووقف جاك على الرفرف. نظر أليك إلى ساعته وقال فيما بدأت سيَّارة الشَّحن تتدحرج: «الثَّالثة والنِّصف، آمل ألا يكون أهلي قد افتقدوني».

غمغم هنري: . وأنا آمل ألا تكون (المسز) قد افتقدتني، وإلا فسيكون هناك الكثير من الإيضاح والتَّفسير حين أعود إلى البيت!».

ضحك جاك ومدَّ رأسه الأبيض خلال النَّافذة وقال: «وهكذا فهي ما تزال تلبس البنطال في البيت، ها، يا هنري؟».

قال هنري وهو يدور حول زاويةٍ بصورةٍ حادَّة: «كلا. ليس هو الأمر. إنَّه مجرَّد أنَّها أصابت كفايتها من الخيول وهي تتوقَّع منِّي أن أنتهي من الخيول أنا أيضاً».

كشَّر جاك مغمغماً: «إذن، فهي ما تزال لا تعرفك، أليس كذلك؟».

وواصل كلامه قائلاً: «أنت مثلي، يا هنري. فما دام هناك نفسٌ باقٍ في جسدك، فأنت تريد أن تبقى قريباً من الخيول. ولا شيء في هذا العالم يمنعك عنها».

وكان ثمَّة صمت حتَّى تدحرجت السيارة إلى البوابة. قفز جاك من الرفرف وفتح البوابة، وفيما أغلقت وراءهما، لوحا بأيديهما يودِّعان العجوز.

سأل هنري: «حسناً، يا بني، لاقيت وقتاً أصعب مما توقَّع كلانا، أليس كذلك؟».

أجاب أليك: «أظنُّ ذلك يا هنري. على أيَّة حال، إنَّه لأمرٌ مثيرٌ للغاية ركوب الأدهم كما فعلت الليلة، في ساحة السِّباق».

- «نعم، ويجب أن أقول إنك والأدهم قمتما بعمل جيِّد للغاية، جعلتما رقم السِّباق القياسيِّ يبدو وكأنَّ حصاناً خشبيَّاً كان قد سجَّله!».

بعد خمس عشرة دقيقة وقفا أمام العنبر. قاد أليك الأدهم إلى الحظيرة، ووضع هنري (نابليون) في الإسطبل ثُمَّ تبع أليك إلى حظيرة الأدهم. وراح الغلام والرَّجل معاً يحركانه، بعد بضع دقائق غادرا العنبر المظلم. قال أليك: «ليلةٌ سعيدةٌ، يا هنري. أراك غداً».

- «ليلةٌ سعيدةٌ، يا أليك».

كان منزل آل (رامسي) ما يزال مظلماً. فتح أليك الباب بحذر وصعد الدَّرج إلى غرفة نومه. كان كلُّ شيء هادئاً إلا شخيراً. بين الحين والحين، من والده.

وفي تعبٍ خلع ملابسه وصعد إلى سريره وجسده يوجعه، بعد ساعاتٍ قليلة، قُرع الجرس من ساعة التَّنبيه في أذنه. وفي نصف وعي مدَّ يده إليها وأسكتها. طرد ألم حادٌّ في يده كلَّ النَّوم عنه. نهض جالساً ونظر إلى المنديل الملطَّخ بالدَّم الذي ما زال ملفوفاً حول يده. ترك يده تسقط على الوسادة. إذن لم يكن ذلك حلماً! لقد ركب، في الحقِّ، الأدهم في الليلة الماضية. استقرَّت عيناه على الكرسيِّ الذي في جانب سريره حيث كان قد رمى ملابسه. كان قميصه معلَّقاً على

ذراع الكرسيِّ وقد مُزِّق إلى شرائط. كان جسده ما يزال يؤلمه في كلِّ مكان فيما رمى الأغطية عنه ونزل من سريره. وبسرعة لبس ملابسه ووضع القميص الممزَّق تحت ذراعه – سيرميه قبل أن تراه أمُّه. ذهب إلى الحمام واغتسل واعتنى بيديه الجريحتين. شدّ على أسنانه عندما أراق الأيوذين عليهما، لكنَّ رأسه كان محموماً من التَّهيُّج. فلمرة أخرى استعادت الحياة الذُّروة العالية التي صار يحبها.

* * *

(14)

الإعصار وغازي الشمس

بعد ليلتين ركب أليك الأدهم في ميدان السِّباق مرَّة أخرى. كان الجواد يجذب الأعنَّة وأليك يسير به. اتَّكأ (هنري وجاك) على السِّياج ووقف (نابليون) إلى جانبهما، وعيناه على الأدهم.

كان أليك يلبس سترةً سوداءَ تشدُّ جسمه. وكان يغطِّي يديه الجريحتين قفَّازان أسودان، وقد شدَّ منديله حول رأسه ليمنع شعره من السُّقوط على عينيه. شبَّ الجواد على قائمتيه الخلفيَّتين نصف شبَّة، لقد كان يريد أن يجري. انحنى أليك وقبع قريباً من عنق الأدهم. وقلبه يخفق بشدَّة، لأنَّه هو أيضاً، كان يريد أن يحسَّ بالرِّيح تنثال في وجهه مرَّة أخرى ويحسَّ بالجواد الجبَّار وهو يؤدِّي عمله.

أرخى الأعنَّة، على حين غِرَّة، فاندفع الجواد. وحاز على قوَّة الدَّفع في وثبات جبَّارة وانطلق أسرعَ فأسرع حتَّى أصبحت مناظر الأرض، مرَّة أُخرى، مطموسة في عينيه، ولم يكن هناك سوى الخطِّ الذي لا ينتهي من السِّياج الأبيض ليقودهما. لم يحاول أليك أن يحدَّ الجواد أو يوقفه. كان يهتف: «اركض، أيُّها الشَّيطان». لكنَّ الرِّيح الممزِّقة أعادت كلماته إلى حنجرته.

اندفعا يدوران في ميدان السِّباق، ودفع (هنري وجاك) ساقي ساعتيهما لضبط الوقت فيما خطف الأدهم إلى جانبهما. وبلهفةٍ نظرا

إلى السَّاعتين يستطلعان الوقت، ثُمّ نظر أحدهما إلى الآخر. قال جاك: «إنَّ ذلك لم يكن ممكناً أبداً».

اتَّجهت أعينهما مرَّةً أخرى إلى الكتلة السَّوداء غير الواضحة التي كانت تدور العطفة. غمغم جاك: «انظر إلى ذلك الحصان وهو يركض!».

هتف هنري: «نعم، وانظر إلى الغلام وهو راكب!».

استقرَّ رأس جاك على يديه المسندتين إلى السِّياج وقال: «لم أعرف أبداً أنَّ حصاناً يمكن أن يكون له مثل هذا التَّحمل الشَّديد، يا هنري!».

- «تذكَّر أنَّه جوادٌ عربيٌّ».

- «ولكنَّه ليس عربيّاً خالصاً، مع ذلك، يا هنري، إنَّه ضخمٌ للغاية، سريعٌ للغاية، إنَّ دماءَ كثيرٍ من الخيول الجيِّدة، تجري في عروقه، نعم، وما أبقاه على ميدان السَّباق، الآن، سوى حبَّه للغلام».

كان أليك وهو عالٍ في الرِّكاب يتشبَّث بعنق الأدهم وكأنَّه الطَّيران. كانت الدُّموع تنحدر، بفعل الرِّيح على خدَّيه في دفق لا ينتهي، وعلى حين غرَّة وفيما بلغا (هنري وجاك)، رأى أليك شبح (نابليون) الأشهب يقفز إلى ميدان السِّباق، مرًّا به خاطفين، لكنَّ الأدهم كان قد رأى (نابليون)، أيضاً، فخفَّت سرعته.

نظر أليك من على كتفه ورأى الحصان الأشهب العجوز يجري نحوهما، خفَّف الأدهم سرعته تدريجيّاً، وبدون أن ينتظر إشارة من أليك، استدار بسرعةٍ رأساً على عقب نحو (نابليون) المتهادي، حمحم الحصان العجوز عندما جاءا إليه، لكنَّه أبقى رأسه عالياً. مدّ أنفه إلى أنف الأدهم، ثُمَّ انطلق يعدو خبباً ويمَّمَ شطر العطفة. استدار الجواد بسرعة، وبعد ثلاث قفزات من الأدهم. ودارا حول العطفة معاً. راح (نابليون) يخبُّ وهو واجم كأنَّه يفكِّر، وعيناه على الميدان

أمامه. هزَّ الجواد رأسه وعضعض الحصان الأشهب معابثاً، وحين قطع (نابليون) ثلاثة أرباع الطرّيق حول العطفة، خفَّف سرعة سيره إلى خبب بطيءٍ للغاية.

حين بلغا (جاك وهنري) كان (نابليون) منهكاً، لكنَّ عينيه كانتا متَّسعتين من الهياج والانفعال. قفز أليك من ظهر الجواد وضحك قائلاً: «الآن لدينا جوادان للسِّباق».

قال هنري: «لا أدري ما الذي طرأ عليه. لقد قطع الحبل وقفز إلى الميدان هناك حين رأى الأدهم مقبلاً!».

مسح (جاك) يده على جسد (نابليون) وقال: «أظنُّ أنَّه لا باس به مطلقاً ولم يؤثّر الجري عليه».

رمى (هنري) الدِّثار على الأدهم وقال: «لعلَّ توني سيتساءل لماذا أصبح سهل القيادة في جولاته عليه غداً».

ضحك أليك وقال: «سيكون لديه أنشط منه في أيِّ وقتٍ مضى. سيكون توني حسن الحظِّ إذا استطاع كبحه والسِّيطرة عليه!».

قال هنري: «الأحسن أن تسير بهما في ميدان السِّباق، يا بني».

قاد أليك الحصانين وذهب بهما، رفع (نابليون) رأسه إلى الأعلى ما يستطيع مقلِّداً الأدهم. وفي عناية رفع أرجله المضطربة أعلى وحاول محاولة اليائس أن يشبَّ على قائمتيه الخلفيّتين، بالرَّغم من قبضة أليك الثّابتة على زمامه.

كان (هنري وجاك) واقفين أمام سيَّارة النَّقل حين عاد أليك بالحصانين. نظر الرَّجلان إلى الجواد وقال هنري: «إنَّني لأعطي الكثير مقابل أن أكون قادراً على الانطلاق به في سباقٍ كبيرٍ. يا ولد، أيُّ منظرٍ عظيمٍ سيكون ذلك!».

نظر أليك إلى هنري وقال: «لن نفقد الأمل بعد، يا هنري، أليس كذلك؟».

اكتسح (هنري) الجواد ثُمَّ اكتسح أليك بهما. وقال: «كلا، يا سيِّدي، يا غلام، سيرَون هذا الحصان يركض حتَّى لو كان عليَّ أن أُقيم سباقاً بنفسي!».

أشعل (هنري) غليونه، وفي ومض عود الثِّقاب المشعل، رأى أليك العزم مسطوراً على وجهه. كلن لغداه يرتفعان وينخفضان فيما كان يمصُّ الغليون والدُّخان الكثيف يرتفع في الهواء ثُمَّ يطفو على نسيم الرَّبيع الدَّافئ، مبتعداً. رفع (هنري) الغليون من فمه، والتفت إلى جاك قائلاً: «ألديك أيَّة اقتراحات عن أيِّ شيء نستطيع القيام به يا جاك؟».

فكَّر العجوز لحظة. ثُمَّ قال: «كلا، يا هنري. أظنُّ أنَّ خير شيء نفعله هو أن نسابق به الزمن لبعض الوقت ونجعل النَّاس يتحدَّثون عنه. ولكنَّني، قبل ذلك، سأنتظر جواب رسالتك».

انتصبت أذنا الجواد إلى أمام فيما وصل إليهم صهيل جوادٍ من أحد الإسطبلات في البعد. نظر أليك إلى الأدهم في اشتهاء. وقال: «هذا ما أشعر به أنا أيضاً، بشأن ذلك يا هنري».

سننتظر، لكنَّه ينتمي إلى خير الخيول وعلينا أن نُري كلَّ النَّاس بطريقة ما، أنَّه كذلك، سواء أكان سليل أصلٍ كريمٍ أم لم يكن!».

مرَّت الأسابيع وأليك وهنري يدرِّبان الأدهم في وعي.

انتظرا جواباً على رسالة هنري، بلهفة. مرَّت الأيَّام وبدأا يفقدان الأمل شيئاً فشيئاً. وفي ذات يوم جاء الجواب. اندفع (هنري) إلى العنبر بالمظروف الطَّويل غير المفتوح في يده. كان أليك يحسُّ الأدهم.

وهتف في هياج، ملوحاً بالرسالة: «أليك، ها هو ذا!». وفي انفعال وعنف فتحتها يداه. وسقط المظروف إلى الأرض.

رأى أليك عينيه تطيران على السُّطور، ثُمَّ ظهرت الخيبة في وجهه. سلَّم الرسالة إلى أليك. كانت قصيرة، مجرَّد أسطر قليلة. وحتَّى تلك اللحظة، لم يقرأها أليك كلَّها. كانت الجملة الأولى كافية: «ليس هناك من حصان مسجَّل بحيث يطابق الوصف الذي أرسلتموه إلينا. وقد قمنا ببحث واسع...». أعاد أليك الرسالة إلى هنري، الذي كورها بيده ورماها على الأرض.

في الأيَّام التي تلت أظهر أليك خيبته بوضوح. كان ركوبه الليلي على الجواد ما يزال مثيراً كما كان، لكنَّه كان مشتاقاً إلى المسابقة إزاء خيول السباق العظيمة في ذلك الحين، خيول مثل غازي الشَّمس والإعصار اللَّذين كانا الآن يصنعان تاريخاً لميدان السباق.

كان يقرأ كلَّ كلمة تنشرها الجرائد حولهما، ويُصغي إلى كلِّ سباق عظيم ينقل في الإذاعة.

كان يتصارع على مراتب الشَّرف العُليا، في المقدِّمة، الحصانان العظيمان، كما قال الخبراء – اللَّذان شهدتهما ساحات السِّباق منذ كانت، غازي الشَّمس والإعصار. كان غازي الشَّمس بطل السَّاحل الغربيِّ، والفائز بجائزة الـ «سانتا» والـ «انيتا هنديكاب» وأضخم وأسرع حصان في السِّباق، كما قالت الأنباء من السَّاحل.

أمَّا الإعصار فقد كان مفخرة الشَّرق، وقد وُلِدَ وتربَّى في (كنتكي)، وفاز بسباقات الـ«دربي» والـ«بريكنس» والـ«وايدنر فيوترتي» لم يجاره حصان ليرى ما الذي يستطيع أن يفعله حقَّاً. قال أتباعه، حين يأتي وقت كذلك، فإنَّ سرعة إعصار ستذهل عالم السِّباق.

وكتب معلِّقو الألعاب الرِّياضية مقالات طويلة عن الحصانين، متنبِّئين بما سيحدث إذا صادف، للبطلين أن التقيا. كتب المُخبرون الصَّحفيون من الشَّرق يقولون: «لو جاء غازي الشَّمس إلى الشَّرق، فإنَّه سيدفع إعصار إلى رقمٍ قياسيٍّ عالميٍّ جديد». بينما قال المُخبرون الصَّحفيون من الغرب: «لو صدف لغازي الشَّمس أن ذهب إلى الشَّرق، فإنَّه سيجعل إعصار يبدو وكأنَّه نسمة صيف هيّنة رقيقة!».

مرّ سباق بعد سباق في تاريخ الميدان، وكان غازي الشَّمس وإعصار الاسمين المتردِّدين على شفتيّ كلِّ شخص. وراح الرِّجال والنِّساء الذين لم يشهدوا سباقاً يتجادلون حول مزايا الحصانين، وأيّ منهما سيكسب السِّباق، إذا قدِّر لهما أن يلتقيا. وكان (هنري وأليك) طوال الوقت ينظران إلى الأدهم ويبتسمان ابتسامة مبهمة. لأنَّهما يعرفان أنَّ لديهما حصاناً سيتغلَّب عليهما معاً!».

وفي صباح يوم سبت بعد أسابيع قليلة، اندفع أليك إلى العنبر وفي يده جريدة. وسمعه الأدهم الذي كان في الطَّرف الأقصى من الحقل، فخبَّ راكضاً إليه مُجتازاً (هنري). حيَّاه أليك فيما أرعدت سنابك الجواد وهو يقف ويدسُّ أنفه في جسمه: «هلو يا ولد». ثُمَّ سلم أليك الجريدة لهنري وقال: «اقرأ عمود جيم نيفيل».

أخذ هنري الجريدة وراح يقرأ عمود مُخبر الرِّياضة الشَّهير. قرأ: «لا حاجة إلى القول أنَّ أعظم إثارة في ميدان الرِّياضة اليوم يسبِّبها أسرع حصانَين وضعا قدماً في ميدان السِّباق، إعصار وغازي الشَّمس. لقد كتبت آلاف الكلمات عن هذين البطلين خلال العام الماضي، وخِيضَت آلاف المعارك «خارج ميدان السِّباق» لإثبات أيُّهما الأحسن. والسُّخرية التي في كلِّ ذلك هي أنَّ الأرجح هو أنَّ هذين الحصانين لن

يلتقيا، إنَّ (المستر سي. تي. فولنس)، صاحب غازي الشَّمس، لن يُرسل حصانه إلى الشَّرق هذا الصَّيف لأيِّ سباق هنا، كما أنَّ (المستر أي. ايل. هرست)، صاحب إعصار، لن يُرسل حصانه إلى الغرب. ويبدو لي أنَّ (المستر فولنس والمستر هرست) كليهما فاشلان في واجبيهما كرياضيينَّ أمريكييَّن حقيقييَّن؛ لأنَّ هناك سباقاً يطالب به الشَّعب كلُّه، وأيَّاً كانت الأسباب الشَّخصية لدى هذين السيدين لعدم رغبتهما في الجمع بين هذين الحصانين فإنَّها يجب أن تُطرح جانباً، في سبيل صالح السِّباق الأميركي.

وهكذا فإنِّي أقترح أن تُعقد مسابقة بين غازي الشَّمس وإعصار في (شيكاغو) في منتصف الشهر القادم. إنَّني سأرسل رسالَتين للمالكَين الاثنين اليوم. ليست هناك سباقات كبيرة في ذلك الوقت الذي يجري فيه السباق بين الحصانين، سيكون على كِلا الحصانين أن يُسافرا المسافة نفسها إلى (اسلبا)، وهكذا فلن يكون لأيٍّ منهما امتيازٌ أو تفوقٌ على الآخر.

وستُحلُّ، حلاً نهائيَّاً مسألة أيِّ الحصانين أسرع...» تطلَّع هنري من الصَّحيفة وقال: «سيكون سباقاً عظيماً إذا تركوهما يجريان».

كان الجواد يقف ساكناً إلى جانب أليك، وأسنانه الضَّخمة تقضم السُّكر الذي أعطاه الغلام إيَّاه لتوِّه.

بعد يومين فيما كان أليك يسير عائداً إلى البيت من المدرسة مرّ بكشك لبيع الصُّحف. وقفز العنوان الرئيسي لصحيفة صباحيَّة إلى عينيه: «إعصار وغازي الشمس سيتسابقان في 26 حزيران....» ذاك ما قرأه. وبلهفة اشترى جريدةً وراح يقرأ عمود (جيم نيفيل). لقد قبل مالكاً الجوادين عرضه، وسيتمُّ السِّباق.

كتب جيم نيفيل: «كان مستر فولنس ومستر هرست أكرم ممَّا توقَّعت. لقد عرضا أن يعطيا حصَّتهما من بيع بطاقات الدُّخول إلى مؤسسةٍ خيريَّةٍ تستحقُّ المساعدة! إنني مدين لها، كليهما بالاعتذار فإنَّهما رياضيَّان حقيقيَّان بكلِّ معنى الكلمة...».

لم يستطع أليك أن يصل إلى البيت وينتهي من الغداء بسرعة كافية لأن يسمع ماذا كان رأي (هنري) في ذلك. حين بلغ العنبر رأى أنَّ هنري كانت لديه جريدة وكان يقرأها. تطلَّع إلى أليك فيما تقدَّم إليه. قال: «حسناً، لقد ذهبا وفعلاها!». أجاب أليك: «يا ولد، إنِّي لأعطي الكثير مقابل أن أرى ذلك السِّباق!».

انحرف إلى طريق دخول السيارات سيارة مكشوفة فسأل هنري: «إنِّي لأتساءل من يكون هذا!» غمغم أليك فيما اقتربت السيارة منهما: «إنَّه جو روسو لم أره منذ أن أخذ مني ذلك الحديث في اليوم الذي وصلنا إلى البيت!».

قفز (جو) خارجاً من السيارة وهتف: «هلو أليك. هلو مستر ديلي. كنت مارّاً من هذا الطَّريق لكتابة قصَّة وفكَّرت بأن أمُرَّ وأرى كيف حالك مع جوادك الوحشيِّ».

غمغم أليك مزهوّاً: «إنَّه في خيرٍ الآن».

قال هنري: «إنَّه ما زال يُبقينا على أطراف أصابعنا، مع ذاك. هنالك هو الآن، خارجاً في الحقل».

صفَّر أليك وقال: «سأريك إيَّاه عن كثب يا جو».

ركض الجواد نحوهم، وشبّ على قائمتيه الخلفيتين حين رأى جو، واندفع منحدراً في الحقل مرَّة أخرى. ضحك جو قائلاً: «أظنُّ أنَّه قد نسيني».

صفَّر أليك مرَّة أخرى واستدار الأدهم بسرعة وعاد. قبض عليه أليك من الزِّمام.

قال (جو) وهو يصفِّر إعجاباً: «يا ولد! علمت أنَّني لم أكن أرى جيِّداً تلك الليلة، إنَّه بالتَّأكيد أضخم حصان رأيته».

قال أليك مزهوّاً: ««وأسرع جواد رأيته، أيضاً».

قال جو مُعاتباً: «أسرع من غازي الشمس وإعصار».

قال هنري: «يقهرهما كليهما».

ضحك جو وقال: «أقول، تبدوان أيُّها الرَّجلان جّدِّيين، فالنَّاس في طول البلاد وعرضها - يتجادلون حول أيُّهما أسرع جوادٍ في البلاد، غازي الشمس أم إعصار، وأنتما تقولان أنَّ حصانكما يستطيع أن يقهرهما كليهما. الأحسن ألا تدعا أحداً يسمعكما تقولان ذلك!».

قال أليك: «إنَّها الحقيقة، يا جو. لقد كنَّا نسابق...» وتوقَّف ونظر إلى هنري.

قال هنري: «لا بأس يا أليك، أظنُّ أنَّه لن يُفيدنا أو يضيرنا أن نُخبر أحداً بذلك فنحن نستطيع أن نتسابق به، على أيِّ حال».

نظر (جو) من أليك إلى هنري وقال: «تقصدان أن تخبراني أنَّكما كنتما تُسابقان به؟».

أجاب أليك: «إلى حدٍّ ما. لقد كنَّا نأخذه إلى (بلمونت) في الليل وندرِّبه بعض التَّدريب».

وقاطعه هنري قائلاً: «ودعني أخبرك، يا سيِّدي. لم يجرِ أيُّ حصان في ذلك المَيدان كما جرى هذا الحصان. لقد حسبنا له الوقت، ولم يكن ذلك مجرَّد تخمين».

قال أليك: «أنت ترى أنَّنا نوينا وصمَّمنا أن ندخله في بعض السِّباقات الكبرى. كنت أنا سأركبه. لكنَّنا لم نستطع الحصول على سلسلة نسبه. كتبنا إلى بلاد العرب محاولين الحصول عليها لكنَّ ذلك كان مستحيلاً. إنَّنا لا نعرف كثيراً عنه. لا نعرف غير الميناء الذي نزل منه إلى المركب. وأنت لا تستطيع أن تُدخل حصاناً في سباقٍ دون أن يُسجَّل على أنَّه أصيلُ النَّسب».

غمغم جو: «نعم، ذلك صحيح، وبينما يبدو الأدهم وكأنَّه أصيلُ النَّسب، فإنَّه بالتَّأكيد أكثر وحشيَّةً من أن يكون قد رُبِّي كجوادٍ أصيلِ النَّسب!».

قال هنري: «أظنُّ أنَّ ذلك يُبعدنا عن السِّباقات إلى حدٍّ كبير، لكنَّنا ما نزال نعلم أنَّه أسرع حصان في هذا الجوار!».

حكَّ (جو) رأسه وسأل: «أأنتما متأكدان من أنَّه سريعٌ كما تقولان أنَّه كذلك؟».

أجاب هنري: «بالتَّأكيد، أنا متأكِّد. لماذا؟».

- «حسناً أعرف سباقاً لا يحتاج أوراقاً للدُّخول فيه».

ضحك هنري وقال: «سباقاً في إقليم؟».

- «كلا. السِّباق بين غازي الشمس وإعصار!».

قال هنري: «لكنَّ ذلك مستحيل!».

فقال جو: «لا مستحيل هذه الأيام. ولكن أنستطيع أن نُدخله أم لا، فلن يكون افتقاره إلى الأوراق هو الذي يحول دون دخوله، أنتما تريان أنَّ ذلك سباق خاص، إنَّه لن يعقد في أيَّة حفلة من حفلات السِّباق. فهو يشبه تماماً مسابقتي إيَّاك لنرى أينا أسرع ركضاً.

إنَّهم يستأجرون ميدان السِّباق، ويجلبون الحصانين ثُمَّ يذهبون!. كلُّ ما عليك أن تفعله هو أن تجعل المالِكَين يدعانك تُجري الأدهم في السِّباق!».

قال هنري: «نعم، ذلك كلُّ شيء. ومع ذلك ما أزال أقول أنَّه مستحيل عمليَّاً!».

قال أليك بلهفة: «هناك فرصةٌ ضعيفةٌ، مع ذلك يا هنري».

غمغم جو: «لقد قلتها يا غلام. وحيث هناك حياة فهناك أمل!».

سأل هنري: «كيف تظنُّ أنَّنا نستطيع أن نفعلها، يا جو؟».

«لا أدري أنَّني أعمل في نفس الجريدة مع جيم نيفيل، وهو الشَّخص الذي بدأ ذلك كله، قد يساعدنا بطريقة ما».

اقترح أليك: «ربَّما إذا أخبرتَه عن الأدهم...».

أجاب جو: «ربَّما. إنَّه مجنونٌ بالخيول، ولا يظنُّ أنَّ هناك حصاناً في العالم يستطيع أن يقهر إعصار، حتَّى ولا غازي الشمس. من الرَّاجح أنَّه سيظنني أهرف إذا أخبرته بأنَّني أعرف حصاناً يستطيع أن يقهرهما كليهما». وتوقَّف، ثُمَّ واصل الكلام قائلاً: «أنتما واثقان أنَّ الأدهم يستطيع ذلك؟».

ابتسم هنري وقال: «نعم، يا جو، أنا واثق. ولكن بما أنَّني أرى أنَّك شاكٌّ نوعاً ما، فلماذا لا تأتي ذات ليلة حين نجرِّبه؟. واجلب جيم نيفيل معك أيضاً. حينذاك سيكون لديه شيء يكتُب عنه!».

أجاب جو: «نظرتك لا بأس بها، يا هنري. سأتَّصل بجيم بعد هذا الظُّهر. متَّى ستُجربان الأدهم مرَّة أخرى؟».

أجاب أليك: «غداً في الليل».

قال هنري: «إذا استطعت أن تفعلها، فإنَّك تستطيع أن تقابلنا عند البوابة الرَّئيسيَّة في السَّاعة الثَّانية».

قال (جو) فيما سار نحو سيَّارته: «روايتنا أشبه بالرِّوايات البوليسيَّة. لكنَّني سأكون هناك، ولديَّ شعورٌ بأنَّ جيم سيكون هناك أيضاً! إلى اللقاء!».

هتف هنري وأليك: «إلى اللقاء». ورفع الجواد رأسه وحمحم فيما تدحرجت السيارة متَّجهة نحو البوابة.

* * *

(15)

الجواد الغامض

في الليلة التَّالية حين ساق أليك وهنري سيارتهما إلى بوابة (بلمونت) الرَّئيسيَّة شاهدا سيارة (جو) واقفةً هناك. وفيها رجلان. قال أليك في أمل: «ذلك الرَّجل الذي معه لا بدَّ أن يكون جيم نيفيل».

أوقف هنري السيارة ومسَّ الزَّمور مسَّة خفيفة. نادى على (جو) برفق «اقفز على سيَّارة الشَّحن. ليس أمامنا إلا مسافةً قصيرة».

هبط الرَّجل من السيّضارة وقفز على رفوف سيَّارة الشَّحن. أدار (هنري) السيَّارة فيما رأى (جاك) يفتح البوَّابة. فدسَّ (جو) رأسه في النَّافذة المفتوحة قرب (هنري). وغمغم: «فعلتها» ثُمَّ رفع إصبعاً إلى شفتيه ووسوس: «ش ش». الغموض يزداد عُمقاً. إلى أن تذهب من هنا؟».

قال هنري: «أمسك جيِّداً. سوف ترى».

بعد خمس دقائق جلسوا إلى جانب ساحة السباق. وهبط (هنري وأليك) من السيارة بعد وقوفها.

كان رجلٌ عريض الكتفين يقف إلى جانب (جو). كانت قبَّعته مائلةً إلى الوراء ورأى أليك خيوطاً من الشَّعر الأبيض تتخلَّل شعره الأسود. بدا (جيم نيفيل)، بطريقةٍ ما، كما تخيَّله أليك، قدَّمهما (جو) أحدهما إلى الآخر.

بعد التَّقديم، قال جيم: «بصراحة... لم يخرجني هنا هذه الليلة سوى رجل الصَّحافة في نفسي، لأنَّه على شدَّة ما لي من ثقةٍ بصديقي جو هذا، لا أستطيع أن أتخيَّل حصاناً – في الوقت الحاضر، على كل حال، يستطيع أن يُنافس إعصاراً وغازي الشمس في السباق!».

ابتسم هنري وقال: «بالتَّأكيد. وإنِّي كنت أقول نفس الشيء لو لم أرَ الأدهم يجري!».

نظر (جيم نيفيل) إلى (هنري) مُتسائلاً وقال: «ألستَ، أنت نفس هنري ديلي الذي كان يركب تشانغ إلى النَّصر في تلك السِّباقات كلِّها التي تُقام قبل عشرين عاماً؟».

قال أليك مزهواً: «إنَّه هو بعينه».

فسحب (جيم نيفيل) قبَّعته على جبهته، واستطاع أليك أن يرى مرَّة أخرى أنَّه كان مخبراً صحفياً يشتمُّ سبيله إلى قصَّة. قال جيم في جدٍّ: «وأنت تعتقد أنَّ لديك حصاناً يستطيع أن يقهر غازي الشمس أو إعصار».

أجاب هنري: «نعم، إنَّه حصان أليك. إنني أساعده في تدريبه وحسب». تكلَّم (جو روسو) قائلاً: «لماذا لا تريه الأدهم يا هنري، وحينذاك سنتركه يستنتج ما يريد؟».

قال أليك وهو يسير نحو مؤخِّرة سيَّارة الشَّحن: «فكرة طيِّبة».

قاد الأدهم من السيارة إلى الرَّصيف، وسمع جيم يُغمغم: «الله، إنَّه حصان عملاق!». هزَّ الجواد رأسه مليئاً بالحيويَّة الليلة، لأنَّه يعلم جيِّداً أنَّه سيجري. استدار برأسه الصَّغير الجميل جمالاً وحشياً، نحو مجموعة الرِّجال التي هي دونه. وجمَّع جسمه، وبذل مجهوداً طفيفاً ليقفز، فصدَّه أليك، ثُمَّ وقف مرتجعاً بينما راح الغلام يُحادثه مُلاطفاً ويربِّته.

جاء (جاك) فقدَّمه (هنري) إلى (جو وجيم).

وسار جيم بعناية حول الجواد. ولكنَّ أليك حذَّره قائلاً: «انتبه فقد يرفسك إذا اقتربت منه كثيراً. إنَّه لا يعرفك».

قال جيم: «لا تقلق. لن أقترب كثيراً من هذا الحصان، بدأت أرى ما الذي تعنون، إذا كان يستطيع أن يركض جيِّداً كما يبدو منه».

اختفى (هنري) داخل سيَّارة الشحن وخرج يقود (نابليون). رمى (جيم) رأسه إلى الوراء وزعق: «هاي... ما الذي لديكم هنا، بطلٌ آخر؟».

غمغم هنري: «هذا نابليون».

فوضَّح أليك الأمر قائلاً: «إنَّ له نوعاً من الأثر المهدّئ على الأدهم، ولهذا نجلبه معنا دائماً».

راح (جيم نيفيل) يُراقب، فيما مدَّ (نابليون) أنفه إلى أنف الجواد. قال: «لعلَّها ليست فكرة رديئة، على كلٍّ حال».

بعد دقائق قليلة رفعوا أليك إلى السَّرج. خبط الأدهم الأرض بحوافره. واقترب (جيم نيفيل) كثيراً واختطفته أسنان الأدهم فيما حاول أن يصل إليه. سحبه (هنري) إلى الوراء. كان واضحاً أنَّه لم يعتد على رؤية هذا العدد الكبير من النّضاس حوله في وقت واحد. طوَّح برأسه إلى الأعلى والأسفل وعرفه الثَّقيل يتساقط على جبهته، على حين غِرَّة رفع قائمتيه الخلفيتين، مُنتزعاً اللجام من قبضة هنري. وراح يضرب الهواء برجليه، فأصاب (هنري) في ذراعه.

جذب أليك الأعنَّة بقوَّة وحرفه إلى جانب. قال: «أدهم! اهبط!». تراجع الرِّجال بسرعةٍ إلى مسافةٍ أمينة. كان (جاك) يشمِّر عن ساعد (هنري)، الذي كان كمُّ قميصه مبتلاً بالدَّم.

سأل أليك: «هل أصابك بسوء، يا هنري؟».

كان (جاك وهنري) يتفحَّصان الجرح. أجاب جاك: «لم يكسر شيئاً. مجرَّد جرح غير خطير. سنذهب إلى البيت ونضمِّده!».

قال هنري: «كلا، لن نذهب. لقد جئت هنا لأشاهد هذا التَّدريب وسوف أراه. سأعنى بهذا فيما بعد. لا بدَّ أن تُصاب بأكثر من جرح في هذا العمل».

هتف (جيم نيفيل) من جانب الأدهم الآخر: «إنَّه شيطان ولا ريب!».

أجاب هنري: «لقد هيَّجناه. هذا كلُّ ما هناك. لأوَّل مرَّة يفعل ذلك معي».

مرَّة أخرى شبَّ الجواد على قائمتيه الخلفيَّتين فجعله أليك يهبط. هتف جاك: «أخرجه من السباق، يا ولد».

قفز الأدهم في عصبيَّة، عندما ساروا به خلال البوابة، ومرَّة أخرى أحسَّ أليك بجسمه يحترُّ بفعل الهياج. ربَّت العرف على عنق الجواد. قال: «انتهينا يا ولد». تلفت أليك إلى المجموعة الصَّغيرة من الرِّجال وراءه.

كانوا جميعاً، مستندين إلى السِّياج، يراقبون بلهفة. حمل الهواء صوت جو روسو إليه وهو يقول: «إنَّ ذلك الغلام غير خارج في نزهة».

قبض أليك على الأعنَّة بأشدَّ ممَّا كان يقبض واتَّكأ عليها حتَّى لامس رأسه رأس الجواد. كان يعلم جيِّداً الخطر الذي يتعرَّض إليه كلَّما ركب الأدهم. خاصَّة حين يُطلق له العنان في ساحة السباق. إنَّ الجواد لن يؤذيه وهو عالم، لكنَّه إذا انطلق على هواه ذات مرَّة لم يعد الأدهم الذي يعرفه أليك، بل إنَّه يعود مرَّة أخرى، جواداً وحشيَّاً لم يُذلَّل تماماً، ولن يُذلَّل.

على حين غرَّة، اندفع الأدهم، وازدادت سرعته بصورةٍ مدهشة، فيما راحت أرجله الجبَّارة تكتسح الأرض. وسمع أليك زئيراً مقعقعاً في أذنيه، من ضربات الحوافر السَّريعة. أصبحت سرعة الجواد أعظمَ فأعظم. وأصبح جسد أليك مخدَّراً، وجعلت السُّرعة المرعبة من الصَّعب عليه أن يتنفس. ومرَّة أخرى أصبح الطَّريق مطموساً لا يبين بجلاء، ولم يكنِ ليعي غير السِّياج الأبيض ينزلق دون انتهاء. قبضت أصابعه على عرف الجواد وانخفض رأسه وظلَّ إلى جانب عنق الجواد. كانت الفكرة الوحيدة التي تجول في رأسه هو أن يبقى على ظهر الأدهم وأن يبقى محتفظاً بوعيه. أصبح نَفَسه شهقات قصيرة، وتلاشى السِّياج الأبيض من بصره. وفي يأس حاول أن يفتح عينيه، لكنَّ أجفانه بدت وكأنَّها مشدودة إلى الأسفل بأثقال، وبدأت أجراس ما، تُقرِع في أذنيه. اشتدَّ قبض أصابع أليك على عرف الأدهم، لقد فقد كلَّ إحساس بالوقت، حينذاك بدأ العالم ينقلب عاليه سافله.

بدا، بعد ساعات، أنَّه أحسَّ بذراعين تلتفان حول خصره. وكان الشَّيء التَّالي الذي عرفه أنَّه وجد نفسه مطروحاً على ظهره بجانب سيَّارة الشَّحن. تطلَّع إلى الرِّجال المجتمعين حوله. كان هنري يركع بجانبه، ومنديله الأبيض ملطخ ببقعٍ داكنةٍ كبيرةٍ منتفخةٍ حول ذراعه. وقعت عينا أليك على يديه هو ذاته.

كانت شعرات سود طويلة مقبوضاً عليها بين قبضتيه المضمومتين. فتحهما ونظر إلى كُتل الشَّعر الأسود. وفي تساؤل تطلَّع إلى (هنري). وابتدأ الكلام قائلاً: «كيف....؟»

- «لا بأس، يا غلام. كنت متشبثاً. أتشعر بأنَّك على ما يرام؟».

أجاب أليك: «دائخٌ قليلاً. أين الأدهم؟».

- «إنَّه في خير، وضعناه في سيَّارة الشَّحن مع نابليون؟».

سأل أليك: «هل وقعت منه، يا هنري؟».

بلغ صوت (جاك) ذو النبَّرات العالية أذنيِّ أليك، سأل: «وقعت؟ يا ولد، لو أنَّ ذلك الحصان ظلَّ يجري، لكنت ما تزال عليه. كان الأمر محتاجاً إلى سكِّين لاقتلاعك من ظهره حين وقف، وكان هنري آنذاك الوحيد بيننا الذي استطاع الاقتراب منه».

قال أليك: «أنت تعلم يا هنري أنَّنا لم نُرد ذلك الحصان يركض بأقصى سرعته، حتَّى الآن. لم أكن لأستطيع أن أتنفس آنذاك».

أجاب هنري: «لا بدَّ من الشّضجاعة، لركوبه يا غلام، إنَّني فخور بك للغاية، لكن دعنا نحاول إنهاضك على قدميك. إنَّه خيرٌ لك لو استطعت أن تسير».

ترنَّح أليك قليلاً فيما رفعه (هنري وجاك) إلى أعلى، لكنَّ الأرض وقفت عن الدَّوران بالتَّدريج وصفا ذهنه. وتنشَّق هواء الليل عميقاً.

جاء (جيم نيفيل) وقال: «يا ولد. لقد رأيتُ كثيراً من الرُّكوب في زماني، لكنِّي لم أرَ ركوباً مساوياً لذلك». ثمَّ التفت (جيم) إلى (هنري) وقال: «لقد كنت على صواب يا مستر ديلي – إنَّه أسرع جواد رأيناه في حياتنا. أكاد لا أصدِّق ما رأيته بعيني، لكن...» وعرض (جيم) وجه ساعةٍ لضبط الوقت أمام (هنري) وواصل الكلام قائلاً: «لكن لا أستطيع أن أنكر هذه!» ثمَّ التفت في فظاظة إلى (جو روسو) وقال: «والآن يا جو، إنَّ أمامنا كلَّنا غاية نسعى إليها، فدعنا نذهب».

- «حسناً يا جيم».

قال هنري يحضُّه: «تعال هنا مرَّة أُخرى، في أيِّ وقت تشاء، وسندعك ترى أجمل حيوان ذي أربع أرجل يجري حتَّى دون تخويل بالجري».

أومضت عينا (جيم نيفيل) وقال: «كثيرٌ من النَّاس سيرون ذلك الحصان وهو يجري، إن كان لديَّ ما أقوله عنه!».

أحسَّ أليك بالأرض تدور به ومن حوله، مرَّة أخرى. قال: «قل الحقَّ يا جيم. أتظنُّ أنَّنا نستطيع؟».

أجاب جيم: «لا أعد بشيء، يا غلام، لكنَّني سأبدأ شيئاً ما وإلا افتقدت ضيفي، انظر إلى العمود الذي أكتبه، غداً. والآن علينا أن نذهب. تعال يا جو».

قال جو: «سأذهب معكما وأفتح لكما البوابة».

بعد أن ذهبوا، وضع (هنري) ذراعه في ذراع أليك وسارا جيئة وذهاباً حتَّى عاد الدمَّ يدور خلال رجليِّ الغلام مرَّة أخرى، فقال: «أشعر أنَّني بخير الآن، يا هنري».

صعدا إلى سيَّارة الشَّحن. نظر أليك وراءه من النَّافذة الصَّغيرة، فرأى الجواد يحدِّق في قلق إليه، قال: «نعم يا سيِّدي، لقد كان ركوباً بحقّ!».

قال هنري: «حسناً يا أليك، آمل أنَّه مهما سيفعل (جيم نيفيل)، فسيدخل في ذلك السباق».

- «لست أكثر أملاً منِّي».

كان اليوم التَّالي يوم سبت، اندفع أليك إلى العنبر مباشرة بعد الفطور، كان (هنري) يقرأ عمود (جيم نيفيل)، بالضَّبط!! كان جالساً في الخارج يقرأ فيما جاء أليك إليه. سأل الغلام بلهفة: «ماذا يقول؟».

وغمغم (هنري) فيما ناوله الجريدة: «اقرأه بنفسك».

انسابت عينا أليك على العنوان... من هو الحصان الغامض الذي يستطيع أن يقهر إعصار وغازي الشمس كليهما؟ وكتب (جيم نيفيل) بعد ذلك «نعم، أنا اعرف. أنا الرَّجل الذي قال إن لم يكن ثمَّة حصان في العالم يستطيع أن يقهر تلك الحزمة الخفيفة من الديناميت إعصار حتَّى ولا غازي الشمس. نعم أنا الرَّجل الذي كتب إلى السَّيدين فولنس وهرست، مالِكَي ذينك الجوادين الأصيلين، مقترحاً المباراة التي ستجري بين حصانيهما في السَّادس والعشرين من حزيران، بعد أسبوعين، لا أكثر.

كان هذا السباق في رأيي وفي رأي الجمهور الأميركيَّ جميعاً كما أتصورَّ سيقرِّر شيئاً واحداً: أن نرى من هو أسرع حصان في البلاد!. إنَّ إعصار وغازي الشمس كليهما قد قهرا كل ما لاقياه في حلبة السباق، ولم يكن إلا طبيعيَّاً، إذن، أن يلتقيا ليحلا هذه المسألة، في السيادة في حلبة السِّباق.

لكن هذا السِّباق، الآن – في رأيي – لن يُثبت من هو أسرع حصان على أربع أرجل، لأنَّني رأيت حصاناً يستطيع أن يقهرهما كليهما. هذا شيءٌ عليّ أن أنفضه من صدري، لأنَّكم يا هواة السباق ستتوجون الفائز بسباق شيكاغو كأسرع حصان في العالم، وليس ذلك صحيحاً، ما زال هناك حصانٌ آخر، حصانٌ عظيم يستطيع أن يقهر أيَّاً منهما.

«إنَّه لمن العدل أن أخبركم أنَّ هذا الحصان لم يسبق له أن تَسابق في حلبة ولعلَّه لن يتسابق في حلبة، لأنَّه يفتقر إلى أوراق التَّسجيل الضَّروريَّة. والآن أجد أنَّني قد أشرفت على نهاية عمودي، ولهذا فسوف أختتمه بهذا التَّذكير: بينما أنتم أيُّها النَّاس تصفِّقون للفائز في السِّباق الآتي بين إعصار وغازي الشمس باعتباره بطل اليوم، فإنَّني أعرف حصاناً، حصاناً غامضاً هو هنا في نيويورك، من الرَّاجح أنَّه يستطيع أن يجعلهما كليهما يأكلان غباره!».

قال أليك: «أقول، تلك بدايةٌ لأمرٍ خطير».

- «لقد قلتها يا بنيّ، سيجعل كلَّ فرد يُهاجمه قبل أن ينتهي هذا النَّهار!».

قال أليك: «ومع ذلك لم يصرِّح ويقترح إشراك الأدهم في سباق المباراة، يا هنري!».

- «كلا. لكنَّه ترك الباب مفتوحاً وتستطيع أن تُراهن بأنَّ شخصاً ما سيقترح ذلك».

- «آمل أن ينجح ذلك، إنَّني أفكِّر وحسب، الأدهم ضدَّ إعصار وغازي الشمَّس. يا ولد! يا له من سباق!».

- وافقه هنري قائلاً: «لقد قلتها!». ثمَّ توقَّف دقيقة وعاد إلى الكلام قائلاً: «أقول، يا أليك، لو أنَّنا نجحنا في إدخال الأدهم إلى السِّباق، كيف تتصوَّر أهلك يتلقُّون ذلك؟ أعني ركوبك إيَّاه؟».

التقت عينا أليك بعيني هنري وقال: «إنَّ عليهم أن يدعوني أركب. سيفهمون، أنا واثق، خاصَّة بعد أن نخبرهم كيف كنت أركب الأدهم في بيلمونت. شيءٌ مضحك، يا هنري، قرَّرت أمِّي البارحة أن تسافر إلى شيكاغو في منتصف الأسبوع القادم لنزور خالتي لمدة أسبوعين. ستكون هناك في نفس الوقت الذي يجري فيه سباق المباراة!».

قال هنري: «آه! عظيم!!».

- «أمِّي ليست مولعة بالسِّباق، الأرجح أنّها لن تذهب حتَّى لرؤية السِّباق، أنت تعلم يا هنري، ما دمنا لا نعرف ما إذا كان الأدهم سيشترك في السِّباق، فلن أذكره حتَّى مجرَّد ذكرٍ لأمِّي، إذا اشترك الأدهم فسأتحدَّث في الأمر كلِّه مع أبي، وسيفهم».

أجاب هنري: «إن شاء الله».

حين ألقى أليك نظرة على صحف المساء تلك الليلة، رأى أنَّ هنري كان على صواب، في قوله عن وثوب كلِّ شخص على عنق (جيم نيفيل). كانت صفحات السِّباق مليئة بالمقالات التي كانت تسخر بفكرة جيم «الجنونيَّة» وتهزأ منها ومن فكرته بأنَّ هناك حصاناً في أمريكا، نعم وفي نيويورك، يستطيع أن يقهر البطلين كليهما!

ولأنَّ عمود (جيم نيفيل) قد نقل في الصُّحف من السَّاحل الشَّرقي إلى السَّاحل الغربيِّ، ولأنَّه خبيرٌ من أبرز الخبراء في الرياضة في البلاد، أثارت مقالاته عن الحصان الغامض مزيداً من الفضول مع كلِّ يومٍ يمرُّ. وبالرَّغم من النَّقد الذي كان يلقاه، لم يكن (جيم) ليترك الجمهور ينسى حصانه الغامض. كان في كلِّ يوم وفي عموده، ينقل صورةً فوتوغرافيَّة له. وفي كلِّ ليلةٍ كان يذكره مرَّة أُخرى. في برنامج الرياضة الذي يقدمه في الراديو.

كتب أحد كتَّاب الرِّياضة يقول: «لم يكن بوسع أحد غير شخص كجيم نيفيل أن يخلق مثل هذه الضَّجة التي يُثيرها الآن حول مواهب جوادٍ غامضٍ يدَّعي جيم نيفيل أنَّه قادرٌ على قهر غازي الشَّمس وإعصار كليهما!».

مرَّ أسبوع، واستمرَّت كُرة الثَّلج التي بدأ (جيم) يُدحرجها تزدادُ سرعةً وحجماً، أراد جمهور المتسابقين أن يعرف: «من هو الحصان الغامض؟».

كان جواب (جيم) الوحيد أنَّه كان قد وعد بأن يُبقي اسمه مكتوماً، لكنَّه يستطيع الحصول على الجواد خلال برهةٍ قصيرةٍ.

استدعى (هنري وأليك) على (التَّليفون). أخبرهما قائلاً: « لا تجرُّوه في بيلمونت بعد الآن. لقد اتَّسعت المسألة بأكثر ممَّا أمِّلت أن تتَّسع، سيدخل الأدهم في ذلك السِّباق بعد!».

مرَّ أسبوع آخر. غادرت أمُّ أليك بيتها لتزور أختها في (شيكاغو). كان سباق المباراة سيجري بعد أسبوعٍ واحدٍ وحسب.

أحسَّ أليك بقليلٍ من الخيبة فيما أخذ طريقه نحو العنبر في ساعةٍ باكرةٍ ذاتَ صباحٍ؛ ليدِّرب الأدهم قليلاً قبل أن يذهب إلى المدرسة. كان الوقت يضيق، لو أنَّ لديهم أسبوعَين آخرَين وحسب. التقى (بتوني) خارجاً من العنبر (بنابليون).

قال: «هلو، أيُّها الشَّاب. آه، هذه هي الحياة». دقَّ ذراعيه القصيرتين النحيفتين على صدره وتنشَّق هواء الصَّباح الباكر.

قال أليك: «أي والله، يا توني».

أردف (توني نابليون) بعربته وبدأ يلجمه ويشدُّه إليها. قال: «ما القضيَّة، أيُّها الشَّاب!. إنَّك تبدو وكأنَّك هابطٌ في بئرٍ من الكآبة».

أجاب أليك: «إنَّني على ما يرام يا توني، أظنُّ أنَّني كنت أفكِّر وحسب».

فقال (توني) في تعقُّل، فيما صعد إلى مقعده: «إنَّ كثيراً من التَّفكير لا ينفع».

- «أظنك على صواب، يا توني. أراك فيما بعد».

جاءه الجواب: «إلى اللِّقاء».

قاد أليك الأدهمَ خارج حظيرته ومسح جسمه بقطعة قماش خفيف. ثُمَّ شدَّ حبل الرَّصاص الطَّويل على زمامه وقاده إلى الخارج في ضوء شمس الصَّباح الباكر. راح الجواد يركض حول الغلام. قارعاً كعوبه عالياً في الهواء. ثُمَّ اقترب وحاول في معابثة أن يُعضعض أليك. سأل أليك: «تشعر بأنَّك جيِّد جداً هذا الصَّباح. أليس كذلك؟».

بعد بضع دقائق رمى السرج عليه وركبه إلى الحقل. كان بشكل ما يشعر على الدَّوام بشعور مختلف حين يكون على ظهر الأدهم. كان كأنَّه في عالمٍ خاصٍ به. كان ينسى مشاكله والمدينة من حوله، كما لو أنَّه يطير في السَّحاب.

بعد نصف ساعة انزلق من ظهر الجواد وقاده عائداً به إلى العنبر. وكان قد انتهى لتوِّه من إطعامه حين دخل (هنري). قال أليك: «لقد فات وقت المدرسة أو كاد. أترَى بأساً في أن أمسحه بقطعة القماش؟» وتوقَّف فيما رأى تكشيرةً عريضةً على وجه (هنري).

قال هنري: «بالتَّأكيد ولكن اقرأ هذا قبل أن تذهب، يا غلام!». وناول أليك جريدة. فتحها أليك بسرعة على عمود (جيم)، بدأ قلبه وكأنَّه وقف حين قرأ العنوان: «الجواد الغامض سيجري في سباق المباراة بشيكاغو» امتلأت نفسه غروراً ولم يستطع أن يرى لمدَّة دقيقة، ثُمَّ اتَّضحت أمام عينيه مرَّة أخرى.

كتب جيم نيفيل: «بالأمس استلمت رسالة من أمتع ما سبق، إن كان لي شرف استلامها، كانت من المستر. ايل. هرست صاحب إعصار. كانت رسالته قصيرة واضحة الهدف. لقد اقترح فيها أنَّه ما دام سباق المباراة الذي سيُقام في شيكاغو في الأسبوع المقبل. إنَّما سيُقام لغرض المسابقة الخالصة، وجميع أرباحه ستذهب إلى الجمعيَّات الخيريَّة، فلم يرَ من سببٍ يحول دون أن يجري الأدهم ضدَّ جواده غازي الشمَّس، وقال المستر هرست أنَّه يعتقد مخلصاً بأنَّ إعصار لم يدفع قط إلى الرَّكض بالسُّرعة التي يستطيعها، وإذا كان مالك الجواد الغامض يعتقد بأنَّ حصانه يستطيع أن يقهر إعصارا، فلن يعارض في أن يحاول ما دام المستر سي تر. فولنس مالك غازي الشمس راضياً أيضاً».

«وحالما استلمت رسالة المستر هرست، تلفنت إلى المستر فولنس في لوس انجيلوس وقرأتها له. سألته إذا كان يشعر بالشَّيء ذاته. فقال: «نعم بالضَّبط». وذهب إلى أكثر من ذلك. إلى حدٍّ قوله إنَّه ما دامت البلاد تتحدَّث بهذه الكثرة عن الجواد الغامض، فإنَّ ذلك سيوفِّر عليهما الاشتراك في سباقٍ منافسةٍ آخر في الشَّهر القادم. قال: «من الخير صيد عصفورين بحجر واحد. إعصار وحماقة نيفيل».

قال أليك فيما انتهى من المقال: «حماقة نيفيل، يا مستر فولنس انتظر وحسب، وستراه وهو يجري!».

تطلَّع أليك من الجريدة إلى هنري، وفي بطء انتشرت ابتسامةٌ في وجهه، وبدلاً من أن يشعر بالنَّشوة من الهياج كما كان يتوقَّع، أحسَّ بالبرودة وضبْطِ الأعصاب.

قال: «لقد اشترك، يا هنري. لقد اشترك!». نظر الرَّجل والغلام أحدهما إلى الآخر، ثُمَّ استدارا وسارا نحو الجواد الذي كان قد مدَّ رأسه من باب الحظيرة لينظر إليهما في فضول.

* * *

t.me/ktabrwaya مكتبة

(16)

التّحضير

لم يعرف أليك كيف أنهى بقيَّة ذلك النَّهار في المدرسة. كلُّ ما كان يستطيع أن يفكِّر به هو أنَّه بعد أسبوعٍ من اليوم سيسابق بالأدهم إعصار وغازي الشمَّس! وبطريقةٍ ما، ما زال لا يستطيع أن يصدِّق، بأنَّ هذا يحدث له هو. أليك رامسي.

في تلك الليلة، بعد العشاء، سار إلى غرفة الجلوس حيث كان والده يقرأ. جلس في كرسيٍّ وراح يقلِّب صفحات مجلَّة في عصبيَّة. تطلَّع إليه والده من جريدته وقال:

«استلمت رسالة من أمِّك اليوم يا أليك، إنَّها تتمتَّع بوقتها في شيكاغو وترى خالتك مرَّة أخرى. تقول إنَّه إذا كان كلُّ شيء على ما يرام هنا فستبقى ثلاثةَ أسابيع. أيلائِمك هذا؟»

ابتسم أليك وقال: «بالتَّأكيد يا بابا. أنت طبَّاخ ماهر!».

ضحك أبوه وقال: «ستبدأ الامتحانات في المدرسة قريباً، أليس كذلك، يا بني؟».

- «الأحد».

أوقد أبوه غليونه ثُمَّ التقط الجريدة مرَّةً أخرى. اتَّجه إلى قسم الألعاب الرياضية وسأل: «مستعدٌّ لها؟».

- «أظنُّ ذلك».

أصبحت الغرفة ساكنة. قلَّب أليك مزيداً من صفحات مجلَّته، ثُمَّ تطلَّع إلى أبيه الذي كان وجهه مخفيَّاً وراء الجريدة المنشورة. كان الدُّخان الكثيف يتلوَّى صاعداً نحو السَّقف.

تنحنح أليك ثُمَّ كان على وشك أن يتكلَّم حين حطَّم صوت أبيه الصَّمت!

«كلُّ ما يستطيع المرء أن يقرأه في قسم الألعاب الرِّياضية هذه الأيام أخبار سباق الخيل الذي سيقام في (شيكاغو) يوم الجمعة القادمة. ترى ما هو هذا الجواد الغامض الذي أدخله جيم نيفيل إلى السِّباق؟».

ازدادت سرعة نبض أليك وقال: «أبي».

- «نعم، يا بني؟».

- «أبي، ذلك هو ما أردت أن أتحدَّث إليك عنه. أنت ترى..».

مرَّة أخرى، ترك أبوه الجريدة تسقط في حضنه وتطلَّع إليه.

لم يستطع أليك أن يمنع صوته من الارتجاف حين قال مُتلعثماً: «الجواد الغامض الجواد الغامض هو الأدهم».

تطلَّع الأب إلى ابنه في دهشة. كانت الغرفة ساكنة. وسأله أبوه: «تعني، يا أليك، أنَّ الأدهم هو الحصان الذي يتحدَّث كلُّ النَّاس عنه، إنَّه هو الحصان الغامض؟».

قال أليك: «ذلك صحيح يا أبي». ونهض من كرسيِّه وذهب إلى النَّافذة. سحب الستارة إلى جانبٍ ثُمَّ تركها تسقط مرَّةً أخرى.

سأل المستر رامسي: «لكن من الذي سيركبه في سباقٍ مثل ذلك؟».

حاول أليك أن يبلع ريقه، لكن لم يكن ثمَّة ما يبلعه وأجاب بهدوء: «أنا!».

قُرع جرس الباب. قال أليك في ارتياح «سأذهب أنا واري، يا أبي». كان يعرف أنَّ الطَّارق (هنري) جاء مُجيباً لإشارته من النَّافذة.

دخل هنري وخلع قبَّعته البنِّية العتيقة. حدج أليك بنظرةٍ عارفة. وقال كما لو كان يقرِّر حقيقة واقعة: «مساء الخير، يا مستر رامسي».

أجاب والد أليك: «هلو، هنري. مسرور بأنَّك هنا. لا بدَّ أنَّ لك أيضاً يداً في هذا الأمر، والآن أخبرني أيُّ شيطانٍ يسير بينكما وبين الأدهم؟ كنت أحسُّ بأنَّ شيئاً ما كان يحدث لكنَّني لم أحلم بشيءٍ مدهشٍ كهذا!».

قال هنري: «إنَّها قصَّة طويلة للغاية». ثُمَّ راح. طوال نصف السَّاعة التَّالية، يحدِّثه عن تدريب الأدهم وركوب أليك في منتصف كلِّ ليلة في (بيلمونت). راقب أليك والده فيما كان يُصغي في انتباه إلى (هنري). كيف سيتقبَّل الأمر، كان هو نفسه يحبُّ الخيول، لكن هل سيدعه يركب؟ كان شيئاً حسناً أنَّ أمَّه لم تكن هنا!

حين انتهى هنري، التفت أبوه إليه وقال: «اتركنا وحدنا بضع دقائق، يا أليك، من فضلك!».

أومأ أليك برأسه وصعد الدَّرج إلى غرفته. تطلَّع (هنري) إلى (المستر رامسي) وقال: «عليك أن تدعه يركب في ذلك السِّباق؛ إنَّ قلبه وروحه مندمجان فيه، ليس أليك نفس الغلام الذي أرسلته إلى الهند في الصَّيف الماضي. أنت تعرف ذلك كما أعرفه أنا. بل رجل أحسن ممَّا كان بحيث يصلح لها!».

- «ولكن، يا هنري، إنَّه سباق خطر عليه أن يشترك فيه، على ذلك الحصان الوحشيِّ!».

- «ليس أكثر خطراً ممَّا واجه عدَّة مرَّات منذ أن غرقت الباخرة في المحيط. لقد أصبحت أعرف غلامك جيِّداً خلال الأشهر القليلة الماضية، وأستطيع أن أقول صادقاً إنَّه يختلف عن أيٍّ واحدٍ منا. لقد وجد شيئاً لن نجده، لأنَّنا لن نمرَّ بالتَّجربة التي كان عليه أن يمرَّ بها».
توقَّف هنري لحظات قليلة ثُمَّ استمرَّ قائلاً:

«وفضلاً عن ذلك، سأكون فخوراً للغاية أن يكون لي غلام يستطيع أن يركب ذلك الجواد الأدهم، وهو شيء لا يستطيع غيره في العالم أن يفعله كما أنا واثق!».

نهض (المستر رامسي) وسار عبر الغرفة. ولم يقل شيئاً مدى لحظات قليلة. ثُمَّ سار مرَّة أخرى نحو الدَّرج وقال: «حسناً، يا هنري. سأخبر أليك بأنَّه يستطيع أن يركب!».

* * *

تلفَن (جيم نيفيل) إلى هنري صباح اليوم التَّالي ليخبره بأنَّ كلَّ شيء قد رُتِّب للأدهم. وستُدفع نفقات شحن الخيول الثَّلاثة إلى (شيكاغو) من أرباح السِّباق، شأن بقيَّة النَّفقات الأخرى من ميدان السِّباق وإليه. كان إعصار وغازي الشمس سيغادران مكانيهما يوم الاثنين أو الثلاثاء، فيستطيعان بذلك أن يحصلا على يومين من التَّدريب قبل السِّباق.

لم يستطع هنري أن يخبره متى سيكون الأدهم مهيَّأً للسَّفر، فعليه أن يسأل أليك أوَّلاً عن ذلك.

قال جيم: «مهما فعلت فلا تجرَّه في بيلمونت بعد الآن. إنَّني أحاول أن أُبقي هويَّة الحصان الغامض سراً، لأنَّها إذا ما انكشفت فسيجتاحكما طوفان من المخبرين الصَّحفيِّين وسيجعل ذلك الأيَّام الأخيرة القليلة أيَّاماً محمومةً أكثر ممَّا هي. ستكون للأدهم إثارة كافية حتَّى والأمور على ما هي عليه الآن!». توقَّف (جيم) ثُمَّ واصل الكلام سائلاً: «أأنت واثقٌ من أنَّه في حالٍ جيِّدةٍ يا هنري؟».

يا ولد، لقد أولعت به ودهشت. إنَّني لأتساءل عمَّا إذا كنت في حلم ممَّا حدث تلك الليلة، ذلك سبب تطلُّعي الدَّائم إلى ساعة التَّوقيت في جرار منضدتي، ذلك هو الشَّيء الوحيد الذي يجدِّد ثقتي».

ضحك هنري وقال: «بالتَّأكيد، إنَّه في أحسن حال».

بعد بضع دقائق من مغادرة (جيم) دخل أليك إلى العنبر.

قال هنري: «لقد مر جيم قبل هُنيهة، كلُّ شيء جاهز لشحن الأدهم وإعداد إسطبل له هناك، لن تكون هناك أيَّة نفقات مطلقاً!» نظر (هنري) إلى الجواد في الحقل وقال: «متى نستطيع أن نغادر يا أليك؟ إنَّ إعصار وغازي الشمس سيغادران غداً على أبعد تقدير. ذلك يعني أنَّهما سيكون لديهما أيَّام قليلة للاعتياد على ميدان السِّباق».

أجاب أليك: «لقد تحدَّثت في الأمر مع أبي مرَّة أخرى. إنَّه يسمح لي بالرُّكوب، على شرطٍ واحدٍ، أن أبقى حتَّى أُنهي امتحاناتي».

- «كم سيأخذ ذلك؟».

- «سأبدأها غداً وأجتاز آخرها صباح الخميس».

قال هنري: «هاي. والسِّباق يوم السَّبت».

- «نعم، لكنَّ أبي خابر المحطَّة فوجد أنَّ هناك قطاراً يغادر بعد ظهر يوم الخميس ويصل إلى (شيكاغو) في الصَّباح الباكر من يوم الجمعة. إنَّه الشَّيء المناسب الوحيد الذي نستطيع عمله، يا هنري، وهو مُمتلئُ النَّفس فخراً بالأمر كلِّه».

- «أنت على صواب، يا بني. وليس ذلك بالأمر السِّيئ، سنصل هناك قبل الميعاد بيوم. لعلَّ من الأحسن أنَّنا لا نصل إلى هناك مبكِّرين للغاية، لأنَّ الأدهم هو الذي سنسابق به».

* * *

ألقى أليك قلمه من يده. ها هو امتحانه الأخير قد انتهى! نشف ورقته بعناية وتطلَّع إلى السَّاعة، كان الوقت ظهراً تقريباً. عليه أن يسرع إذا كانا سيذهبان في قطار السَّاعة الثَّالثة. سلَّم ورقته إلى المعلِّم وسار خارجاً من الغرفة.

وفي القاعة التقى (بهويف وبيل). سأله بيل: «كيف كانت؟».

أجاب أليك، وهو ينطلق ذاهباً: «لا بأس».

وجاريَاه في مشيه، وسأله هويف: «فيم السُّرعة؟».

أجاب أليك: «عليَّ الذَّهاب إلى البيت، عملٌ ما أقوم به». سيكون ثمَّة كثيرٌ من العمل قبل أن يضعوا الأدهم في القطار.

سأل هويف: «كيف حالك مع الأدهم؟».

- «حسن، لماذا لم يعد يراكما أحد بعد؟».

أجاب هويف: أرجوك، لا أريد مزيداً من رؤية ذلك الحصان، إنه يبدو خطراً للغاية!».

ووافقه بيل قائلاً: «وأنا كذلك. وبمناسبة الحديث عن الخيول، أستصغي إلى السِّباق الكبير بعد غد؟» هز أليك كتفيه.

قال بيل: «سيكون عظيماً ولا ريب. تُرى من هو الجواد الغامض الذي سيجري؟ من سيكون؟ قال هويف مُتضاحكاً: «لعلَّه لقام ما. سيكون إعصار هو الفائز».

قال بيل: «لن يفوز وغازي الشمس في السِّباق، من تظنُّ أنَّه سيربح يا أليك؟».

ابتسم أليك وقال: «حسن أنَّ الجواد الوحيد الذي تركتماه لي هو الحصان الغامض ولهذا أظنُّ أنَّني سأختاره».

قال بيل ضاحكاً: «أنت خاسر».

غمغم أليك: «وقال وهو يخرج من الباب: «إلى اللِّقاء أيُّها الرَّجلان».

- «إلى اللِّقاء».

حين وصل إلى البيت. وجد أباه ينتظره. ولم يتحدَّثا عن السِّباق بينما كانا يأكلان الغداء. ثُمَّ ذهبا إلى العنبر. لم يكن أليك عصبيّاً، كان عوضاً عن ذلك، هادئاً ومتلهفاً لأن يباري بسرعة الأدهم إعصار وغازي الشمس.

وأمام العنبر رأى أليك (هنري وجيم نيفيل). كان كلاهما ذاهباً إلى (شيكاغو) مع الأدهم وأليك. ثُمَّ كان هناك (جو روسو) وشخص آخر يحمل آلة تصوير، وإلى جانبهم وقفت سيَّارة كبيرة لنقل الخيول. حيَّا أليك وأبوه الجماعةَ القليلة.

سأل هنري: «أكلُّ شيء مُهيَّأٌ، يا أليك؟».

أجاب جيم نيفيل معابثاً: «أتصوَّر أنَّك قطعت ذلك الامتحان بخطواتك اليوم».

أجاب أليك: «أرجو ذلك» لكنَّ أفكاره كانت تسبق الحوادث. أومأ برأسه نحو عربة النَّقل وقال: «أظنُّ أنَّنا ذاهبون إلى القطار في نظام، هيه، يا هنري؟».

قال هنري: «أصبت. نحن ذاهبون إلى شيكاغو في نظام أيضاً. أخبرني جيم أنَّ لنا سيَّارتنا الخاصَّة التي تنتظرنا في المحطَّة!».

غمغم أليك: «كلا!».

- «نعم، أليس الأمر كذلك، يا جيم؟».

أجاب جيم: «بالتَّأكيد. لقد ذهب إعصار وغازي الشمس إلى شيكاغو في سيَّارتين خاصَّتين، وليس من سبب يمنع ذهاب الأدهم كذلك. بالإضافة إلى ذلك، هناك الكثير من النَّاس وقد أتوا من كلِّ مكان ليروا هذه الخيول الثَّلاثة، لهذا يجب أن تبدو على أحسن ما يكون».

قال أليك: «عظيم!».

قال هنري: «انظر ما أعطانا جيم». ومدَّ يديه بدثارٍ ثقيلٍ أسود ممَّا يُستعمل للخيول، له حاشية عريضة حوله وفي وسطه كُتب بحروف بيض «الأدهم».

قال أليك: «ذلك عظيم منك يا جيم».

ابتسم جيم وقال: «لا أستطيع تركهما يتفوَّقان على الأدهم بأيِّ شيء».

حمحم الجواد حين دخل أليك العنبر. أخذ أليك قطعة قماش ناعم ومسح بها جسده الضَّخم قال: «حسناً، يا ولد. سنذهب إلى

السِّباق». رمى (هنري) إليه دثاراً فلفه أليك حول الجواد. قال مزهواً: «هاك. سيجعلك هذا دافئاً ناعماً».

قال هنري: «إنَّه، يجعله يبدو للعين كجوادٍ حقيقيٍّ».

ربَّت هنري عنقِ الجواد وقال: «إنَّه جوادٌ حقيقيٌّ».

ثُمَّ قاده خارج العنبر. شبَّ الأدهم على قائمتيه الخلفيَّتين حين رأى الحشد الصَّغير. ثُمَّ رفع رجليه عالياً وراح يسير في حذرٍ في دائرة.

سأل (جو روسو): «لنلتقط بعض الصُّور له تُنشر في الجريدة ما رأيك يا أليك؟» أجاب أليك: «بالتَّأكيد. تعال، يا هنري، ستكون أنت في الصُّورة أيضاً».

مرَّت عشر دقائق بينما راح المصوِّر الفوتوغرافي يلتقط صوراً. حتَّى والد أليك ظهر في تلك الصُّور.

ابتسم أليك وقال: «آمل أن تكون قادراً على استعمال هذه الصُّور بعد يوم السَّبت».

شبّ الأدهم على قائمتيه الخلفيَّتين مرَّة أخرى فيما بدا الغلام يقوده صهل صهيلاً عالياً واستدار رأسه نحو العنبر، سأل أليك: «ما القصَّة يا رجل؟»

قال هنري: «أنا أعرف. ففي كلِّ مرَّة وضعناه فيها في سيَّارة الشَّحن، كان (نابليون) معه، والآن، لعلَّه يتساءل أين أصبح؟».

قال أليك: «أنت على صواب! لكن علينا أن نرحِّله على أيَّة حال. هيَّا يا أدهم». لكنَّ الجواد شبَّ على قائمتيه الخلفيَّتين مرَّة أخرى، وحين هبط دفع رأسه في صدر أليك. يدفعه إلى العنبر.

قال أليك: «نابليون ليس هناك يا ولد. لقد خرج يعمل مع توني»، لكنَّ الأدهم راح يدفع بأشدَّ وأقسى... ولا غير. بعد خمس عشرة دقيقة كان أليك ما يزال يحاول إدخاله إلى عربة النَّقل. قال: «أخاف أن لا جدوى في ذلك. حين يركِّز ذهنه على شيء ما، فلا يستطيع أحد تغييره!».

نظر (جيم نيفيل) إلى ساعته. وقال محذِّراً «لقد تأخَّرنا. إذا لم نسر بعد بضع دقائق فلن نلحق بالقطار، وليس هناك قطار آخر حتَّى الغد!».

توسَّل أليك قائلاً: «أدهم هيا تعال». لكنَّ الجواد كان يخبط ويدور حول نفسه وحسب، ومنخراه يرتعشان، وعيناه تبحثان عن (نابليون). وعلى حين غِرَّة انتصبت أذناه إلى الأمام. من أقصى الشَّارع جاء صوتٌ مألوف: «تفاح، جزر، فاصولياء، بطاطا، قثَّاء وبازلاء».

غمغم أليك: «إنَّه توني ونابليون. إنَّهما في شارعنا!».

هتف هنري فيما اندفع إلى البوابة: «سأجلبهما».

بعد بضع دقائق انحدر (نابليون) قادماً من الشَّارع بأقصى سرعته. كان (توني وهنري) يجلسان في مقعد العربة يقبضان على جوانبها في يأس، فيما اندفع (نابليون) إلى الطَّريق المعدِّ لمرور السيارات.

صهل الأدهم بصوتٍ عالٍ. واستدار رأسه نحوهما. كانت أرجل نابليون العجوز تطاير الحصا والبلاط.

اندفع نحو الأدهم ودسَّ أنفه في جسمه.

قفز (توني وهنري) من المقعد. غمغم توني: «يا إلهي، ما خطبه؟».

أخبر (هنري توني) كيف كانا يأخذان (نابليون) معهما حين كانا يدرِّبان الأدهم في (بيلمونت) وكيف أنَّ الأدهم كان سيجري الآن في سباق المباراة الكبير في (شيكاغو). وأنهى (هنري) كلامه قائلاً: «والآن، يا توني لا نستطيع إركابه في عربة النَّقل لأنَّنا لم نأخذ نابليون معنا».

تكلَّم (جيم نيفيل) قائلاً: «توني، ألا ترى بأساً في أن نأخذ نابليون معنا إلى السِّباق؟».

بدأ أليك يشعر بأمل أكبر. سأل: «أتظنُّ أنَّنا نستطيع يا جيم؟».

- «لا شكّ، إذا سمح لنا توني بذلك، هناك متَّسع من المكان في القطار، ونحن واثقون من أنَّنا سنجد له إسطبلاً هناك».

«ماذا تقول، يا توني؟ سنعيده إليك الأحد ليلاً أو الاثنين على أبعد حال، ولتسوية الأمر، سندفع لك عن الوقت الذي يستغرقه غياب نابليون!».

تطلَّع (هنري) إلى (نابليون) وهو يقف ورأسه إلى جانب رأس الأدهم، صمت للحظة. ثم ارتسمت على وجهه الأسمر تكشيرة وقال: «بالتَّأكيد، ولم لا. ولكن دون نقود من فضلك وشكراً. لقد ظلَّ حصاناً جيِّداً لمدَّة خمسة عشر عاماً، والآن هو في عطلة».

قال أليك: «عظيم يا توني. سيعني ذلك الكثير بالنِّسبة للأدهم ولنا أيضاً».

قال (توني) مزهوّاً وهو يضع يداً حنوناً على عنق (نابليون): «بالتَّأكيد».

قال (جيم نيفيل): «والآن، لنذهب».

قـاد (هنـري نـابليون) وأصـعدَه إلى سـيَّارة الـشَّحن وتبعـه أليـك بالأدهم، لقد صـار مطواعـاً سـهل المـراس الآن بعـد أن كـان عنيـداً وصعب المراس من قبل.

بعد بضع دقائق تدحرجت السيَّارة سائرة. لوَّحوا بأيديهم للجماعـة الصَّغيرة من الواقفين إلى جانب الجرن.

هتف (جو روسو): «حظّاً سعيداً. وراهنوا عليه بكلٍّ ما لديكم».

وصاح توني: «اعتنوا بنابليون».

ثُمَّ اجتازوا البوَّابة.

قال هنري: «لقد انطلقنا».

* * *

(17)

شيكاغو

كانت الثَّانية والنَّصف حسب ساعة (جيم) حين وصلوا إلى ساحة الحمولة. قال: «مع الوقت».

كانت سيَّارات الشَّحن المحمَّلة بالشَّحنات من القطارات تندفع إلى السَّاحات ومزاميرها تُلعلع، وكانت صيحات الرِّجال تتردَّد في هواء ما بعد الظُّهر. أوقف (هنري) عربة الشَّحن. قال جيم: «سأجد إلى أين ينبغي أن نذهب. انتظرا هنا».

تطلَّع أليك من الشُّباك وراءه. فرأى رأسَي الأدهم و(نابليون). كان الجواد يخبط الأرض بقدميه. قال: «أظنُّ أنَّ الضَّوضاء هنا جعلته عصبيَّاً نوعاً ما، يا هنري».

- نعم، علينا أن نُراقبه. لا نريد أن يتهيَّج كثيراً قبل السَّباق بقليل.

بعد بضع دقائق عاد (جيم). وقال: «إنَّ عربتنا هناك في النَّهاية». تحرَّك (هنري) بالسيَّارة وخرج من السَّاحات المزدحمة. أشار جيم إلى السيارة وقال: «تلك هي».

قال هنري: «أستطيع أن أتقهقر بالسيارة إلى الباب» وأدار دفَّة القيادة واستمرَّ يقول: «لن يكاد يعلم أنَّه يدخل إليها».

حين وقَّف هنري سيَّارة الشَّحن، قفز (جيم وأليك) منها وصعدا إلى القطار. وتبعهما أليك. قال أليك فيما نظر حوله: «أقول، هذا

عظيم!» كان إسطبلاً على هيئة صندوق في أحد طرفيّ العربة وكانت ثلاثة أسرَّة في مقدِّمتها، وافقه هنري قائلاً: «ليس بالمكان الرَّديء. لن يكترث الأدهم كثيراً من هذا».

قال جيم: «ليس لدينا إسطبل لنابليون، مع ذلك».

قال هنري: «نستطيع أن نضعه خارج إسطبل الأدهم، ونحرك أسرتنا إلى هذه النَّاحية».

بعد أن حرّكوا الأسرَّة وفرش (هنري) إسطبل الجواد بالقشّ ذهب أليك ليجلب الأدهم.

فتح مؤخِّرة سيَّارة الشَّحن ودخل فصار إلى جانبه. تحرَّك الأدهم في عصبيَّة. ربَّت أليك عنقه وقال: «هلو، يا ولد...» دفع (نابليون) وجهه نحوه فحكَّ أليك أنفه أيضاً وقال: «ستذهبان كلاكما في ركوبٍ طويلٍ الآن». قبض لجام الأدهم وسيَّره إلى الوراء حتَّى أدخله الإسطبل. فمدَّ الحصان عنقه رافعاً إيَّاه عالياً في الهواء واستمرَّت رجله تخبط الأرض. قال أليك: «هيَّا، يا ولد. على مهلك الآن».

قال هنري: «لا تُدخل نابليون الآن، سأحتاج إلى المزيد من القشّ إذا أردنا أن نفرش له بصورة مريحة سأذهب وأرى إذا كنت أستطيع الحصول على بعض القشّ».

قال جيم: «سأذهب معك يا هنري. عليَّ أن أُعيد عربة النَّقل هذه إلى مكانها».

حالما ذهبا، دخل أليك إلى عربة النَّقل وسحب صندوق (هنري) الضَّخم إلى داخل عربة القطار. فتحه وأخرج قميص هنري الأخضر اللامع وقبَّعته الخاصَّة بالفارس. سيلبسها يوم الجمعة! نفس الأشياء

حتَّى رقم (3) الحائل الذي كان (هنري) يلبسه حين فاز هـو و(تـشانغ) بسباق الخيل في (كنتكي)! تـصلَّب حلقـوم أليـك حـين أعادهمـا إلى الصُّندوق في عناية.

بعد بُرهةٍ قصيرةٍ، عاد هنري يحمل حُزمة مـن القـشّ. نثرهـا أمـام إسطبل الأدهم. قال: «تستطيع أن تُدخل نـابليون الآن». انتـصبت أذنـا (نابليون) إلى أمام حين رأى الأدهم. مدَّ أنفه نحوه.

صعد (جيمٍ) إلى العربة وقال: «كلُّ شيء قـد رُتِّـب». بعـد خمـس عشرة دقيقة صفَّر القطار. هتف أليك: «شيكاغو! ها قد وصلنا».

* * *

بات يتقلَّب على سـريره تلـك الليلـة. فقـد أبقتـه في يقظـة قعقعـةُ العجلات على السِّكة الحديديَّة. سمـع الأدهـم يتحـرَّك دون راحـةٍ في إسطبله. نهض أليك وأخذ طريقـه. في هـدوء إليـه. عـرف مـن تـنفس (هنري وجيم) العميق أنَّهما مستغرقان في النَّوم.

(نابليون)، أيضاً، كان نائماً.

حمحم الأدهم حين رأى الغلام. حكَّ أليـك رأس الجـواد وقـال: «ش!! يا ولد».

تأرجح القطار قليلاً، فنفر الأدهم. سأل أليـك: «لـيس بأسـوأ مـن السَّفينة، مع ذلك. أليس كذلك؟» هزَّ الأدهم رأسـه. بقـي أليـك معـه لمدَّة ربع ساعة. ثُمَّ ربَّته للمرَّة الأخيرة وقال: «علينا أن نحاول أن ننـام قليلاً، يا ولد، كلانا يحتاج النَّوم».

عاد إلى سريره واضطجع. وانزلق إلى النَّـوم. كـان يحلـم بالـسِّباق المقبل. ثُمَّ فتح عينيه وحدَّق في السَّقف. عليـه أن يُقلـع عـن الـتَّفكير.

عليه أن ينام قليلاً. حاول أن يركّز فكره في اصطدام العجلات الرَّتيب الموزون بالسّكة الحديديَّة.

خُيِّلَ إليه أنَّها تقول: «شيكاغو، شيكاغو، شيكاغو». واستغرق أليك في النَّوم.

فجأة أحسَّ أنَّ (هنري) يهزُّه. كان هو و(جيم) كلاهما لابسين ملابسهما. قال هنري: «لقد أوشكنا أن نصل».

فراح أليك يرتدي ملابسه وهو نعسان. سأله جيم: «كيف أنت يا غلام؟».

أجاب أليك: «على خير ما يرام».

قال هنري: «إنَّنا ندخل في حدود المدينة الآن».

سأل أليك: «كم تبعد ساحة السِّباق عن المحطَّة؟».

نظر (جيم) إلى ساعته وقال: «ركوب ما يقارب خمساً وأربعين دقيقة. إنَّها الخامسة والنِّصف الآن. إذا كانت العربة التي أبرقت موصياً عليها، تنتظرنا، فسنكون في ساحة السباق في السَّاعة السادسة والنِّصف على أبعد تقدير».

قال هنري: «لنأمل أنَّها هناك، سيكون أفضل لو أنَّنا استطعنا أن نصل إلى ساحة السباق، قبل أن يبدأ النَّاس بالتوافد عليها».

دخل القطار إلى ساحات الحمولة. وضع أليك دثار الأدهم الجديد حوله وتولَّى (هنري) أمر (نابليون)، وفيما باطأ القطار حركته فتح جيم باب عربة القطار. كانت سيَّارات الشَّحن تقعقع إلى جانب القطار. قال هنري: «إنَّها لا تقلُّ سوءاً عن نيويورك».

قال (جيم) وهو يقفز من القطار حين وقف: «سأرى ما إذا استطعت أن أجد عربة نقلنا».

تحرَّك الأدهم في قلق، فأمسكه أليك بأشدَّ ممَّا كان يمسكه. حرَّك (هنري نابليون) حتَّى صار أقرب إليه. راحت عينا الجواد المذعورتان تحدِّقان في عصبيَّة خارج الباب المفتوح، هدأ حين مدَّ (نابليون) رأسه إليه.

تحرَّكت سيَّارة ناقلة على طول جانب عربة القطار. ثُمَّ سمعا صوت جيم: «ارجعها إلى الوراء حتَّى تصير مؤخِّرتها عند الباب». هكذا قال يوجِّه السَّائق. بعد بضع دقائق، قاد أليك الأدهم إلى السيارة النَّاقلة وتبعهما (هنري ونابليون). كانت شوارع الصَّباح الباكر مُقفرة مهجورة، فساروا بسرعةٍ عظيمةٍ إلى ساحة السِّباق. اجتازوا المواقف الضَّخمة ثُمَّ اندفعوا يجتازون البوَّابة قرب الإسطبلات.

أوقفهم حارس الباب. سائلاً: «ماذا تريديون؟»

أجابه جيم: «أنا جيم نيفيل. لدينا حصان هنا لسباق الغد».

ابتسم حارس الباب وقال: «الحصان الغامض، هيه؟ لقد كنَّا ننتظره» وفتح الباب هاتفاً بهم: «استعملوا أيَّ إسطبل تشاؤون. لكن لا تقتربوا كثيراً من غازي الشمس وإعصار». ثُمَّ أضاف متضاحكاً: «لعلَّ الأفضل أن تقتربوا منهما الآن، لأنَّكما لن تقتربا منهما غداً!».

قال جيم: «إنَّه يُحبُّ التَّنكيت، أليس كذلك؟».

قال هنري: «سوف يغيِّر لهجته».

حدَّق أليك إلى الوراء من خلال النَّافذة ناظراً الأدهم. كان رأس الجواد ما يزال ممدوداً نحو رأس (نابليون).

بعد خمس عشرة دقيقة، أدخلوا الأدهم إلى إسطبله الجديد. ووضعوا (نابليون) في الإسطبل الخالي التَّالي له. بدا ميدان السِّباق مهجوراً في سكون الصَّباح الباكر.

قال أليك: «أظنُّ أنَّه لا يُسمح للزُّوار بالدُّخول».

أجاب هنري: «سيكون إعصار وغازي الشمس على الخطِّ بعد حين. وسيأتي الرَّجلان الموكَّلان بإسطبليهما حالما يسمعان أنَّنا قد وصلنا».

وذكَّرهما جيم قائلاً: «ولن تستطيعا أن تُبعدا رجال الصَّحافة عن هنا، اليوم».

قال هنري: «علينا أن نبعدهم عن الأدهم، وإلا فلن يستطيع أحد أن يقول ما الذي سيحدث».

أشغل أليك وهنري، آنذاك نفسيهما بجعل الإسطبلين مُريحين للجواد ولنابليون، بينما ذهب (جيم) ليرى إعصار وغازي الشمس. كان الإسفنج والملابس والفرش تخرج من رزمها.

تطلَّع هنري ورأى حشداً من النَّاس يأخذون طريقهم نحوهم.

قال لأليك: «لا بُدَّ أنَّ تدريبات غازي الشمس وإعصار قد انتهت».

خرج (هنري) من الحظيرة ليقابلهم تاركاً أليك مع الأدهم.

رأى أنَّ الحشد كان مؤلفاً من المُخبرين الصَّحفيين وخدم الإسطبلات كما سبق (لجيم) أن توقَّع. حيَّاهم هنري قائلاً: «صباح الخير».

ضحك أحد الرِّجال قائلاً: «أتينا لنرى الحصان العجيب».

صحَّح له رجلٌ آخرَ قائلاً: «تعني الحصان الغامض».

قال هنري، مشيراً إلى الأدهم الذي كانت عيناه الهائجتان، تحدِّقان فيهم: «ها هو ذا».

ربَّت أليك رأس الجواد قائلاً: «على مهلك، يا رجل».

بدأ بعض الرِّجال يقتربون أكثر.

قال هنري وهو يوقفهم: «عليكم أن تبتعدوا عن حظيرته، إنَّه متهيِّجٌ ونحن نريد أن نهدئه».

زمجر مُخبر صحفي قائلاً: «متقلِّبُ المزاج، هيه؟».

بدأ مزاج (هنري) الايرلندي يرتفع هائجاً: «حسبك من التعليق البائخ. إذا لم يعجبكم حيث تقفون فسأرميكم خارجاً».

رأى الرِّجال أنَّ (هنري) كان يعني ما يقول، فابتعدوا عنه. بعد بضع دقائق، انفضُّوا، قال أحد خدم الإسطبلات: «لعلَّه لن يكون معجباً بنفسه إلى هذا الحدِّ، بعد غد».

قال آخر: «لا أدري كيف اشترك في هذا السِّباق، على أية حال!».

بعد فترة وجيزة عاد (جيم)، وقال: «يبدو غازي الشمس وإعصار وهما في أحسن حال، لماذا لا تذهبان وتريانهما. وسأعُنى بالأدهم».

قال هنري: «أظنُّ أنَّنا سنذهب، تعال يا أليك».

ذهبا أولاً إلى إسطبل إعصار. كان ثمَّة حشدٌ أمامه، واختلط هنري وأليك بالحشد دون أن يميِّزهما أحد. كان إعصار قد اقتيد من إسطبله ليستطيع المصوِّرون الفوتوغرافيُّون التقاط صور له.

كان حصاناً ضخماً، في مثل ضخامة الأدهم تقريباً. وكان فراؤه يلمع بلونٍ أحمر مشعّ في شمس الصَّباح. تحرَّك في جلال دائراً حول

نفسه. كان رأسه أضخم من رأس الأدهم، ولم يكن لعينيه تلك النَّظرة الوحشيَّة الحادَّة.

همس هنري: «تستطيع أن تعرف أنَّه وُلِدَ وترعرع في كنتكي. إنَّه مخلوق للسُّرعة على الدَّوام». أومأ أليك برأسه مؤمناً وقال: «إنَّه ولا ريب خالص النَّسب».

راحا يُراقبان بينما أخذ المصوِّرون الفوتوغرافيون يلتقطون الصُّور له. ثُمَّ سارا في الخطِّ نحو إسطبل غازي الشمس. رأياه فيما كان يُقاد من ميدان السِّباق. شهق أليك بنفسه، لقد كان يوشك أن يكون في مثل ضخامة الأدهم وقوته! كان فراؤه أبيض ناصعاً، وكان رأسه صغيراً وعنقه يرتفع على هيئة هلال كعنق الأدهم.

قال أليك: «إنَّه يكاد يبدو كالأدهم».

همس هنري: «نعم، إنَّه عربيٌّ إلى حدٍّ ما، أيضاً. لعلَّه سيكون الجواد الذي علينا أن نقهره لكنَّنا لا نستطيع أن ننسى إعصار». والتفت برأسه إلى الوراء وواصل الكلام قائلاً: «إنَّ ذلك الحصان لم يُدفع، حتَّى الآن، إلى الرَّكض بأقصى سرعته. فهو يركض بسرعة تكفي لأن يربح، وحسب».

قال أليك: «سيكون من الصَّعب قهر أيٍّ منهما».

قال هنري: «أسرعُ حصانٍ في العالم، صدِّقني. لكنَّنا كنَّا نعرف مع أيِّ حصان نتسابق».

قال أليك: «ما زلت أعتقد أنَّ الأدهم يستطيع أن يقهرهما كليهما».

***

(18)

سباق المباراة

حلَّ يوم السِّباق الكبير، اتَّجهت أنظار الأمَّة نحو (شيكاغو)، وطوال الصَّباح راحت القطر والباصات والحافلات والطَّائرات تزأر متَّجهة نحو المدينة، فيهبط منها ألوف المسافرين الآتين إلى ساحة السِّباق.

اكتسحت روح العيد المدينة بكاملها. أغلقت المكاتب أبوابها ذلك اليوم، وفي كلِّ مكان كان سؤال واحد يتردَّد: «من سيربح؟ إعصار أم غازي الشمس؟».

سأل رجل بوليس يمتطي درَّاجة بخاريَّة كان يوجِّه السِّير والمرور في زاوية من زوايا شيكاغو المزدحمة المائجة، فيما أوقف درَّاجته بجانب (تشارلي): «كيف أنت، يا تشارلي؟».

وجاءه الجواب: «لم أرَ في حياتي شيئاً كهذا، يا بات! من أن يأتون جميعاً، بحقِّ الشَّيطان؟».

كانت زمامير السيارات تنفخ من صفوفها الممتدَّة دون نهاية من أدنى كلِّ شارع إلى أقصاه.

«لقد تعبت أنا نفسي. إنَّهم محتشدون صفّاً صفّاً من هنا إلى ساحة السِّباق. لن تتَّسع لهم جميعاً!. إنَّهم يأتون من جميع أنحاء البلاد ليروا هذا السِّباق، يا ولدي أتمنَّى لو كنتُ هناك أنا نفسي. لأرى إعصار يدحر خصمَيه».

ركل رجل البوليس درَّاجته البخاريَّة وانطلق. هتف وسط زئيرها وهديرها: «إلى اللِّقاء, سيكون غازي الشمس هو الفائز بمسافة ثلاثة أطوال!».

- «سوف ترى، ما رأيك في الحصان الغامض هذا؟».

- «ليس بالكثير، أظنُّ أنَّ الجميع بدؤوا يتساءلون كيف دخل إلى السِّباق، على كلِّ حال. لن يبرز فيه أبداً، إنَّه محشوٌّ بالهواء، لا أكثر. إلى اللِّقاء...».

* * *

في بيتٍ واسع من الشُّقق، غير بعيد عن ساحة السِّباق، كانت أمُّ أليك وخالته تنظران من شبَّاك غرفة الجلوس الواسع، إلى السيارات بطيئة السير، من تحتهما، وفي المدى، كان في وسعهما أن تريا ساحة السِّباق غاصَّة بالنَّاس منذ الآن.

قالت المسز رامسي: «بيس، هل سبق أن رأيت مثل هذا الازدحام وهذه الكَثرة من السيارات في حياتك كلِّها؟ ما الذي يحدث هناك، بحقِّ السَّماء؟».

- «لا تقولي لي إنَّك لم تسمعي بسباق المبارة الكبيرة الذي سيجري اليوم. ظلَّ النَّاس جميعاً يتحدَّثون عنه. وها، إنَّ لديَّ بطاقتين له، كنت أنوي أن أفاجئك!».

- «ولكن، يا بيس، لم يسبق لي أن رأيت سباق خيل في حياتي، لا أدري عن أيِّ شيء هو!».

ضحكت أختها وقالت: «لا شيء في ذلك. الحصان الذي يقطع ساحة السِّباق أوَّلاً، يربح. لا أذهب كثيراً إلى السِّباق. لكن هذا شيء

يجب أن لا يفوِّته أحد. فللمرَّة الأولى والوحيدة سيلتقي إعصار وغازي الشمس لقد سمعت بهما، من المحتمل أنَّه سيكون أعظم سباق خيل في تاريخ السِّباق، وإذا ظننت أنَّك لن تريه بينما نسكن على بعد لا يزيد عن ربع ميل من ساحة السِّباق، فذلك....».

ونظرت إلى الشُّباك وقالت: «انظري إلى هذه الحشود! تعالَي، يا بيل، ولنأخذ قُبَّعتينا ومعطفينا ونذهب لنحصل على مقعدين».

هزَّت (المسز رامسي) رأسها فيما ذهبت تحضر قبَّعتها ومعطفها. وقالت: «إذا عرف زوجي أو ابني أنَّني رأيت هذا السِّباق، فلن أجد لحظة سلام حين أعود إلى البيت. عليَّ أن آخذ حصان أليك إلى البيت آنذاك!. لقد أخبرتك يا بيل بأنَّ كليهما مجنون. إنَّني أقوم بكل ما أستطيع عمله الآن لأضبط كلَّ شيء وأسيطر عليه... إنَّهما يشتهيان ولا شكَّ أن يريا هذا السِّباق!».

- «من المؤسف حقَّاً أنَّهما ليسا هنا، لكن المرجَّح أنَّهما سيصغيان إلى ما يدور فيه، مُذاعاً من الرَّاديو...».

هبطت طائرةٌ من السَّماء الصَّاحية. وفي خفَّة دارت حول الحقل ثُمَّ هبطت وهي تهدر، وتدحرجت قليلاً ووقفت.

أسرع المسافرون نحو الباب. قال أحدهم: «وصلنا في الوقت تماماً، إذا أسرعنا».

صاحت المُضيفة: «الباص ينتظركم رأساً ليأخذكم إلى ساحة السِّباق!».

هرع المسافرون نحو السيارة.

اندفع والد أليك إلى مقعد بجانب السَّائق، سأل: «أتظنُّ أنَّنا سنصل هناك قبل البدء؟».

أجاب السَّائق: «نعم، أظنُّ ذلك، إنَّهم دائماً يستغرقون بعض الوقت لوضع هذه الأطفال المتقلِّب مزاجها على السَّاحة!».

قال الرَّجل الذي انسلَّ إلى المقعد التَّالي له: «إنَّ غازي الشمس يدخل، على الدَّوام، في قتالٍ رهيبٍ قبل بدء السِّباق على كلِّ حال. إنَّه أكثر وحشيَّة من إعصار».

قال رجلٌ وراءهما: «لعلَّه يقوم بقتاله آنذاك. لن يكون قريباً من إعصار بالمرَّة، بعد أن ينطلقا!».

- «أوه، نعم سيكون غازي الشمس هو الفائز بمقدار بُعدين اليوم!». ثُمَّ التفت إلى (المستر رامسي) وسأله: «من تظنُّ سيكون الفائز؟».

- «إنَّني اخترت الحصان الغامض».

أجاب الرَّجل: «أقول، ألا تعلم أنَّك ستكون من ضحايا الشُّهرة وإجماع الجمهور، أراهنك على أنَّه لن يكون ثمَّة حتَّى حصان ثالث اليوم!».

قال والد أليك: «سوف نرى. سوف نرى».

* * *

ربَّت أليك الأدهم وقال: «أوشك الوقت أن يحين، يا ولد». خبط الجواد أرض حظيرته. وفي الخارج كان ثمَّة صفٌّ من الشُّرطة يبعد المتفرِّجين وفي المدى كان في وسع أليك أن يرى المواقف مكتظَّة كانت تنساب نحوهم موسيقى يعزفها جوق.

عاد هنري من معاينة السَّاحة. قال: «سريع كالشَّيطان، الأحسن أن تذهب وتزن، يا بني». توقَّف ورمشت عيناه قليلاً فيما وضع يده على القميص الأخضر الذي كان أليك يرتديه. ثُمَّ ابتسم وقال: «ملائم لقدِّك. أليس كذلك».

أجاب أليك: «عظيم. وكذلك البنطال والقبَّعة» لبس القبَّعة وجذب رفرفها الأمامي الطَّويل على عينيه كي يرى هنري ذلك.

قوَّم (هنري) الرَّقم (3) على ذراع أليك وقال: «سيجلب لك الحظَّ. لقد جلب الحظَّ لي...».

وزن أليك نفسه وكان في طريقه عائداً إلى الإسطبل حين مرَّ بالفارسين اللذين كانا يركبان إعصار وغازي الشمس كانا يبدوان أكبر كثيراً ممَّا ظهرا في الصُّور التي رآها لهما في الجرائد.

رآه أحدهما وقال: «أقول، أنت الولد صاحب الحصان الغامض؟».

أومأ أليك برأسه أن نعم.

غمغم فارس غازي الشمس: «هكذا فأنت ستركب فعلاً في السِّباق! ظننَّا أنَّك مجرَّد جزء من إحدى خدع الدِّعاية والإعلان. أليس كذلك يا ديف؟».

جذبه الفارس الآخر من ذراعه وقال: «هيَّا، لا تُضع الوقت». ثُمَّ تطلَّع إلى أليك وقال: «الأحسن أن تأخذ الأمر على مهل في هذا السباق، يا غلام». ثُمَّ انطلقا سائرين.

ارتفعت موجة الغضب في نفس أليك فيما سار نحو الإسطبل. من يظنُّ هذان الرَّجلان نفسيهما، على كلِّ حال! لمجرَّد أنَّهما من المشتغلين القدماء في هذا النَّوع من اللَّعب، راحا يظنَّان أنَّهما يمتلكان ساحة السِّباق.

أخرج (هنري) الأدهم من حظيرته حين عاد.

سأل: «كلُّ شيء على ما يرام، يا غلام؟».

- «كلُّ شيء على ما يرام».

جعلت الضَّوضاء الآتية من بعيد، الجواد عصبيّاً فراح يعض العليكة التي في فمه. حكَّ أليك عنقه.

واصل هنري الكلام قائلاً: «مجرَّد أشياء قليلة أريدك أن تتذكَّرها، يا أليك، ليس هناك الكثير ممَّا أخبرك به عن معاملة الأدهم وتسييره، أنت تعرف عنه أكثر ممَّا أعرف. أنت فارس ممتاز، وقد علَّمتك كلَّ الحيل التي أعرفها، والآن أصبح بيدك أنت أن تستخدمها. إنَّ هذين الفارسين الآخرين أمهر فارسين عرفتهما الحلبة. لن يدعاك تفلت بشيء لكنَّهما لن يحاولا أيٍّ شيء خارج عن القواعد والأصول. إنَّهما شاطران لكنَّهما ليسا قذرين. وهما هنا لكي يربحا، ولكن.. هكذا أنت أيضاً. تذكَّر أن تحتك حصاناً رائعاً كالذي تحت كليهما». قاطعه أليك قائلاً فيما نظر إلى الأدهم مزهواً: «أنا واثق من ذلك، يا هنري».

واصل هنري الكلام: «لا أستطيع أن آمرك بأن تكبحه، لأنَّك لن تستطيع ذلك. إلبث عليه واركب كما لم تركب قط من قبل: إذا كان الجواد هو الجواد الذي نحسبه فلسوف يفوز على طول الخط!».

كان إعصار أوَّل حصان يخرج من الحظيرة إلى السِّباق. فقوبل بهتاف وتصفيق وهو في طريقه إلى حظيرة خيل السِّباق. كان يجلِّله رداء أحمر ملتهب يلبس غمامات حمراً. وكانت رجلاه الأماميَّتان ملفوفتين بشريط.

بعد بضع دقائق اقتيد غازي الشمس من الحظيرة وهو يكاد يكون محجوباً كله بدثار ابيض من الصُّوف. كانت أرجله الأربع كلُّها ملفَّفة. كان يضرب الأرض، في سيره، بعصبيَّة ورأسه الصَّغير يتلفَّت حوله في خبث، وقد ارتفع هتاف آخر من الجمهور المحتشد حول الحظيرة حين رأوه.

ثُمَّ أطبق على الحشد صمت فيما ظهر الأدهم، وهو مغطًى بثوبه الأسود الجديد، يصحبه (نابليون) العجوز. قاده أليك من حبل الرَّصاص المشدود إلى لجامه. شبّ الجواد على قائمتيه الخلفيَّتين فترك أليك الحبل ينفلت من خلال أصابعه حتَّى سقط. اتقدت عينا الأدهم حين رأى الجوادين الآخرين. تذكَّر أليك القتال الذي دار بين الأدهم وبين الجواد الكستنائي في ريو، فشدد قبضته على الحبل وسار به وراء الجوادين الآخرين بمسافة بعيدة حين بلغا الحلبة.

حطَّم السُّكون زعيق رجلٍ بصوتٍ عالٍ: «ها هو الحصان الغامض!». ثُمَّ بدا كلُّ شخص يتكلَّم، لم يكونوا قد توقَّعوا أن يروا أيَّ شيء كالأدهم، سمع أليك رجلاً يغمغم: «إنَّه أضخم حتَّى من غازي الشمس!». وبعد بضع دقائق نادى أحد موظفي ساحة السِّباق: «ليمتط الفرسان خيولهم!».

خلعت الأدثرة عن الخيول، وأسرج هنري الأدهم ثُمَّ رفع أليك إلى السَّرج. وقال له وهما يسيران حول الحلبة في بطء: «دع الآخرين ينطلقان أوَّلاً، لكي لا يكون هناك أيّ مشكل». كان الأدهم يحدِّق في الحصانين المتقدِّمين عليه بمسافة بعيدة. ارتجف منخراه وهزَّ رأسه في عصبيَّة. كان أليك يعلم أنَّ وجود (نابليون) وحده إلى جانبه هو الذي أبقاه مضبوطاً.

كان صفٌّ طويلٌ من رجال (البوليس) يصدُّ الجمهور ويشقُّ طريقاً من حظيرة خيل السِّباق إلى السَّاحة. ونفخ في الصُّور. فرفع الأدهم رأسه وانتصبت أذناه إلى أمام. قاده هنري نحو ساحة السِّباق.

وقفا أمام البوَّابة. كان إعصار وغازي الشمس يسيران، منذ ذلك، مارِّين بالمنصَّة الكبرى في طريقهما إلى نقطة الانطلاق.

تطلَّع (هنري) إلى أليك وقال في هدوء: «حسناً، يا غلام، أنت سيُّد نفسك الآن، فابذل جهدك!».

خفق قلب أليك حين رأى الجمهور المتراص من النَّاس، يمتدُّ أمامه، قال: «حسناً، يا هنري». صهل (نابليون) العجوز شاكياً حين منعه (هنري) من أن يتبع الأدهم إلى ساحة السَّباق.

كانت كلُّ بقعة حول أسيجة الدَّائرة الخارجيَّة مُكتظَّة بجماهير متهيِّجة. وقد وقف الكثيرون على أعالي السُّطوح، التي تبعد مسافة ميل كامل من نقطة الانطلاق. كان انتباههم مركَّزاً على غازي الشمس وإعصار فيما اجتازا موقفيهما. ثُمَّ رأوا على حين غِرَّة الجواد الأدهم العملاق، وعرفه يتماوج كشعلة نار تتلاعب بها الرِّيح، وهو ينحدر في ساحة السِّباق، نهض المتفرِّجون من مقاعدهم ورُفعت الأيدي المتهيِّجة المناظير إلى العيون.

هتف معلِّق مشهور من المعلِّقين الرِّياضيين مُخاطباً مستمعي الرَّاديو في طول البلاد وعرضها: «إنَّه الحصان الغامض!» قال وقد تركت يده الميكرفون والتقطت برنامج السِّباق: «إنَّه سجِّل باسم الأدهم ويركبه أليك رامسي. وهو يثير كثيراً من الهرج والمرج هنا!، إنَّه من أضخم الخيول التي رأيتها في حياتي، إن لم يكن أكبرها. وهو أسود، أسود كالفحم، إنَّه ضخمٌ وقوي ولا يبدو أنَّه يريد أن يقترب من الحصانين الآخرين. إن أليك رامسي وهو على ظهره يعاني صعوبة في ضبطه والسيطرة عليه. يا إلهي! لقد رأيت كثيراً من الخيول في زمني، لكنِّي لم أر حصاناً له مثل هذه الحركات! إنَّني أقول إنَّ هذا الحصان الذي سمَّاه معظمنا، «حماقة نيفيل» سيبرز بروزاً كبيراً في هذا السِّباق. نعم، يا سادة، يبدو أنَّ هذا السِّباق سيكون أعظم سباق في جميع الأزمان، إن لم أخطئ التَّقدير!».

«والآن، ها هو ذا يقترب من خطِّ الانطلاق، إعصار لا يريد أن يقترب منه وهو يبعد عنه. غازي الشمس واقف في مكانه وقد كشَّر عن أسنانه، إنَّ أمام إعلان البدء متسعاً من الوقت. الحصان الأدهم شيطان فريد! إنَّه يريد الدُّخول في قتال. ها هم يصطفون الآن. ها هو ذا يقفز عالياً في الهواء، ثُمَّ يهوي على غازي الشمس يضربه! أصغوا إلى ذلك الشَّيطان الأسود يصهل، لم أسمع في حياتي شيئاً كصهيله. لقد ارتفع إلى نبرةٍ عالية يكاد أن يكون صفيراً لعلَّكم تستطيعون سماع الصَّفير وها هو أليك رامسي وقد جعله يهبط، إنَّ ذلك الغلام يستطيع، بالتَّأكيد، أن يثبت على صهوة أيِّ حصان. يا له من صراع يدور هناك، أيُّها النَّاس. إنَّ هنا أكثر من ثمانين ألف نسمة وأستطيع أن أقول دون أن أخشى معارضة أحد. لم يسبق لهم كلّهم أن رأوا شيئاً كهذا من قبل!. خذوها منِّي إنَّ الأدهم جوادٌ وحشي – لم يذلَّل تماماً بعد – حصان وحشي في ساحة السِّباق».

«أنتم أيُّها النَّاس الذين رأيتم غازي الشمس تعرفون أنَّ الخيول التي تشترك معه في السِّباق لا تزيد عنه وحشيَّة. ولكنَّه اليوم قد لاقى ندّه ولا ريب، في القتال، على كلِّ حال!.

إنَّه يبتعد عن الأدهم الآن! لقد أصبح إعصار بينهما، ذلك أحسن جعل أليك رامسي يدبِّر أمره مع الأدهم الآن. إنَّ ذلك الغلام يفعل الأعاجيب، لن أرضى بأن أكون مكانه لقاء كل ما في العالم من مال. غازي الشمس لن يقف ساكناً. إنَّه هائجٌ، إنَّه يكره الأدهم. لقد خرج عن الخط. ها هو ذا يذهب ضارباً الأدهم! إنَّه يضربه! أوه، أوه، إن رِجل الأدهم تدمى، لقد كانت ضربة قويَّة عنيفة.

لم يعد أليك رامسي قادراً على السيطرة على حصانه، إنَّه يشبُّ على قائمتيه الخلفيَّتين ثُمَّ يهوي على غازي الشمس. ليس هناك من

سبيلٍ لإيقاف هـذا الـشَّيء! غـازي الـشمس يتراجـع مـرَّة أخـرى، لا نصيب له مع الشَّيطان الأسود! انتظروا، ها هو ذا أليك رامسي يجذب رأس حصانه، إنَّه يديره. لقد سيطر عليـه مـرَّة أخـرى. لقـد أخـذه إلى الخارج. غازي الشمس لا يريد مزيداً من القتال.

لقد عاد إلى مركزه عند العمود.

لا يبدو أنَّ الحكم سيُطلق الخيل. بينما هي هناك، إنَّ رجل الأدهم تدمى بصورةٍ شديدة. لا يبـدو علـى غـازي الـشمس مثـل هـذا الأذى نتيجةً للقتال. إنَّ أليـك رامـسي مـنحنٍ ينظـر إلى جـرح الأدهـم. لقـد نهض، لعلَّه سيترك السِّباق، ويا للأسف، لقد انطلقت! إنَّ الحكـم لم يلحظ أن أليك رامسي كان يهبط من سرجه.

إعصار وغازي الشمس يتباريان رأساً لرأس فيما ينطلقان مجتـازَين المواقف. لقد غودر الأدهم عند نقطة البدء. لقـد خـرج مـن الـسِّباق. كلا، كلا، ها هو ذا يأتي بعدهما! إنَّ فارسـه نـصف جـالس وحـسب على السَّرج. لقد وقف الآن! إنَّه يحاول يائساً أن يوقف الأدهم. إنَّـه لا يريده أن يـركض ورجلـه في تلـك الحـال. إنَّـه يجرُّ الأعنَّـة في غـيظ وحنق، لكن يبدو أنَّ ذلك لا يُجدي فتيلاً. يريـد الأدهـم أن يـركض، إنَّه يُقاتل ليترك رأسه وهواه! يكاد يجذب أليـك رامـسي وينتزعـه مـن سرجه والآن، ساط الأعنَّة من يديه وانتزعها!.

إنَّه وراء الحصانَين الآخرَين بحوالى مائة ياردة، وهي مـسافة أبعـد من أن يقطعها ليلحق بهما، لكنَّه مستمرٌّ في الجري.

لقد قهر إعصار غازي الشمس في الجولة الأولى. وكلاهما يجـري تحت وقع السوط. كلٌّ منهما يريد أن يزيد من سرعته!

إنَّ فارس إعصار يتعمَّد مدَّ جسم حصانه على طوله، حتَّى صارت قوائم إعصار المتحرِّكة في أنف غازي الشمس تماماً. تلك حركة بارعة لإعطاء راكبه مجالاً للتنفس بعد ذلك المجرى الذي يكدّ، ولإرغام غازي الشمس على الحدِّ من سرعته التي جعلته يطأ أعقاب إعصار؟

«ولكن الآن فيما يدوران العطفة، صار غازي الشمس، مذنب كاليفورنيا يتحرَّك مُحاذياً لإعصار، وفيما هما يدخلان الامتداد الخلفيَّ صارا يجريان عنقاً إلى عنق».

وعلى حين غِرَّة ارتفع زئير يصمُّ الآذان من المواقف، صرخ المعلِّق بصورةٍ هستيريَّة: «انظروا، انظروا، إنَّ الأدهم يُقبل كبيت يحترق. لم تروا في حياتكم حصاناً يركض هكذا! إنَّه قوَّة كلُّه، جمالٌ كلُّه، إنَّ المسافة بينه وبين الآخرين أخذت تقل. كيف تقل! ما كنت لأصدِّق ذلك لو لم أره بعينيَّ هاتين. إنَّ إعصار وغازي الشمس يتنافسان على أيُّهما يكون الفائز في الجولة الأخيرة. والأدهم يكاد يكون وراءهما. يا للحركة؛ يا للخطى الجبارة؛ لقد جُنَّ الجمهور. وقد اجتاز غازي الشمس وإعصار عند العطفة وهو في سبيله إلى المقدِّمة. ها هما يأتيان راكضَين في الدَّرب المُفضي إلى الموقف النِّهائي».

بدأ الجمهور يصرخ فيما جاءت الخيول المتسابقة مُرعدة نحوهم، كان غازي الشمس متقدِّماً أمامها. وكان إعصار في المؤخِّرة، لقد سبقه الأدهم. كان غازي الشمس في المقدمة بمسافة طويلة. وفارسه يضرب بسوطه. بدأ الأدهم يتقدَّم ويزداد سُرعة. وها هو الآن وراء غازي الشمس بمسافة طول واحد. لم يُستعمل سوط لضربه، كان فارسه كعقدة صغيرة ضائعة في عرف الجواد الأسود الأثيث.

اكتسحت الجمهور هستيريا فيما مرَّت به الخيول للمرَّة الثَّانية، لم يكن

خطّ النَّهاية يبعد إلا بمسافة مائة ياردة وحسب. صرخ معلَّق الرَّاديو: «لن يلحق بغازي الشمس!» خطف الجواد مجتازاً المواقف وهو يزداد سرعةً مع كلِّ خطوة رائعة. وبحماس فجائي حمل على غازي الشمس. وتردَّد للحظة فيما أصبح في محاذاته. انبهرَت أنفاس الجمهور فيما اندفعت أذنا الأدهم إلى وراء وكشّر عن أسنانه. كانت ثمَّة حركة على ظهره. كانت يد الفارس تعلو وتهبط على قوائم الجواد الخلفيَّة لأوَّل مرَّة في السِّباق. إلى المقدِّمة اندفع الأدهم، ماراً بألوف المصفَّقين، سابقاً بخطوة. بطول، بطولين، ثُمَّ غاص العملاق الجبَّار تحت السلك.

دار الأدهم العطفة الأولى ودخل الامتداد الخلفيَّ مرَّة أخرى قبل أن يستطيع أليك أن يخفِّف من سرعته. كان يعلم أنَّ الألم، وحده، في رجل الجواد هو الذي يمكنه من عمل ذلك آنذاك. وأخيراً أوقفه.

نسي أليك الآلاف المصفِّقة فيما انزلق، وهو منهك، من على ظهر الجواد.

انحنى لينظر إلى الجرح ما أغزر الدَّم! أخذ أليك منديله ولفَّه حول رجل الأدهم ليوقف النَّزف. وقال: «ما كان ينبغي أن تفعلها، يا ولد».

هدرت سيَّارة من نوع (ستيشن واغون) دائرة حول السَّاحة ومتَّجهة نحوهما، مخلِّفة غيمة الغبار في أعقابها، شبَّ الأدهم على قائمتيه الخلفيَّتين فيما اتَّجهت إليهما. قفز هنري منها وجذب رجلاً وراءه.

سأل أليك في لهفة: «أأصيب بأذى كبير؟ هذا هو البيطري».

- «لا أدري. إنَّه ينزف نزفاً شديداً وأعلم أنَّه يؤذيه!».

انحنى البيطار ليفحص الجرح. ذهب هنري إلى السيَّارة وعاد يحمل سطلاً من الماء وإسفنجة وضماداً. نزع البيطري منديل أليك الذي كان الآن مغطًّى بالدَّم.

هدأت أصوات الآلاف الهادرة، حين أدركوا ما كـان يجـري علـى ساحة السباق وتركَّزت العيون كلُّها على الجماعة الصُّغيرة.

ثُمَّ عدَّل البيطري ظهره وقال: «لقد فقد كثيراً من الدَّم، لكنَّ له رجـلاً كالحديد. أعطوه شهرين من الرَّاحة وسيكون بخير كما كان من قبل!».

نظر أليك وهنري أحـدهما إلى الآخـر وكانـت عيونهمـا نديَّـة، لم ينبس أحد ببنت شفة بينما كان البيطري يضمِّد رجل الأدهم ثُـمَّ حطَّـم هنري الصمَّت وقال: «حسناً يا أليك. أظنُّ أنَّك والأدهم فعلتماها!».

وقف البيطري وقال: «حـسناً. والآن أظـنُّ أنَّهـم ينتظرونكمـا عنـد حلقة الفائز».

فيما رفع هنري الغلام إلى السَّرج. ارتفعـت عاصـفة مـن التَّـصفيق من الجمهور. انتـصبت أذنـا الجـواد إلى أمـام وراح يلتفـت حولـه في وحشيَّة. ربَّته أليك على عنقه. وأدرك لأوَّل مـرَّة أنَّ الـسِّباق قـد انتـهى وأنَّهما قد فازا. قال مزهواً: «لقد فعلتها، يا ولد، لقد فعلتها!» انـدفع الدَّم يجـري سـريعاً في عروقـه وخفـق قلبـه علـى أضـلاعه فيمـا راح الجمهور يصفِّق لهما وهما عائدان. شبّ الجواد على قائمتيه الخلفيَّتين عندما بلغا المنصَّة الكبرى.

راحت آلاف العيون تراقـب الأدهـم إذ راح يتـهادى علـى كثـب مـن الجمهور. لم يكن يبغي الاقتراب كثيراً. لكن لم يبد عليه أن يصارع راكبـه. واخترق بعض أفراد الجمهور صفَّ رجال (البوليس) وانـدفعوا نحوهمـا. ووقفوا على حين غِرَّة حـين شـبَّ علـى قائمتيـه الخلفيَّـتين، وعـادوا إلى وراء بسرعة عندما جاء نحـوهم منتـصب الـرَّأس والـذَّيل. كانـت حركتـه جميلة متواثبة، وهو يقفز بعد كل بضع خطوات بسهولة وخفَّـة عجيبـتين. هزَّ الخبراء رؤوسهم هزَّ العالم ممَّا رأوا من حركـات الأدهـم. قـال رجـل عجوز: «هنا أعظم جواد وطئ بقدمه أيَّة ساحة سباق!».

ركب أليك الأدهم واتَّجه نحو موقف المحكمين ثُمَّ دخل حلقة الفائز. فوقف الجواد ساكناً للمرَّة الأولى. كاد أليك وهنري لا يصدِّقان عيونهما. حتَّى المصابيح الملوَّنة التي كانت تنفجر قريباً منه. لا تجعله يفعل أكثر من أن يهزَّ رأسه. وضعوا إكليل الورد، المضفور على هيئة نعل حول عنقه.

تلفَّت أليك إلى الجمهور من تحته، وعلى حين غِرَّة توقَّف، أيمكن أن يكون ذلك أباه؟ هتف: «أبي، أبي!» التفت أبوه ولوَّح بيده. قال أليك: «هنري، انظر! ذلك أبي هناك!».

شقَّ هنري طريقه خلال الجمهور وكان في منتصف طريق العودة مع والد أليك، حين جعلهما صوتٌ مألوف يلتفتان كلاهما، قالت والدة أليك: «يبدو أنَّنا جميعاً هنا!».

شهق (المستر رامسي) وقال: «بيل!».

وضعت يدها على ذراع زوجها وقالت: «لم أقضِ عصر يوم كهذا، حياتي كلَّها. من الوقت الذي رأيت فيه أليك يبرز على الأدهم وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً حول ذلك حتَّى النهاية».

وتوقَّفت ونظرت إلى أليك وهو يجلس، مزهواً على الجواد، ثُمَّ واصلت الكلام قائلة: «ولكن الآن، كلُّ ما أهتمُّ به هو أنَّ ذلك انتهى وأنَّه سالم».

قال هنري وهو يشقُّ، أمامهما الطَّريق نحو أليك: «نحن جميعاً يجب أن نفخر به كثيراً».

منح حاكم الولاية الوسام الذَّهبيَّ المخصَّص للفائز المتفوِّق في ساحة السِّباق.

حين رأى أليك والديه كليهما وهنري، انفغر فمه، ونسي أن يُصغي إلى الحاكم الذي كان يتكلَّم إليه. لم يكن يرى الأشياء، لقد كانا كلاهما هناك!. لوَّح بيده. كان حلقومه متوتِّراً توتُّراً منعه من أن يقول شيئاً. ظلَّ الحاكم يتكلَّم. وهزَّ الأدهم رأسه وخبط الأرض. طقطقت الكاميرات، وراحت الكاميرات السِّينمائيَّة تطحن، ومعلِّقو الرَّاديو يسحبون الميكرفونات وراءهم ويتحدَّثون في آن واحد ويشقُّون طريقهم خلال الحشد.

وأخيراً انتهى الحاكم. وصفَّق الجمهور فيما انزلق أليك مع الأدهم. رفع هنري السَّرج عن ظهر الجواد. وعلى حين غِرَّة اندفع صفٌّ من رجال (البوليس) خلال الجمهور. وجاء بعدهم (جيم نيفيل) يقود (نابليون)، حمحم الجواد ورمى رأسه عالياً في الهواء. أجابه (نابليون) ومدَّ رأسه نحو رأس الأدهم.

قال جيم: «لقد أحسنت، يا غلام. كنت أعرف أنَّكما الاثنين تستطيعان أن تفعلاها!» أومأ برأسه نحو (نابليون) وواصل الكلام قائلاً: «كان يكاد يجنُّ وهو هناك، أراد أن يقوم ببعض التهنئة هو نفسه!».

ضحك أليك وقال: «إنَّه يعود إلى هنا، على كلِّ حال».

شقَّ معلِّقو الرَّاديو طريقهم مندفعين إلى أليك. كان أحدهم يقول: «لقد حطَّمت الرَّقم القياسيَّ العالميَّ!». ثُمَّ أخذوا يسحبون الميكرفونات أمامهم. أشاروا إليه أن يقول شيئاً.

تردَّد أليك لحظة. ثُمَّ قال: «لقد كان الأدهم في مثل الجودة التي ظننَّاها به. كنَّا نعرف أنَّها فيه، وقد أثبت ذلك اليوم!».

ثُمَّ تدخَّل المعلِّق في الحديث وبدأ يسرد تاريخ أليك والأدهم. التقت عينا أليك بعينيٍّ (جيم نيفيل). لقد أخبرهم!

جاء مالكا غازي الشمس وإعصار وهنَّأ أليك. قال (المستر فولنس): «لم أرَ شيئاً مثله طوال مدَّة اشتغالي في السِّباق».

وقال (المستر هرست): «ولا أنا رأيت مثله، لا أتصوَّر أنَّك تفكِّر في بيعه؟».

أجاب أليك مزهوّاً: «كلا، يا سيِّدي، ستسمعان الكثير عن هذا الجواد!» ضحك مالك إعصار وقال: «أخشى ذلك».

واستجابة لطلب المئات من المجتمعين حوله، أخذ أليك يضع ورود إكليل الزُّهور الضَّخم المعقود حول عنق الأدهم، ثُمَّ رمى البقيَّة في وسط الحشد. وخلال ثوانٍ قلائل كان صيَّادو التَّذكارات قد اقتطفوا كلَّ وروده.

شبَّ الأدهم نصف شبَّة على قائمتيه الخلفيَّتين واقترب (نابليون) العجوز منه. ابتسم أليك لهنري ولأمِّه وأبيه. حكَّ أنف الأدهم، ثُمَّ قاد الجواد الضَّخم خلال الجمهور عائداً به إلى شوفان النَّصر المخصَّص له.

-انتهى-

انضموا للقناة

t.me/ktabrwaya مكتبة

الفهرس

لقَد شَاهدَ أليك رَامسي الجَواد الأدهَم أول مَرّة حينَ رسَتْ سَفينتُه في مينَاء عَربي صَغير عَلى البَحرِ الأحمَر. وكانَ الأدهَمُ حصَاناً ضَخماً مَتين العضَل، فائق القوّة، جَميل التقاطيع، قدْ امتدَّ عرفه كَأنّه شعلَة سوداء. وكانَ قد لفّتْ حَولَ رأسه خرقَة بيضَاء غَطَّتْ عينَيْه فهُوَ لذلكَ لا يرى. وقد ارتَفَع عالياً في الهوَاء وَهيأ رجليه ليرفسَ منْ يحاول جره إلى السفينة.

وَلما سَمِعَ أليك رَامسي صهيله وكانَ لا يشبه أي صَوت سمعه من قبل - أدرَك فجأة أنّه يَنظُر إلى أشَد الحيوانات وَحشيّة.

وتحقّقَ حلمُه فإذَا هُوَ قَد ألف الأدهَم وإذا الأدهَم قَد ألفه وَقَامَ بدورٍ مُهمٍّ في حيَاته وَصاحبه في رحلاته الطويلَة ومغامَراته في أمريكَا.

إنَّ الأطفالَ عَلَى اختلاف أعمارهم ستَسُرُهُمْ قراءة (الجَواد الأدهَم) لأن كُلاً منهُم قد يَكونُ أليكَ رَامسي: أنموذج الولَد الأمريكي المملوء مرحاً وحيويّة وشجاعة.

WALTER FARLEY
THE BLACK STALLION

t.me/ktabrwaya


ISBN 978-9933-579-72-2